دكتور عبد العزيز جاد و

الشيخ طنطاوى جوهرى

دراسة ونصوص

دار المعارف

دكتور عبد العزيز حماد

الشيخ طنطاوي جوهري

دراسة ونصوص

دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

يقول إديسون : ليس فى هذا الوجود من نحنى له الرأس إجلالاً عن حب وتقدير إلاّ صُنّاع الزاد للإنسانية .

وحينما اعترض صديقه فورد قائلاً : إذن فأنت تفضل رجال الحقول على عمال المصانع . ضحك إديسون قائلاً : لست أعنى هؤلاء ؛ إنما أقصد زاد الأرواح ، أقصد رسل الفكر من رجال الفلسفة والدين والأدب والفكر .

وهذا حق ؛ لأن رجال الفكر إنما هم تتمة للموكب الخالد ، موكب الرسالات السماوية ، التى احتضنت الروح الإنسانى وربّته وهذبته ، وأخذت بيده إلى المعانى العليا ، والمثالية التى تسمو بالحياة ؛ لتكون جديرة بعالم يصدر عن الله .

وليس من شك فى أن الفيلسوف الحكيم الشيخ «طنطاوى جوهرى» فى مقدمة هؤلاء الأعلام من رجال الفكر العصريين الذين لا تزال إلى اليوم نذكرهم بكل إجلال وبكل تبجيل وإكبار ، وسنبقى ويبقى أولادنا وحفدتنا وحفدة أولادنا متأثرين بمحاولاته الإصلاحية فى الأدب والدين وبتعاليمه التقدمية . سواء ذلك فى جمهورية مصر العربية وطنه العزيز ، وفى العالم الإسلامى الذى كان فيه خير مصلح دينى ، أم فى الشرق كله حيث كان يمد بصره وبصيرته فى جوانبه ، فيفزع لهزيمته وتأخره وتخلفه عن الغرب ، فيحاول أن ينفخ فيه روحاً فتية عساه أن يستعيد مجده ، ويسترد سلطانه وجلاله .

وقد اختلف الناس فى الحكم على الشيخ طنطاوى والنظر إلى عمله وجهاده ، ولهم العذر كل العذر فى أن يختلفوا ؛ فالآراء مع تباينها ، والأنظار مع تخالفها وتفاوتها فى الدرجات - مجمعة على أن شيخنا الجليل بطل من أبطال الإسلام ، وفيلسوف من فلاسفة الشرق ، وحكيم من حكماء العصر ،

إلاّ أنه اختلف فى مرتبته بين الحكماء : هل هو حكيم اجتماعى ينظر فى شئون الأمة كما تجلى ذلك فى كتابه «نهضة الأمة وحياتها» وكتابه «أين الإنسان؟» أو هو حكيم طبيعى لاهوتى يبحث عن الروح وخلودها وحالها بعد خروجها من أسر المادة ، وعن المادة وعجائبها وغرائبها ؛ كما تجلى ذلك فى كتبه «جواهر العلوم» ، و «الأرواح» ، و «النظام والإسلام» ؛ أو هو فيلسوف طبيعى يبحث عن المادة والصورة والهيولى والاسطقسات وما يتركب منها من الأجسام النامية وغير النامية ، ونواميس الكون والفساد السارية فى العالم السفلى الذى هو تحت فلك القمر كما ظهر ذلك فى كتابه «نظام العالم والأمم ؟» . .

ذهب كل فريق مذهباً ، وأيده بما تجلى لناظره ؛ وذكر آخرون أنه حكيم إسلامى يفسر القرآن على حسب العصر والزمان ؛ كما بان ذلك منه فى تفسيره للقرآن ، وكما نطق به كتاب «التاج المرصع» ، علاوة على ما جاء بتفسيره الكبير «الجواهر» .

ذلك خلاصة ما يختلفون فيه ، ولعمر الحق إن سير الأبطال زينة المجالس ، وتشعب الأفكار فى حقيقتهم إنما هو أمر طبيعى يأسر القلوب ويطرب الأرواح ويشدها إليهم .

كان للشيخ طنطاوى قدم راسخة فى العلم والتأليف والتصنيف فى الفكر والحكمة والفلسفة ، ولكم صادفت آثاره هوى فى النفوس الحية التى سئمت الجمود ، وحنّت إلى الحقائق ، فطربت وسكرت بما بدا لها من نيرّ علمه ورائع مباحثه !

ألا إنما هى الحكمة ذات الجمال التى يرتاح لها البال ، وتأسر عشاق العظمة والجلال . .

ولقد كان الشيخ طنطاوى نوراً يرشد ويقود إلى الفكرة الإسلامية ، وإلى الوصول إلى الحقيقة عن طريق النظر إلى مخلوقات الله ، والتدبر فى صنعه ، والتفكر فى آلائه ونعمه على العالمين .

وكان له أثر بالغ فى تطوير العلوم وفى إصلاح القوانين وفى التقويم الخلقى ، وبث الفكر السديد ، والرأى الرشيد ، ومحاربة البدع والضلالات .

فإذا ذكرنا النهضة الحديثة ، فهو علم شامخ من أعلامها الخفاقة ، وأقلامها الفاتحة ، وعقولها المفكرة . .

وإذا ذكرنا الحركة الإصلاحية فى المعاهد الدينية ودور التعليم ، فهو واضع أساسها وفاتح بابها ومرسى لبنتها . .

وهو فيلسوف من فلاسفة القرن العشرين ، ومصلح دينى مجدد تقدمى . . وكاتب مجيد مبدع ، ومجادل مقنع قوى الاعتماد على الله ، قليل الحرص على الدنيا .

وضع للإصلاح وللمدنية كتباً ونماذج ، وللسير فى طلب الحكمة قوانين ؛ فإن ذكرت أعماله فليس

لتخليد ذكره ؛ لأن ذكره خالد بآثاره ؛ وإنما ليكون درساً ونبراساً لمن شاء أن يستقيم ، وهدى للمهتدين ، وصراطاً مستقيماً للذين تحن أرواحهم إلى العلوم ، ويميلون إلى السمو ، وتشرئب أعناقهم ونفوسهم إلى المعالى والتقدم إلى مصاف عظماء الرجال والأمم .

ويسعدنى أن أقدم بين يدى القارئ الكريم هذه الدراسة عن هذا الرائد الكبير الشيخ «طنطاوى جوهرى» لعلها تنفع الباحثين من بعدنا . . ولعلها أن تسد فراغاً ، ولعلى أكون قد وفيت الأستاذ حقه علينا لدى أبناء هذا الجيل .

وما توفيقى إلاّ بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد العزيز جادو

البَابُ الأول

الدراسة

الفصل الأول

الشيخ طنطاوى
فى مراحل حياته

مولده ونشأته الأولى :

نشأ الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى فى قرية «كفر عوض الله حجازى» من أعمال مديرية الشرقية بالقرب من الآثار الفرعونية فى «بوباستس»[1] جنوب شرق الزقازيق ، وعوض الله حجازى هو جد الشيخ طنطاوى لأمه ، وقد ولد فى هذه القرية فى سنة ١٨٦٢ م ، واشتغل فى مبدأ أمره بالزراعة مع أسرته التى كان لها اتصال حميد بعلماء الجامع الأزهر يفدون كل عام على سراة الأسرة وأكابر بلدة «الغار» التى فيها أسرة أخوال والدته ، فأثر ذلك كله فى والده ، فأرسله إلى «كتّاب» القرية ليحفظ فيه القرآن ، وكانت له جدة فى تلك البلدة من أسرة عريقة لها نفوذ وسلطة تسمى أسرة « الغنائمة » ، وكانت جدته هذه تعنى به عناية خاصة ؛ ذلك لأنها كانت تحبه حبًّا جمًّا ولا تطيق فراقه لحظة واحدة .

ولما أتم القرآن فى «الكتاب» ، بدأ يشعر بغرام للعلم وولع للدرس شديد ، وشاقه الوجد والهيام ، وزاد به الولع والغرام وهو فى سن الثالثة عشرة من عمره ولا سيما ما كان يراه من اشتغال أولاد عمه بالعلم والحضور بالجامع الأزهر.

أما والد الشيخ طنطاوى فهو الشيخ جوهرى الزارع بقرية كفر عوض الله حجازى ، والذى كان

---

(١) تل بسطة.

يشوقه دائماً أن يكون له ابن يضارع أولئك الذين يجوبون البلاد ، وينزلون ضيوفاً مكرمين على المصاطب وفى المناظر والمضائف ، والذين توقد لهم الشموع وتزين لهم المجالس ، والذين يرتل لهم القرآن وتقبل أيديهم ويُتبرك بآثارهم ، أولئك الذين تخضع لهم القلوب ، وتهش لهم النفوس . من علماء الأزهر مثل الشيخ الأشمونى والشيخ العشماوى والجورى وغيرهم .

كان أولئك العلماء يجوسون خلال تلك القرى بين الفينة والفينة فكان الشيخ جوهرى يترنم بذكرهم ، ويسارع إلى مجالسهم ويهفو إلى سماع أحاديثهم : ولوجود تلك الخلال فى الشيخ جوهرى استجاب لثورة أخيه الشيخ محمد شلبى وكان أبناؤه قد أضرموا نار الشوق فى قلب ابنّ عمهم لطلب العلم ، وكان الشيخ محمد شلبى عم الشيخ طنطاوى رجلاً صالحاً تقيا محبًّا للعلم والعلماء ، مغرماً بمجالسهم ، وهو الذى أشار على أخيه الشيخ جوهرى بإرسال ابنه إلى الأزهر ، ليتعلم الفصاحة والبلاغة وعلوم الدين ؛ فشاقه وأيم الحق أن يكون له ولد على مثال أولئك العلماء الكبار الذين ملكوا القلوب بعلمهم ، ونزلوا أحسن المنازل لدى رجال الأمة ، وخشى أن يلحق ابنه الأسف كما كان هو يتأسف ويندم على ما مضى من أيامه السالفة ، ذلك لأنه أرسل فى صغره إلى «كتاب» القرية ، فبقى فيه ثلاثة أيام ، ثم ضربه الفقيه «العريف» فهرب ولم يعقب ؛ ولذا كان دائماً يقول : «لم أحظ بالعلم فلينله ولدى» .

لذلك أصغى لقول أخيه الشيخ محمد شلبى الذى كانت له الكلمة المسموعة فى بلدته ، وعلى ذلك أرسل الشيخ جوهرى ابنه «طنطاوى» مع أولاد أخيه للجامع الأزهر .

وقد حكى الشيخ طنطاوى أنه جلس مرة مع ابن عمه الصغير وسأله كيف تتعلمون النحو ؟ فقال مثل قولهم : طحنت الرحى الدقيق . فطحن فعل ماض والرحى فاعل والدقيق مفعول به ، فقال له الشيخ طنطاوى : هذا كلام صحيح وسهل ، ثم أخذ أجـرومية ابن أجروم ، وبدأ يقرؤها فألفاها أثقل من رضوى !

بين الحقل والأزهر :

دخل الشيخ طنطاوى الجامع الأزهر – وكان ذلك فى عام ١٨٧٧ – والشوق يدفعه إلى العلم ، والرغبة تستحثه إلى الدأب وراء العلوم والمعارف وفهم الدروس ، ولقد ظهر ذكاؤه الحاد بالرغم من كثرة الحواشى والمتون ، وبالرغم من الأساليب التربوية المتبعة وقت ذاك وطرق التعليم العقيمة التى كانت قائمة فى هذا الجامع العريق ؛ فقد كانت له مكانته المرموقة فى قرى مصر ، وكان اسمه وحده وشهرته على كل لسان ، وكان منارة العلم فى هذا العهد .

وبعد سنوات قضاها طنطاوى فى الأزهر درس فيها اللغة العربية والفقه الإسلامى ومذهب الإمام الشافعى والعلوم الأخرى من نحو وتوحيد وعروض وبلاغة إلخ وقعت الواقعة بنزول البلاء ، فسلب الزمان ضعف ما وهب ؛ فقد مرض الشيخ طنطاوى مرضاً شديداً اضطره إلى الانقطاع عن الأزهر والتوقف عن الدراسة فيه ، وعاد إلى أسرته فى القرية حيث وجد أباه أيضاً يعانى من المرض ، واضطر إلى البقاء مع أسرته الفقيرة لمساعدتها بالرغم من مرضه ، وأخذ يعمل مع الفلاحين فى الحقول بنفسه ، ويداوى مرضه بالعقاقير التى كان يقرأ عنها فى كتب الطب القديمة ، ويداوى كذلك والده .

وفى أثناء مزاولة الشيخ طنطاوى عمله فى الزراعة واشتغاله بالفلاحة اكتسب نزعة جديدة اتّجه فيها إلى البحث عن وجود الله ؛ فقد تجلت له الطبيعة بأجلى مظاهرها ، وانفتحت لبصيرته أبواب العلوم ، هنالك أخذ ينظر إلى الأشجار والأزهار والحقول من حيث منافعها الطبية لمرضه الذى ألم به وبوالده ، ومن حيث دلالتها على المبدع الخالق . ولم يقتنع بالأدلة التى أثبتت وجود الله فى الكون ، فعكف على الصلاة وقراءة تفسير الجلالين ، وفى النهاية بفضل الراحة التى أحَسَّها بين أحضان الطبيعة وبفضل صلواته وتأمله الخاشع - زالت أزمته النفسية .

ولقد كان الشيخ طنطاوى يتمتع بخيال الشعراء ومواهبهم ، ولم يطغ على استعداده للشعر إلاّ استعداده العلمى للنظريات الكونية ، ولقد حدّثنا بحبه للطبيعة فقال : «لما كنت فى الأزهر كنت أحسّ بميلى الشديد إلى الكواكب والنجوم ، وكم ليلة قضيتها أحلق فيها معجباً بجمالها وأحسست فى نفسى بحزن عميق لجهلى بهذه الأكوان . . إلخ ! »[1] .

ولما كان بالقرية فتح عينيه ونظر إلى ما حوله ، ولم يكن يحلو له مناجاة الطبيعة إلاّ على شاطئ قناة «أبو الأخضر» بجوار قريته .

وكان فى نظره إلى جمال الكون وبهجة الطبيعة يدعو الله أن يشفى له والده ، ويعيد إليه صحته ، ويعيده هو إلى الجامع الأزهر ، واستجاب الله دعوته ، وعاد إلى الأزهر ثانية بعد ثلاث سنوات قضاها فى قريته عشق فيها الطبيعة وجمالها .

وكان سميره فى فترة الانقطاع عن الأزهر عمه الشيخ «محمد شلبى» الذى أخذ يطالع معه الحديث الشريف فى الجامع الصغير هناك ، وأظهر عمه فرحه وسروره من ابن أخيه ، وقال فى نفسه : مالى أسمع من ابن أخى مالا أسمعه من أساتذة العلماء ؟ وخاطبه قائلا : يابن أخى ، ستقص قصصى معك فى المستقبل حين يظهر أمرك .

ومكث فى الأزهر أربع سنوات وطّد فيها أواصر الصلة بينه وبين أستاذه الشيخ على البولاقى أستاذ

---

(١) انظر كتيب «فى ذكرى طنطاوى جوهرى» للأستاذ على الجمبلاطى ص ١٥/١٦ .

الخطابة الذى وجد عند الشيخ طنطاوى رغبة ملحة فى تعلم الفلك ، فأعاره كتاباً كان يقتنيه خاصًا بهذا العلم ؛ ليقرأه فى أثناء إجازة نصف السنة ، وينقل أو يحفظ منه ما يشاء ، ثم يعيده له ثانية .

ووجد الشيخ طنطاوى فى هذا الكتاب بغيته من أسماء الكواكب والمعلومات الفلكية الطريفة ، وكانت سعادته لا توصف إذ هيأ الله له الحصول على هذا الكتاب القيم .

فى دار العلوم :

كان الشيخ طنطاوى كزملائه فى الدراسة بالأزهر يعيش فى حرية محدودة بما يدرسونه ، وكانت دروسه حين ذاك مقصورة على قشور من علوم الفقه واللغة يتلقاها الطالب عن أستاذه ، ويعول فى تحصيلها على قوة الذاكرة . هذا إلى عبارات سقيمة فى شروح وحواشٍ حرمت قارئها قراءة هذا الكتاب المفتوح وهو العالم[1] .

ولعل ما عاناه الشيخ طنطاوى فى الأزهر حيث كان التعلم والتعليم كلاهما فوضى لا رقابة عليهما من أحد - هو الذى دعاه بعد ذلك حين وضع كتابه « نهضة الأمة وحياتها » إلى أن يتحدث عن محور نظام الأزهر ويضع له دستوراً لإصلاحه .

وانتقل إلى مدرسة « دار العلوم » حيث التحق بها عام ١٨٨٩ ، وظل يدرس بها حتى تخرج منها عام ١٨٩٣ مع ثمانية من زملائه لعل أبرزهم سواه المرحومان أحمد زناتى بك وعبد الرزاق القاضى بك . وهناك درس مبادئ المواد الحديثة التى لم تكن مقررة فى الدراسات الأزهرية : كالحساب والهندسة والجبر والفلك وعلم النبات والطبيعة والكيمياء ؛ ودرس فقه الحنفى على الأستاذ الشيخ حسونة النواوى ترشيحاً للقضاء .

وقد عرفه إخوانه وأقرانه بميله الشديد إلى جمال الطبيعة والنظر إلى الكون والغرام لسماع الأطيار والنظر إلى الأشجار والأزهار ، وشاهدوا منه عشقاً مفرطاً للرياضيات والطبيعيات وكانوا يقولون له : كيف تحب مالا فائدة منه ؟ فكان يجاوبهم :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وكانت درجاته فى علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعة والعربية عالية جدًّا .

وقد تحدث الشيخ طنطاوى عن دار العلوم كما يتحدث السجين يوم توهب له الحرية ؛ وقد قرأنا فى تفسيره عن هذه الفترة التى قضاها فى دار العلوم ، فذكر لنا اسم « أحمد أفندى حمدى » أستاذ الرياضة الذى درس له مبادئ الفلك ، كما ذكر أنه أحسّ فى دار العلوم بأنه بين أهله ، وكما لو كان

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ .

فى الحقول بين ذوى قرابته ، وكان جل قصده فى الحياة أمرين : الأول أن يفى بالواجب عليه لعشيرته والأقربين ، والآخر الوقوف على سر الوجود .

ولندعه هنا يصف لنا خلجات نفسه فى تلك الآونة :

« لم يكن ليخطر لى أن فى العالم حكمة وفلسفة تكشف اللثام عن هذا الوجود ، كلا ، ولكن بعد اللتيا والتى أخذت أدرس الفلسفة القديمة بحذافيرها ، ولكن بعد ذلك لم أزل فى موقعى الأول أريد أن أفهم حقلنا الذى نزرع فيه القطن والقمح والذرة والبرسيم . على هذه الأرض وما فوقها التى تحوى المواد الصالحة للبسنا وأغذيتنا وأغذية الحيوان ! وما هذه الطيور الجميلة المغردة المنعشة للفلاح فى حقله ؟ وأخيراً ما هذا الجمال ؟ الجمال الذى أخذ بلبى وأرّقنى ليلاً بنظراتى فى النجوم ، وأبهج قلبى نهاراً بنظراتى فى الأشجار والزروع والأزهار »[١] .

ثم هو بعد ذلك يفضى إلينا بمكنون صدره و بما كان يشعر به من أحاسيس وانطباعات فى الفترة التى قضاها فى دار العلوم :

« اتصلت بدار العلوم فدرست فيها علم الفلك الحديث بعد ما درست القديم فى الفلسفة ، هنالك دهشت أعظم الدهش وقلت فى نفسى : هذه فرصة سانحة ، فهاهم أولاء علماء الأمم قديماً وحديثاً نظروا فيما كنت حائراً فيه فى حقلنا :

(ا) نظروا فى مقادير المادة المسماة عندهم (بالكم) المتصل والمنفصل من الهندسة وعلم الفلك ومن الحساب والموسيقى ، فقاسوا هذا العالم وحسبوا الكواكب أبعاداً وأحجاماً وحركات فأرونا السنين والشهور والفصول وأوقات الخسوف والكسوف - الله أكبر . . نظام بديع . حركات منظمة . هذه أعز مطالبى وأجلّ ما أتمناه . إنى لسعيد جد سعيد . كيف لا أكون سعيداً ؟ ألم يظهر العلم أن أبعاد السيارات نفسها عن الشمس جاريات على سنن المتوالية الهندسية كما كشفه العلامة « يود » : ٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ إلخ .

(ب) ثم إن العلماء لم يقفوا عند هذا الحد من البحث ؛ فإنهم نظروا فى أشكال المادة وتنوعها ، فكانت العلوم الطبيعية ، وقد أحاطت بها العلوم الرياضية حتى إنهم رأوا فى نحو الأحجار الساقطة نظاماً حسابيا يرجع إلى الجذر والتربيع والمتواليات العددية »[٢] .

ومما تقدم نرى كيف قامت القرية وإجازاته الدراسية بدور هام فى حياة الشيخ الصغير ؟ وكيف

---

(١) من مقال للشيخ طنطاوى فى مجلة « الرسالة » العدد ٢٩٨ السنة السابعة ١٩٣٩/٣/٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ، وانظر أيضاً كتابه « أحلام فى السياسة » .

كان لدار العلوم أثرها العظيم فى تقدمه الثقافى ، وفى فتح عينيه على الحياة أوسع مما كانتا مفتوحتين من قبل ؟

حياته العملية :

تخرج الشيخ طنطاوى من دار العلوم وعُيِّن مدرساً بمدرسة دمنهور الابتدائية مدة ثلاثة أشهر ، ولما تغيرت وزارة رياض (باشا) وغادرها إبراهيم بك مصطفى نقل إلى المدرسة الناصرية الابتدائية بالجيزة ، وهناك لم يطب له المقام لما وقع بينه وبين ناظر المدرسة من خلف ، فدعت الحال إلى نقله لمدرسة الجيزة ثم المدرسة الخديوية بدرب الجاميز حيث بقى فيها عشر سنين من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩١٠ ، وفى أثناء وجوده بها عكف على تعلم اللغة الإنجليزية حيث أتقنها واختلط بكبار الإنجليز وترجم من مؤلفاتهم ولا سيما من مؤلفات اللورد إڤبورى . كما ترجم (شعراً) بعض أعمال الشعراء الإنجليز التى نشرها أحد تلاميذه . .

واقتبس الطلاب فى الابتدائى والتجهيزى عنه أفكاره وآراءه وتشبه به كثير منهم حتى قال «لمبير» فى مدرسة «ليتون» لبعض التلاميذ هناك وهم فى الحديقة : ما الذى شاقكم للنظر فى جمال الطبيعة ؟ فقالوا : درسنا سنة ١٩٠٠ الإنشاء على الشيخ طنطاوى فعشقنا النظر فى الوجود ! فقال : هذا عجب ، إذا وجد فى مصر ثلاثة مثل هذا الرجل فلا ضرورة لمجيئكم هنا ؛ فمثل هؤلاء يجب أن يعلموا فى كلية شرقية [١] . وفى خلال هذه الفترة رشح لتدريس الفلسفة العربية فى جامعة لندن ، ولكن دسائس زملائه منعته من السفر .

ولما تولى أحمد «باشا» حشمت نظارة المعارف العمومية عين الشيخ طنطاوى مدرساً للتفسير والحديث سنة ١٩١١ بمدرسة دار العلوم ، واختير أيضاً ضمن هيئة التدريس بالجامعة المصرية القديمة حين إنشائها ليلقى بها محاضرات على طلابها فى الفلسفة الإسلامية خلفاً لسلطان «بك» محمد ، وفى ذلك الحين طُلب للقضاء ولم يقبل .

ولم يكن الشيخ طنطاوى عالماً كسائر العلماء ، بل كان ممتازاً فى كل النواحى ؛ فهو عالم دينى إسلامى وطنى ، وهو عالم اجتماعى عالمى ، جمع بين الثقافتين الدينية والحديثة ، ومزج المسائل الدينية بالآراء الاجتماعية والسياسية .

جاهد حق الجهاد بقلمه وبرأيه فى رفعة شأن الإسلام ، والانتصار لمبادئه مظهراً أنه دين العقل والتجديد لا دين التسليم والتقليد ، يرمى فى كل أحاديثه وتآليفه إلى التوفيق بين العلم وما جاء به القرآن ،

---

(١) عن كتاب «مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر» المجلد الثانى ص ٢٢٥/٢٢٨ .

وإلى أن العلم إذا حسن فهمه كان أداة صالحة لتفهم روح الدين ، كان من أخلص المخلصين لقضية البلاد واستقلالها من فجر النهضة إلى وقت وفاته ؛ فهو أحد قادة النهضة السياسية والدينية ، ومن رؤساء الحركة السياسية والاجتماعية[١] .

وكانت الثقة بمستقبل المسلمين وبسيادتهم العالم وبنشرهم العلم بين ربوعه وإقامتهم السلام والطمأنينة مقام الحروب والقتال - مستولية على الشيخ طنطاوى ، وهى تملأ كتابه « القرآن والعلوم العصرية » ، كما تجدها فى ثنايا كتابه الكبير « الجواهر » وقد كانت ثقته باجتماع شمل المسلمين وصلاح أمر أهل الأرض جميعا بهم تنزل من نفسه منزلة اليقين الذى لايخالطه ريب .

وناصر الشيخ طنطاوى الحركة الوطنية ، فوضع كتابا فى « نهضة الأمة وحياتها » نشره تباعا فى جريدة اللواء ، يندد فيه بالدول التى تؤسس وجودها على أسنة الحراب وأصوات المدافع وتخريب البلاد ودك الحصون ، لأنه يتمنى أن تؤسس الدول حياتها على تبادل المنافع والمحبة العامة ؛ كما كان يرى سقراط . وهو بذلك يوافق الرأى الذى تتمشدق به بعض الدول وماتخدع به العالم من ألفاظ الديموقراطية والمساواة . يريد أن تكون الجمعية الإنسانية أسرة واحدة لايفرق بينها لغة ولادين ، ولاتحجزها جبال وبحار ، ولايفصل بينها خطوط دفاع أوهجوم !

وكان من أثر تعاليمه أن استيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى مختلف بلاد الشرق . وانقشع ظلام الجهل والضلالة وحل محله نور المعرفة والحق واليقين .

ولأنه كان يجهر بآراء تقوض صروح المعتقدات السخيفة ، وتحطم أصنام التقاليد البالية - ناوأه بعض العلماء والمتفيهقين ؛ لأنهم رأوا فيه مصلحاً جريئا ومناضلا فى سبيل إعلاء كلمة الحق وإظهار معانى الحقائق المكنونة ، فى باطن آيات القرآن مفسرا إياها بطريقة لم يسبقه إليها أحد فى العالمين ، فحقدوا عليه ، ورموه بالكفر والزندقة ، وافتروا عليه كثيرا بسبب آرائه التقدمية وتفسيره للقرآن تفسيرا لم يخطر على بالهم وقت ذاك !

وهو مع ذلك لم يقنط ولم ييئس وسار فى دربه صامدا قويا لايأبه لما كان يقال عنه من سوء ، ولايبالى مايعترض سبيله من صعاب أومتاعب . لقد تخلصوا منه فى الجامعة المصرية القديمة لخطورته ، واستحضروا بدلا منه أستاذا مستشرقا للفلسفة الإسلامية برتغالى الجنسية . . وحوّلوا « طنطاوى جوهرى » إلى وزارة المعارف فى ذلك الوقت ، وقد رفضه جميع نظار المدارس المصرية . . وكان منهم - مع الأسف الشديد - محمود فهمى النقراشى ، السياسى المعروف ، وكان فى ذلك الوقت ناظراً « لإحدى المدارس الثانوية » ولم يقبل « الشيخ طنطاوى » مدرسا بمدرسته إلا رجل

---

(١) عن «تقويم دار العلوم» لمحمد عبد الجواد ١٩٤٧ ص ١٩٤ .

واحد من أيرلندا هو مستر « فرنس » ناظر المدرسة الخديوية فى ذلك الوقت .

وفى عام ١٩١٤ - بعد إعلان الحرب العالمية الأولى - كان الشيخ طنطاوى هدفا لدسائس كثيرة من بعض الجاحدين انتهت به إلى إخراجه من دار العلوم ، واتهامه بصراحته فى وطنيته ، فسعى بعض مواطنيه بالدس له عند الإنجليز لأن حنقه على الدول الأوربية التى تحتل بلادا إسلامية كانت تفيض بها خطبه وكتاباته وأحاديثه ، كما كان عضواً فى الحزب الوطنى الذى أسسه الزعيم مصطفى كامل .

وانتقل إلى مدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية ، وهناك انتهز فرصة وجوده بهذه المدينة فكوّن جمعية من الطلاب أسماها « الجمعية الجوهرية » وكان لها أثرها فى بث الوعى القومى والثقافى بين الشباب الإسكندريين .

وفى أكتوبر عام ١٩١٧ دعى إلى القاهرة للتدريس بالمدرسة الخديوية ثانية ، وفى عام ١٩١٩ وفى أثناء المظاهرات التى قامت ضد الإنجليز - قام « البوليس » بتفتيش مسكن الشيخ طنطاوى (بشارع زين العابدين رقم ٨) لما عرف عنه من وطنيته وتحمس لقوميته ، ولما اشتهرت به مقالاته التى كان ينشرها فى جريدة « اللواء » عن الأمم المستعبدة والأمم المستضعفة ، ووسائل الإصلاح .

فى ذلك الحين أخذ الشيخ طنطاوى على نفسه عهداً وقال : « إننى عاهدت ربى أن أعلم الناس ماعلمت ، وأنى إذا وقفت على حقيقة نشرتها بين العالم الإسلامى ، وإن لم أنشر ذلك بين الملأ كنت كافراً بنعمة ربى ناقضاً لعهده » .

وبدأ يحقق ماقال ، وأخذ يقرن العمل بالقول كرجل كبير النفس ، عالى الهمة ، شديد الغيرة على الإسلام والعلم فأبرز للعالم الإسلامى كتابيه : « ميزان الجواهر » و « جواهر العلوم » ، ولم يكن يظن أن الناس يحبون تلك العلوم ويميلون إليها .

وقد حدث قبل ذلك أن جاء المرحوم الشيخ محمد عبده من منفاه ، وأخذ يدرس للناس علم التوحيد بطريقته المبتكرة وأقبل الناس عليه . ثم ابتدأ المرحوم مصطفى كامل « باشا » فى الدعوة الوطنية وأنشأ جريدة اللواء. ووقعت مقالات للشيخ طنطاوى باللواء وأخرى بجريدة « الفلاح » وكتاب « جواهر العلوم » بيد الأستاذ المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده فعرف الشيخ « طنطاوى » بمقالاته وكتاباته ، ثم قابله وشجعه كثيراً وأثنى عليه ، وقال : « فلنخرج كتباً شتى لا كتابين اثنين » .

أما المرحوم مصطفى كامل فقد طلب مقابلة الشيخ طنطاوى وقال له : « بمثلك ترتقى الأمة » ، وطلب منه أن يؤلف كتاباً على هيئة مقالات فلبى الشيخ طنطاوى دعوة فقيد الأمة والوطنية والهمة

العالية والنفس الأبية ، وكتب ستين مقالة ونيفا أرسلها إلى اللواء . فكتب صاحب اللواء العنوان لتلك المقالات بيده هكذا :

نهضة الأمة وحياتها

لحكيم من كبار الحكماء

والمرحوم مصطفى كامل أول من سمى الأستاذ الشيخ « طنطاوى » باسم « حكيم » ؛ ولاعجب إذا أحدثت المقالات المذكورة ضجة فى البلد وقامت الأمة الحاكمة المستعمرة بترجمة أكثر هذه المقالات دون أن تعلم : من الذى كتبها ؟

الفصل الثانى

مؤلفات الشيخ طنطاوى
وآثاره المكتوبة

يعد الشيخ طنطاوى جوهرى من كبار المؤلفين العرب : فلقد ترك لنا أكثر من ثلاثين كتابا يمكن أن تكون موسوعة ضخمة فى مختلف فروع المعرفة مكتوبة كلها بطريقة محببة للقارئ بأسلوب يسير ورشيق يبدو فيها وكأنه قاص يقص عليك أمتع القصص وأغرب الوقائع صاعداً هابطاً يجوب بك الآفاق ويخترق الحجب ، ويغور وينجد ، ثم لا تجد صعوبة فى كل ذلك . اللهم إلاّ ما تحسّ من أنك أمام مشكلات علمية ونظريات دقيقة ونتائج مدهشة ما كنت لتدركها لو لم تقرأ هذا الكتاب ، وذلك فى سعة اطلاع وجلد ورسوخ قدم فى البحث والتحقيق .

ولقد ترجم بعض هذه الكتب إلى الإنجليزية والفرنسية والأمهرية والهندوكية والإندونيسية وغيرها من اللغات .

ونورد فيما يلى ثبتاً بالكتب المطبوعة التى قام بتأليفها محاولين التعريف بها تعريفاً موجزاً وإلقاء الضوء على كل منها ، ليلم القارئ ببعض الشىء عنها :

١ – الزهرة فى نظام العالم والأمم :

رسالة صغيرة وضعت فى أول كتابه « نظام العالم والأمم » فى نحو ستين صفحة ، وفيها عجائب الزهور ، نقلها الشيخ طنطاوى عن اللغة الإنجليزية من كتب اللورد إقبورى ، وفيها أوقات يقظة الزهور ونومها وأسباب ألوانها وعجائب مدهشة .

٢ – نظام العالم والأمم : أو الحكمة الإسلامية العليا :

كتاب من جزأين يحتوى على نحو ألف صفحة فى عالم النبات والحيوان والإنسان والمعادن ونظام السموات وعجائب الملك والسياسة الإسلامية والسياسة العامة ، ولا يمكن معرفة ما فى هذا الكتاب القيم إلاّ بالرجوع إليه أو الاطلاع على تقريظ الجمعية الفرنسية الملكية وجمعيات إنجلترا العلمية . ونقتطف هنا بعض ماكتبته الجمعية الآسيوية الفرنسية التى يديرها جمع من فحول المفكرين والفلاسفة العظام – فى مجلتها التى كانت تصدرها وذلك فى شهر يناير عام ١٩٠٨ من مقالة ضافية الذيول تحت عنوان : « الشيخ طنطاوى جوهرى ، أستاذ اللغة العربية بالمدرسة الخديوية بالقاهرة ، ونظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا . المجلد الأول وعدد صفحاته ٤٢١ نشر فى القاهرة سنة ١٩٠٥ ميلادية » .

« إن كتاب نظام العالم والأمم الذى ظهر المجلد الأول منه أحد كتب عدة ألفت للنشأة الحديثة الإسلامية ، وهذه الكتب بناها المؤلف على نظريتين اثنتين :

أولاهما : أن الدين الإسلامى دين الفطرة : أى أنه ملائم للعقول الإنسانية وموافق للطباع البشرية .

وأخراهما : أن هذا الدين على مقتضى ما قدره المؤلف يسوق إلى استكناه جميع النواميس العلمية وسائر القوانين الطبيعية الشاملة لهذا الكون كله ، الناظمة لعقده .

ثم أخذت المجلة فى بيان ما فى الكتاب من الأبواب والفصول وذكر عجائب الإتقان بين القرآن والعلوم العصرية ، وختمت المقال بما يأتى :

« نحن لا يسعنا إلاّ الاعتراف للشيخ طنطاوى جوهرى بسعة المدارك والاطلاع الواسع المقرون بعقل رزين وحكمة وذكاء ؛ فانظر كيف أتى بالفلسفة العالمية والنواميس الطبيعية وفنون الآداب العربية الواسعة وإبرازها بمهارة وعبارة عالية ثمينة وبلاغة باهرة تترقرق حسناً وتتيه عجباً تكاد تسيل سلاسة ورقة كالماء الزلال سهولة وانسجاماً مملوءة حياة وحكمة .

« وليس إجلالنا لهذا الأستاذ لما تقدم ذكره فحسب ؛ وإنما لأنه أيضاً ترجم آراء مؤلفى الإنجليز مثل إيفيرى ، وسبنسر ، وداروين ، وبحث فى الفلسفة الإغريقية واللاتينية وجمع زبدة آراء جميع العصور المختلفة ، وحصرها فى كتاب صغير بعبارة جميلة دقيقة كما وصفناها ، واتبع الفائدة أينما وجدها .

« إن الشيخ « طنطاوى جوهرى » رجل فيلسوف حكيم بقدر ما هو عالم بالدين . وبهاتين الصفتين

فسَّر القرآن الذى أثبت أنه دين الفطرة بما هو أكثر ملاءمة للطباع البشرية ، وموافقة للحقائق العلمية والنواميس الطبيعية أيما موافقة ، بخلاف فريق من العلماء الغابرين الذين وقفوا على القشور ، وجمدوا على الألفاظ جموداً معيباً أدى إلى انحطاط المدارك الإسلامية فى العصور المتأخرة ، فانحطت بذلك الأمم الإسلامية عموماً وعشاق البحث من المخيم عليها فى جميع الأقطار وسائر الممالك على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم حتى إنه لا يخص مذهباً دون مذهب ولا مملكة دون مملكة ، بل إنه فوق ذلك يخاطب كل عاقل يريد الحياة والاطلاع على الحقائق من أى دين وأى نحلة ببلاد الشرق ؛ لأن بحثه عام فى الكائنات ، ونداءه عام حتى يلحق الشرق الأدنى بالأمم الغربية فى المعارف والعلوم والمدنيه والحضارة » اهـ .

ولقد قرظ هذا الكتاب أيضاً البارون كارّادى فو فى كتابه « مفكرو الإسلام » وأثنى عليه مع كتاب « نهضة الأمة وحياتها » من كتب الشيخ طنطاوى .

ويجدر بالذكر أن هذا الكتاب « نظام العالم والأمم » قد ترجم إلى الهندية ويدرس بجامعة عليكرة . وقد حلّله الأستاذ الدكتور « هارتمان » ، وذكره ضمن كتب الشيخ طنطاوى التى تستحق الدراسة ؛ لأنه يتضح فيه سمات الشيخ وحبه الأصيل للطبيعة .

٣ - التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم :

فى نحو مائتى صفحة ، وهو كمقدمة فى التفسير جمع فيه مقاصد الإسلام ونظام العالم ، وبين كيفية تعلم الشيخ وسيرته كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ولقد ألف هذا الكتاب وأرسله إلى ملك اليابان ، وترجم إلى اللغة القازانية واللغة الهندية . وينقسم إلى اثنين وخمسين باباً أو جوهرة ، كل جوهرة منها تفسير آية من آيات القرآن فى ضوء ما كشف عنه العلم الحديث ؛ مما كان يجهله الناس فى عصر النبوة عند نزول الوحى به ، أو تقف عند ظاهرة من ظواهر الكون العجيبة لتفسرها فى ضوء القرآن . وقد حاول المؤلف فيه أن يصنف آى القرآن فى ستة أبواب وفق موضوعاتها . وغايته من هذا أن يدلك فى إيجاز على أصول العقائد الإسلامية . وقد كتبه دفاعاً عن الإسلام ودعوة الأمم الأخرى إلى اعتناقه . وكانت اليابان مرمى سهمه وغاية مناه ، فأهدى كتابه إلى « الميكادو » كما تقدم وقدمه إلى مؤتمر الأديان اليابانى عام ١٩٠٦ ، وانتشر فى تركيا وفارس وروسيا بعد أن ترجم إلى لغاتها . وفيه ترجم للمؤلف وتحدث عن دراساته فى الأزهر وجهوده فى التوفيق بين الفلسفة اليونانية والعلم الحديث من ناحية ، وبين القرآن من ناحية أخرى .

— ١٥ —

وهاك الصورة الشمسية للمقدمة التى صدر بها الكتاب الأستاذ ذاكر القادرى فى ترجمته إلى اللغة القازانية

مترجم طرفندن بر قاچ سوز

امت اسلاميه‌نك افرادندن اولان هر مسلمه حقيقت اسلاميه يه وجامعهٔ محمديه يه‌كندى افتدارى درجه‌سنده قوتنى صرف ايدوب فائده كتورمك فرضدر. حركات وسكناتندن وجميع اعمالندن الله وامتى عندنده مسؤلدر «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» حديث شريفى، دين اسلامنك سياسى و ادبى اولان قواعد جليله لرندن بريدر. اشته بنده بو امتنك بر فردى اولديغمدن امتمه بيوك فائده كتورميه مقتدر اولماديغمه تأسف ايدوب امتمه جزئى اولسه‌ده فائده اولسون ديه‌رك مصر القاهره‌نك الك منتور وملتپرور علماسندن و استاذنا الامام وفقيد الاسلام الشيخ محمد عبده حضرتلرينك نائب حقيقيسى اولان استادمن فيلسوف طنطاوى جوهرى حضرتلرينك تأليف عديده سندن برى اولان «التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم» نام كتاب جليلنى ترجمه‌يه شروع ايتدم.

مؤلف حضرتلرى بو كتابنده قرآن شريفنى علوم ادبيه‌كه تطبيق ايده‌رك تفسير ايدوب جزء جزء اولەرق تأليف ايتمكدر مؤلف حضرتلرينك اشاره‌سنه بناء عربجه سى طبع اولمازدن اول ترجمه سنده استمرار ايده جكم. كتابده مذكور آية قرآنيه‌نى محمل اولەرق تاتارچه تفسير ايدوب خط مستقيم التنده يازاجغم عربجه انشاء وتحرير ايلان هركون اوغراشمقده ايسه‌مده تاتارجه يازى يازمق ايچون اول مرتبه اولەرق المه قلم آلديغمدن قارئلريمز تحريرمزده اولان قصورلرمزى عفو ايدوب مدرسه لرمزنك انتظامسزلغنه حمل ايده‌جكلرندن امينم. لغتمز ناقص واكثر مصطلحات ادبيه‌نى ترجمه ايچون لغتمزده هيچ برماده، ومرابعت ايچون قاموسمز اولماديغندن ادبى كتابلرنى ترجمه نه قدر مشكل اولديغى اديبلرمزه معلومدر. ذ القادرى «مصر القاهره»

-١٦-

ثم هاك الصورة الشمسية التي صدر بها ترجمته الى
اللغة الأوردية الاستاذ محمد حليم أنصاري بلاهور بالهند

گذارش مترجم

جاپان میں تحقیق مذاہب کا جلسہ ہونے کی خبر سُنکر دنیا کے ہر گوشہ سے ہر ایک مذہب کے علماء نے شرکت کا ارادہ کیا۔ اور مسلمانوں میں بھی طبعاً اس امر سے ایک تحریک اپنے مذہب کی تبلیغ کی پیدا ہوئی۔ کانفرنس مذاہب کا تو نام ہی نام ہُوا۔ مگر اس سلسلہ میں بعض مسلمانوں کو تبلیغ اسلام پر مناسب اور حسب ضرورت وقت مفید رسائل تالیف کر دینے کا خیال سوجھ گیا۔ ہندوستان میں زبانی غل و شور ہوتا رہا۔ اور مصر میں جہاں کے مسلمان عربی مادری زبان رکھتے ہیں۔ اور علوم مغربیہ سے بھی خاصے باخبر ہیں۔ چند رسائل اس موضوع پر بہت اچھے نکل گئے۔ ان میں سے ایک رسالہ "سفیر اسلام" مولفہ محمد فرید وجدی کا ترجمہ خاکسار مترجم نے پہلے ہی کر کے بطور خود شائع کر دیا۔ جو کہ نہایت مختصر تھا۔ اور الحمد للہ کہ وہ مقبول ہُوا۔ اور اُسی کے ساتھ کا دوسرا رسالہ شیخ طنطاوی جوہری کی تالیف موسوم بہ "التاج المرصع بجواہر القرآن والعلوم" بھی ترجمہ کے لئے زیر تجویز تھا کہ اتفاق سے جناب فضائل مآب مولوی محمد انشاء اللہ خاں صاحب مالک و ایڈیٹر اخبار وطن لاہور کے کارخانہ سے میرا تعلق ہو گیا اور اب میں نے ابنائے ملت کو زیادہ عرصہ تک اس قابل قدر رسالہ کے مطالعہ سے محروم نہ رکھنے کا فیصلہ کر کے اُسے "جواہر قرآنی" کا نام دے کر سلیس اردو میں ترجمہ کر دیا۔ اور اپنے غیور و باحمیت ہمدرد قوم مخدوم کی عنایت سے یہ عمدہ قومی اور اسلامی خدمت بجا لا سکا۔ اب اس کام کی قدر دانی قوم کے ہاتھوں میں ہے۔ واللہ الموفق۔

٢٦ر فروری سنہ ١٩٠٨ء

محمد حلیم انصاری

رودلوی نزیل۔ لاہور

وهو يدلك على أن تعاليم الغزالى أثرت فى صاحبه تأثيراً قويا : وقد ترجم كذلك إلى الصينية : ترجمه الصينى المسلم (وان ون كن) .

٤- نهضة الأمة وحياتها :

هذا الكتاب كان فى الأصل عبارة عن بعض مقالات نشرها تباعاً فى أعداد من جريدة «اللواء» وأعجب بها قراؤها لمراميها السياسية وموضوعاتها الحيوية فجاء الكتاب حاوياً جل ما تهم الأمم الإسلامية معرفته مما له مساس بتنظيم حياتهم الاجتماعية وأمورهم العلمية والأدبية بما يذكرنا بمصنفات حجة الإسلام الغزالى وابن رشد والفارابى وكثيرين ممن أعلوا تعاليم الإسلام . ويضم الكتاب ثلاثاً وخمسين رسالة وبحثاً . صوَّر فيه حال الأمة وأرشد الحكام ووصف الأمم المظلومة ، وتحدث عن المدنية وعلومها ، وجال جولة فى علوم الإسلام والأزهر ورجال الدين ، وأفاض فى شرح المجالس النيابية وإجادة انتخاب الكُفَاة من رجال الأمة بالتطبيق على ذلك التركيب العجيب من بنية الإنسان وتشريح هيولى جسمه ، وتحدث عن تأليف الكتب وبيان التأليف عند الأمم وكيف يؤلف التاريخ والشعر ودرجاته ؟ وما يجب أن تكون عليه الأمة فى نظام الجندية والقرعة العسكرية ! وله فى كل ذلك مقترحات واعية هادفة . ثم أتى بمقالاته الثلاث فى الرد على (الرسالة القازانية) شرح فيها حال علماء الإسلام فى الأقطار قديماً وحديثاً . وما يجب عليهم الآن فى صراحة الرائد المجدد وحصافته[1] .

وقد كتبت تقرظه «جريدة لاهور» فى مارس عام ١٩١٠ .

وكتبت عنه الجمعية الملوكية الإنجليزية فى مجلتها مقالاً ضافياً ابتدأت القول فيه بأن جعلت الإنجليز مطمئنين بأن الشيخ لم يرد بلفظ النهضة ثورة يثيرها ، وإنما أراد الإصلاح ورقى الأمة - وليس فى ثنايا كتبه ما يحض على الثورة أو يشير إلى عصيان . .

وختمت المقال بقولها : نذكر رأيه فى سياسة الأمم وهو فى الحقيقة مقصود الكتاب : إن ما ذكره عن العلاقة بين المدنيتين الشرقية والغربية عجيب نافع يفوق ما كتبه الكاتبون بل هو فوق العادة Interesting unusual . ويحق للمجلة أن تظهر الدهش مما خطه يراع الأستاذ فى المدنية ؛ فإنه وضع للحكومات الدستورية نظاماً جميلاً لم يسبق له فيما نعلم نظير ؛ إذ أبان كيف يكون التشابه بين جسم الإنسان ووظائف أعضائه ؟ وما الحكومات العادلة ؟ وكيف ينوب فريق من الأمة عنها ؟ وما طريق الانتخابات . . إلخ ؟

---

(١) عن «فى ذكرى طنطاوى جوهرى» للاستاذ على الجمبلاطى - مجموعة «اخترنا للطالب» ١٩٦٢ ص ٣١ .

٥ - الفرائد الجوهرية فى الطرق النحوية :

ألفه لطلبة القسم الثانى لمدرسة دار العلوم أيام كان يعمل فيها مدرساً .

٦ - جمال العالم :

وهو - كما يبدو من عنوانه - عبارة عن سلسلة من الدراسات الطبيعية فى الحيوان والطير والهوام والحشرات ولا يخلو مع هذا من دراسات أخرى ذات صبغة علمية أو دينية . ويتميز الكتاب وصاحبه بحب الطبيعة حبًّا غير خفى ، كما نلحظ أن المؤلف كان متأثراً بالكاتب الإنجليزى « اللورد إيفبرى » [1] الذى اشتهر بحبه للطبيعة . وأعظم ما يبدو أثره فيما كتب الشيخ طنطاوى عن ملاذ الحياة ومسراتها ، وجمال الطبيعة ، وعجائب الكون .

وطبع هذا الكتاب مرتين (الطبعة الأولى عام ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م فى ١٤٠ صفحة) ، وكتب الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى محرر مجلة « البيان » كلمة تعد من جوامع الكلم ومعجزات البلاغة عن الطبعة الأخرى التى صدرت فى عام ١٣٢٩ هـ بعنوان « جمال الله فى جمال العالم » قال فيها : « لله أنت مؤلف جمال العالم ونظائره من نفائس الأسفار وبدائع الآثار ؛ فإنك لا تفتأ تحبب إلى الإنسان هذا العالم وتنبهه إلى ما أودعه الله من الخلقة وأحكام الصنعة وباهر الأسرار الدالة على أنه الواحد . نوع جليل من الإرشاد لم يفترعه منا إلاّ العالم المفضال الشيخ طنطاوى جوهرى ولا يزال يتعهدها به من حين إلى آخر كأنه أخذ على نفسه أن يحيى من موات النفوس ويوقظ من غفلة القلوب ويصعد بالفكر إلى أعلى عليين وإلى ما وراء المحسوس ! نعم ولقد افتننت فى ذلك ونوعت الطريق ، وكان من أفضلها وأبرعها كتابك « جمال العالم » الذى ماكدت تظهره حتى تخطفه الناس . . ! »

ولقد كان حافظ « بك » إبراهيم شاعر النيل هو الذى شجع الشيخ « طنطاوى » على وضع هذا الكتاب - الذى فى ٢٠٠ صفحة من الحجم المتوسط بعد أن جلس معه يستمع إليه زهاء الساعتين والنصف عن نظام العالم والأمم ، فقال له : « لو دُوِّن هذا الكلام فى كتاب لترقت الأمة المصرية » ، وكان ذلك فى عام ١٣٢٠ هـ .

---

(١) اللورد إيفبرى (١٨٣٤ - ١٩١٣) هو السير جون لوبوك .

٧- **النظام والإسلام** :

وهو عبارة عن مجموعة من المقالات نشرت فى جريدة «المؤيد». ترجم إلى التركية والهندية والقازانية. وطبع مرتين.

٨- **جواهر العلوم** :

(النظر فى الكون بهجة الحكماء وعبادة الأذكياء) - وضع هذا الكتاب على هيئة رواية يحكى فيها المؤلف حكاية شاب مصرى أراد أن يتزوج فتاة متعلمة فلم يجد إلاّ فى بلاد الفرس سيدة تركية فتزوجها، وتصدى المؤلف لحب العلوم ومعرفة ما فى السموات والأرض فى حوار بديع بين الزوجين. ويقف عند كثير من عجائب الكون التى أظهرها العلم الحديث ويقرنها بما ورد فى شأنها من آيات القرآن الكريم. وقد قررته وزارة المعارف المصرية فى وقت ما على طلابها بالمدارس - مطبوع فى سنة ١٩٠١ م - ١٣١٩ هـ فى حوالى ٢٤٦ صفحة.

ولقد ختم المؤلف هذا الكتاب بكلمة قال فيها :

«وقد تم بحمد الله ما قصدته من كتاب (جواهر العلوم) وقد اتبعت فيه خطة الترقى من الأسهل إلى السهل. وجعلته سلماً إلى فهم ما هو أدق وأرق فى الفكر وهو «ميزان الجواهر» وجمعته مستقلاً على حدته[1]. وذكرت فيه بواطن العوالم وقواها وعجائبها الباطنة مع المقارنة بين آراء الفلاسفة الأقدمين ومقابلته بكلام الفلاسفة الأوربيين ووزن الأقوال بالحجج العقلية. **فهاك** أيها الأخ، فقد جمعت لك فى هذا الكتاب من دقائق الكون وبدائع العلوم ولطائفه رغبة استجلائك نفائس عرائسه : فهاك جليساً يناجيك فى خلواتك ويزيدك جمالاً كلما استجليت فيه النظر وأعدت فيه كرّة الفكر، فلم أعرج على القوانين العلمية العويصة، بل جنيت الزهر من الأغصان والثمر من البستان، فمها فرغت من حاجاتك فاجلس على أريكتك وحادثه تجده سميراً لا يمل حديثه، ونديماً لا يسأم جليسه، فضلاً على كونه مخ العبادة وأجلها، بل فتح باب هذا الفكر هو المقصود من حياتك ومطمح نظر الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء. وقد قيل : تفكرُ ساعة خير من عبادة سنة. هدانى الله وإياك إلى طريق السعادة.

هذا وإنى أضرع إلى الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يسقينا

(١) ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب ألف قبل ميزان الجواهر ولكنه طبع بعده.

شراب الأنس فى كأس الصفا مع أحبابه الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله . . » .

٩ - ميزان الجواهر فى عجائب هذا الكون الباهر :

وهذا الكتاب ينحو نحو «جواهر العلوم» طبع فى سنة ١٣١٨ هـ فى ٢٨٠ صفحة من الحجم المتوسط ، وندع هنا الشيخ حمزة فتح الله - المفتش الأول للغة العربية بالمدارس الأميرية وقت ذاك - يقدمه لنا فيما يلى :

«بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) ، أما (بعد) فقد وقفت على ما نثرته من الجواهر ، فى كتابك (ميزان الجواهر) ، وقد برح الخفاء أن الميزان قسطاس العدل الذى به قوام العالم من العرش إلى الفرش ؛ فلأمرٍ ما آثرتَ هذا السُّماء على غيره من بقية الأسماء . نعم لقد أبثك التوفيق عن هذا الكون نزراً من خُبورِه وشُقُورِه ، وبقُوره[1] وكان هاديك فى سبيله نبراس الشريعة المحمدية السمحة ، إذ بدونها لا تحوم العقول حول فهمه ؛ ولذا لم يهتد إليه أولئك الثرثارون (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) . فلا يهولُنكَ ؛ فقد ذهبت الرّاح بعُظْم عقولهم خلا لسيْعَةً هى على وشك الذهاب حتى كأنما يعنيهم شاعرنا العربى بقوله :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

قاتلهم الله فلطالما أوهموا الأغرار أنهم اكتشفوا الأسرار ونزفوا منها البحار ، وإذا هم :

لم ينزفوا قط إلاّ قدر ما نزفت تلك العُمانِيَّةُ[2] الحرقا من الماء

هذا مع اعتراف منصفيهم بأن قصارَاهُمُ الْحدْسُ والتخمين ، والحزر والتخرِيص .

يا سبحان الله وسُعْدانَه ! ما أحقَّ الحنيفية وأعدلَ ميزانها ، وأقومَ برهانها ، وأصدق قرآنها ! فكما أسلفنا فى باكورتنا[3] كلما انتهت العقول إلى نهاية ألْفَتْها فيها بداية .

---

(١) خبوره ، وشقوره ، وبقوره ، أى أسراره وخباياه

(٢) قوله العمانية سألت الشيخ حفظه الله عنها فقال : هى بنت الجلندا ملك عمان ألبست حليا غيلمة (أى سلحفاة) على شاطئ البحر فانسابت فيه ، فجعلت **تغرف** من البحر بكفيها وتصبه على الساحل ، فقالت لجواريها نزاف نزاف ، لم يبق فى البحر غير غراف (جمع غرفة) .

(٣) قوله باكورتنا هو كتاب ألفه الشيخ وقدمه إلى المؤتمر العلمى باستكهلم عاصمة أسوج ونروج يسمى (باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام» ترجم إلى كثير من لغات أوربا .

لسرعان ما انكشف بها غِطاء الحقائق لتقوم حجتها على العالمين (فلله الحجة البالغة)[1].

ولقد أذكرنى ميزانك هذا (يا تلميذى الأبر ومثلك من يفخر به شيوخه) وما سطره صنوك محمد فريد وجدى بك (ذاك الشاب الذى لا إخاله إلاّ حجة من الحق تبارك وتعالى على من نبغ من أترابه فى اللغات الأجنبية) بصحيفته الحياة وكتابه الحديقة الفكرية ما قاله السعد فى شرح المقاصد نقلاً عن الإمام حجة الإسلام فى أثناء تعريف علم الكلام ، ومحصله : أن المتكلم ينظر فى أعمّ الأشياء وهو الموجود ؛ فيقسمه إلى قديم ومستحدث ، والمحدث إلى جوهر وعرض إلى أن قال : وينظر فى القديم فيتبين أنه لا يتكثّر ولا يتركب ، وأنه يتميز عن المحدث بصفات تجب له وأمور تمتنع عليه وأحكام تجوز فى حقه من غير وجوب أو امتناع ، ويبين أن أصل الفعل جائز عليه ، وأن العالم فعله الجائز ، فيفتقر بجوازه إلى محدث ، وأنه تعالى قادر على بعث الرسل وعلى تعريف صدقهم بالمعجزات ، وأن هذا واقع ، وحينئذ ينتهى تصرف العقل ، ويأخذ فى التلقى من الرسول ﷺ .

وما قاله القطب الرازى فى شرح مطالع الأنوار من أن تحصيل المطالب النظرية من مباديها متوقف على هداية الله تعالى لتعدد الطرق وكون التمييز بين الخطأ والصواب لا يتم بمجرد الطاقة البشرية إلى أن قال : وأما مراتب القوة العملية فأولاها تهذيب الظاهر باستعمال الشرائع النبوية والنواميس الإلهية ، وثانيها تهذيب الباطن عن الملكات الردية ، وثالثها ما يحصل بعد الاتصال بعالم الغيب وهو تحلى النفس بالصور القدسية ، ورابعها ما يتجلى له عقيب اكتساب ملكة الاتصال والانفصال عن نفسه بالكلية .

وأنّى ذلك للنفوس البهيمية ؟ .

ثم ناهيك بقول الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : إن للعقل حدًّا ينتهى إليه ، كما أن للبصر حدًّا ينتهى إليه ؛ وقول الغزالى : ولا تستبعد أيها المعتكف فى عالم العقل أن يكون وراء العقل طور آخر يظهر فيه ما لا يظهر فى العقل إلخ . .

وقول الشيخ الأكبر فى «فتوحاته» :

على السمع عوّلنا فكنا أولى النهى
ولاعلم فيما لا يكون على السمع

---

(١) الأنعام : ١٤٩ .

وقال قدس سرّه :

كيف للعقل دليل والذى قد بناه العقل بالكشف انهدم
فنجاة النفس فى الشرع فلا تك إنساناً رأى ثم حرم
واعتصم بالشرع فى الكشف فقد فاز بالخير عُبيْد قد عصم
أهل الفكر فلا تحفل به واتركنه مثل لحم فى وضم
إن للفكر مقاماً فاعتضد به فيه تك شخصاً قد رحم
كل علم يشهد الشرع له «هو علم» فبه فلتعتصم
وإذا خالفه العقل فقل طورك الزم ما لكم فيه قدم

وبالإجمال فحياك الله وبيّاك ، وأضاء بنور الشريعة المحمدية فؤادك ومحيّاك . .

الأربعاء ٩ من شوال سنة ١٣١٨ هـ حمزة فتح الله الفقير إليه عز شأنه .

١٠- رسالة الحكمة والحكماء :

وهو مجموعة رسائل تتضمن المقالات : (١) الحكمة والحكماء - (٢) ما المقصود من هذا العالم ؟ - (٣) وجهة العالم واحدة ، هى النظام العام - (٤) قطع شعرية معربة عن الإنجليزية (٥) قصائد شعرية .

١١- جوهر التقوى فى الأخلاق :

كتاب فى علم الأخلاق ألفه ودرسه لطلبة دار العلوم سنة ١٩١٠ .

١٢- مذكرات فى أدبيات اللغة العربية :

مذكرات لتلاميذ المدرسة الخديوية وضعها وهو مدرس لها .

١٣- أين الإنسان :

موضوع هذا الكتاب وهو فى ٢٧٢ صفحة من الحجم المتوسط - إصلاح المجموع الإنسانى . استهجن فيه المؤلف السياسة العامة ونظام هيئات الحكومة فى العالم المتمدين ، وهو عبارة عن رواية يجرى الحوار فيها بينه وبين روح من الأرواح القاطنة بمذنب «هالى» لما اقترب من الأرض ، وسأل عن السلام العام وعن أخلاق نوع الإنسان .

وهذا الكتاب الذى جمع من درر المعانى صنوفاً ومن جوامع الكلم ألواناً مما يقف القلم على تحديدها ويحير اللب فى وصفها - لخّصه ونشره فى إيطاليا الفيلسوف الإيطالى ستيلانا بعنوان «صدى صوت المصريين بأوربا».

ولقد كتبت مجلة «الملاجئ العباسية ومكارم الأخلاق الإسلامية» فى المجلد الحادى عشر ص ٦٦٧ سنة ١٣٢٩ كلمة عن هذا الكتاب قالت فيها :

«للشيخ طنطاوى جوهرى أسلوب فى كتابته جم الفائدة ، شامل النفع ، قل أن يجاريه فيه أو يشق له غبار ؛ فهو إذا ألف أو سطر - فإنما يكتب ليفيد لا ليقال : إنه كتب ! ولا تمر عليه أيام حتى يظهر للناس أطايب النفائس من خزانة عقله التى ملأها الله علماً وحكمة ، وآخر ما جاء به على الناس كتابه المعنون بـ (أين الإنسان ؟) . .

فيه عطف الإنسانية عطفة حنان ورفق جدير بقلم أستاذ حكيم كالشيخ طنطاوى جوهرى أن يعطفها ؛ لأن ذلك القلم المهذب الطرير لا يألو جهداً فى منفعة الإنسانية والحدب عليها . وخير ما يقال فى كتاب مثله بل غاية ما يقرظ به أنه آية من آيات الرحمة أنزلها الله على عبده ، فأذاعها فى الناس لتكون مأساة للبائسين وبلسماً شافياً للجرحى المتوجعين ، أثابه الله على ما فعل ، ونفع بكتابه آمين» .

وكتبت «دار المعارف» فى «الكتاب الذهبى» الذى أصدرته فى مارس عام ١٩٣١ كلمة عن هذا الكتاب الذى قامت بطبعه ونشره قالت فيها :

«الأستاذ طنطاوى جوهرى - صاحب المباحث الجليلة ، والنظريات القيمة فى الفلسفة الأدبية والخلقية والاجتماعية . وصاحب كتاب «أين الإنسان ؟» الشهير والفريد بأسلوبه وموضوعه ، يتلهب فيه غيرة على البشرية ، ويناشد ملوك الأرض وحكماءها وعلماءها وسواسها ، ونواب الأمم والشعوب أن يتعاونوا على العمل فى سبيل سعادة العالم عسى أن يعدل الناس عن الظلم ، ويسيروا على الصراط القويم . وملخص موضوع هذا الكتاب الذى يحتوى على عشرين فصلاً : بيان استخراج السلام العام فى الأمم من النواميس الطبيعية ، والنظامات الفلكية ، والفطر الإنسانية ، وبنيان السياسة على أساس الطبيعة . وأن مدنية اليوم حيوانية ، ودعوة الناس للإنسانية الحقيقية ، وبيان أن الإنسان لم يفهم إنسانيته ، ولم يستخرج قوته ، وخطاب موجه لفلاسفة الأمم ونوابها وملوكها ، ودعوة الأولين لبحث هذا الموضوع ، والآخرين للتعاون على العمل .

«وقد طار فى كتابه هذا على أجنحة الخيال إلى الكواكب السيارة ، فخاطب سكانها وبحث فى أحوالها ، وقارنها بأحوال الأرض الشقية ، كل ذلك بأسلوب من أبدع الأساليب وأقربها للأفهام .

«وقد قدّم كتابه هذا قبل طبعه منسوخاً بخط اليد إلى «مؤتمر الأجناس العام» الذى انعقد بإنجلترا فى أواخر شهر يولية سنة ١٩١١ - فكان له وقع جميل واستحسان عام».

ولقد قدّم الشيخ طنطاوى جوهرى كتابه «أين الإنسان ؟» بمقدمة غاية فى الإبداع قال فيها :

«هذا كتاب كتبته للناس ، خاطبت به حكماء الخافقين ، وعلماء المشرقين ، وفلاسفة المغربين ، تبصرة وذكرى للعادلين ، من كل نبيه ونبيل ، وعالم وجليل ، وملك وعظيم ، ووزير خطير ، ونائب عن أمته كبير ؛ ذكرى للأمم ، وعبرة للدول ، وسعادة للناشئين من البنين ؛ عسى أن يعدل الناس عن ظلمهم ، ولا يتبعوا غيهم ، ويسيروا على الصراط المستقيم .

إننى ضممت جوهرة الإنسان إلى فلذة الحيوان فى النظام ، وقرنت نظام الكوكب الدرى بما رآه بسمارك وسلسبورى ، وسوّيت ما بين نواميس الأحجار فى سقوطها ، وقوانين الكواكب فى هبوطها ، وبين نظام الأمم الأرضية ، وأحوالها السياسية .

ولست أدّعى النهاية فى تحقيقه ، والإجادة فى تنميقه ؛ فما أكثر العوائق من الأعمال الدراسية ! وما أبعدها عن هذه المرامى النائية ، والمطالب السامية !

وما هذا الكتاب إلاّ خطرات خاطرات ، ولمحات سانحات ، وبوارق لامعات فى ليالى الحوادث المدلهمات .

وهو إن كان قطرة من بحر السلام العام - فسوف تتبعها المزن الممطرات ، ولسوف يقوم بهذا الأمر علماء محققون من رجال الشرق والغرب ، وليعلمن نبأه بعد حين .

الدنيا بحر ملح أجاج متلاطم الأمواج ، يغشاه موج الحياة المدلهمة ، من فوقه المظالم المطلخمة ، من فوقه سحائب الحروب الشيطانية البشرية ، بحيث إذا أخرج المرء فيها يده لم يكد يراها ، وضل فى موجه العظيم ، هذا مثل حال الإنسان ، الضائع فى ثنايا الزمان .

لذلك ألّفتُ هذا الكتاب ؛ ليبحث العقلاء عنه فى ذلك العباب ، وأسميته «أين الإنسان ؟» ، وأعطيته باليمين الحكماء ممن تحت السماء ، وباليسار السواس العظماء على سطح الغبراء .

ولما كانت الأشكال أولى بأشكالها ، والفضائل أقرب إلى أهلها ، والعيون أعلق بأهدابها ، وكان كتابى موجها لطائفتين من العالمين ، ومهدى إلى نوعين من العقلاء العاملين : رجل علم ، وسائس عظم - بدأت بإرساله إلى مؤتمر الأجناس العام ؛ لأنه جمع بين الحسنيين ونال المنقبتين ، ولولا علو المنار ما عم نوره المسافرين ، ولولا ضوءه ما هدى السفائن فى ظلمات الغياهب ولا الضالين .

إن لتأليف الكتاب أسباباً يطول شرحها وقد أرجأتها لتذكر فيما بعد إن شاء الله تعالى» .

١٤- السر العجيب فى حكمة تعدد أزواج النبى :

رسالة فى تعدد الزوجات عند المسلمين وتعدد زوجات النبى ، وفى الأحاديث الموضوعة ، وسبب الكذب على رسول الله ﷺ ، وقد ترجمت للغة الهندية ، وطبعت مرتين فى عام واحد .

١٥- صدى صوت المصريين بأوربا :

تلخيص سانتيلانا الإيطالى لكتاب «أين الإنسان ؟» .

١٦- الموسيقى العربية :

عبارة عن ثلاث محاضرات أعدت لتلقى فى الجامعة المصرية ، وألقيت الأولى منها وفيها عرّف الحكمة وأقسامها ومنها فن الموسيقى . وعرّف الفلسفة وقسمها إلى علمية وعملية ، ثم تحدث عن علم الموسيقى وأن له أجزاء ونغمات وأحوالاً . ثم ما استخرجه الحكماء من الموسيقى ، ثم ذكر أصل العروض وملخص ما قاله الغزالى فى الأغانى وتحليلها ، وآراء أفلاطون فى الجمهورية ، وفنلون الفرنسى فى كتابه «تربية البنات» ، ومقارنة بين موسيقى الناس ونغمات الحيوان وعجائب النبات وجمال العالم كله ، ثم تحدث عن النسبة الموسيقية ونوادر الفلاسفة فى الموسيقى ، ونقل عن اللورد إيفبرى فى كتابه «مسرات الحياة» معنى الموسيقى ، وتناول الموسيقى عند فيثاغورس والصينيين واليونان وهيرودوتس المصرى وشكسبير ، ثم تحدث عن الشيخ حسن المملوك والأدوار الشرقية المشهورة .

١٧- سوانح الجوهرى :

مذكرات يومية أتى فيها بما كان يشاهده وهو راكب وسائر ، وما كان يعنّ له من سوانح عبرة له وهدى ونور لمن يقرأ من أنباء الجيل المقبل . وأبان فيها ما أملته عليه الكائنات وما أوحت إلى نفسه من معان عالية وصور حكمية .

وتحدث فيها عن أطوار الإنسان وعن الشورى فى طبيعة الأطفال وأن زخرف الغرب حجب أبناء الشرق عما ابتكر آباؤهم الأولون ، وتحدث عن أن الأمم المغلوبة على أمرها عرضة لفساد أخلاقها ، وأن الحشرات تأكل مما نلبس وتلبسنا ما تأكل .

ثم تحدث عن أن جوهر الوطنية : الاقتصاد ، وترقية الصناعة والزراعة وحركة التعليم ، وتعاون أرباب الفكر والأموال على العمل والترقى ؛ ثم تحدث عن أن ما تجمعه القوة الشهوية تفرقه القوة

الغضبية ، ثم فسّر آية كريمة تحض على أن الشهوات تمنع رقى الأمم ، ثم قارن بين السائس والدجال ، وأفاض فى الحديث عن القضاء والقدر ، وأوجب أن يتحد الوطنيون فى تعليم عام ؛ كما يجب الاتحاد فى الزى والأخلاق الفاضلة : أى لابد من عقيدة واحدة تشمل الأمة إما وطنية أو دينية ؛ ثم تحدث عن رجال الدين فى الأمم المنحطة وأنهم يؤولون الدين بحسب أهوائهم ، ثم تحدث عن البلاغة وقواعدها ، ويرى أن الأبواب المحدودة المسماة (معانى وبيان وبديع) حجاب بين الناس وبين البلاغة ، والطريقة المثلى هى كيفية الحكم على الفرق بين كلام وكلام : أى الموازنات (المقارنات) ؛ وضرب لذلك مثلاً من القرآن والشعر.

١٨ - رسالة الهلال :

ألفها عام ١٩١٤ حين سأله عالم من علماء القازان عن هلال رمضان ، وقد اختلفوا فيه . أرسلت إلى الهند وقازان ، وترجمت إلى اللغة الهندية والتركية والقازانية ، ونشرت فى مجلة الملاجئ العباسية .

١٩ - براءة العباسة :

أخت هارون الرشيد ، وهو كتاب تاريخى أدبى . ولهذا الكتاب قصة روحية عجيبة هى أن روح هارون الرشيد اتصلت بالشيخ طنطاوى فى سنة ١٩٢٢ وطلبت منه أن يصحح خطأ تاريخيا وقع فيه المرحوم جورجى زيدان بصدد العلاقة بين العباسة أخت الرشيد وجعفر البرمكى ، وأن روح الرشيد كانت تظهر فى الجلسات التى تعقد ، وكانت تشجع الشيخ «طنطاوى» على تأليف كتاب فى هذا الشأن سماه «براءة العباسة أخت هارون الرشيد» .

وسنسرد وقائع هذه القصة الطريفة بالتفصيل فى فصل خاص بحياة الشيخ طنطاوى الروحية فيما بعد بهذا الكتاب .

٢٠ - المدخل فى الفلسفة :

وفيه ستة عشر علماً نقلها العرب عن اليونان وأحسنوا فيها ما شاءوا .

٢١ - جوهرة الشعر والتعريب :

يحتوى على ما ترجمه من شعر أشهر شعراء الإنجليز ، وبعض مقطعات شعرية مما سبق أن نشرت

فى بعض المجلات الأدبية ، وفى كتبه الأخرى . أما القصائد التى نظمها ونشرها فى هذا الكتاب فكان خيرها منظومته فى وصف جمال الطبيعة وهى مطولة .

٢٢- رسالة عين النملة :

عبارة عما دار بينه وبين علماء الطب وكبار المدرسين فى عيون النملة ، ولقد أثبت فى هذه الرسالة أن كل عين من عينى النملة مركبة من مائتى عين ، كل عين مستقلة استقلالاً تاما لا شك فيه ، وفى هذه الرسالة أيضاً عجائب كثيرة عن النمل وعسكره ومدنه وغير ذلك .

٢٣- كتاب التربية للحكم الألمانى كانط :

وهذا الكتاب مترجم بتصرف عن الترجمة الإنجليزية التى قامت بها «السيدة آنت» ، وأوضح فى مقدمته ما توخاه من تربية الناشئة الشرقية تربية فاضلة تناسب ما دبجه الفيلسوف «كانط» فى كتابه - ويذكر أن أول آية نزلت فى القرآن حضت على التعليم . ويحتوى الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب ، ويناقش «كانط» فى بعض آرائه كما حدث فى الفصل الخاص «فى التعليم الدينى» ويستدل فى نقاشه بالآيات القرآنية .

٢٤- الأرواح :

طبع هذا الكتاب ثلاث طبعات : ظهرت الطبعة الأولى فى سنة ١٩١٨ ، والطبعة الثانية سنة ١٩٢٠ فى ٣١٥ صفحة من الحجم المتوسط ، والطبعة الثالثة سنة ١٩٣١ فى ٣٥٠ صفحة من الحجم الكبير .

وقد نحا المؤلف فى هذا الكتاب نحواً جديداً على خلاف طريقة المسلمين القدامى فى التأليف : فهو فى هذا الكتاب يدافع عن هذا البحث ، ويبين مدى انطباق نتائجه مع العقيدة ، ويدفع كل شبهة قد تجىء من هذه الناحية .

ولقد حاول فيه أن يوفق بين الآراء الصوفية والدينية ، وبين شبيهاتها فى العلوم الروحية الحديثة .

ويحتوى الكتاب على ستة فصول ، كل فصل منها يحتوى على مباحث مختلفة منها :

١ - مقارنة بين ما جاء فى الكتاب والسنة وبين ما جاء على لسان الأرواح فى الجمعيات النفسية فى أوربا : مثل عذاب القبر ونعيمه ؛ وتقسيم الغزالى ذلك إلى ثلاثة أقسام ، ووسوسة الأرواح الشريرة ، وإلهام الأرواح الفاضلة للناس كما فى إخوان الصفا والرازى والغزالى وغيرها ، هذا كله

نطقت به الأرواح صراحة وهو كشف عجيب للدين الإسلامى .

٢ - روح البخيل التى أحضرت فى المجلس المعترف به من الحكومة وقولها «هاتولى ذهبى ومالى» ، وروح الحاكم الألمانى الذى شكا من مضايقة يتيمين له وبحث فى المديرية عنه فوجد ظالماً للأيتام وبيان المؤلف أن هذا من أقسام عذاب القبر التى ذكرها الغزالى .

٣ - الأخلاق التى وردت فى الإحياء للغزالى كالحقد والحسد والغضب والسرف والإخلاص وما شابهها ومطابقتها لما نطقت به الأرواح .

٤ - عجائب الأرواح فى إحضار الفواكه والنبات والحيوان الحى على يد جمعيات أقرتها الحكومات فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا وما أشبه ذلك كإحضار عرش بلقيس فى القرآن الكريم .

٥ - اتصال عالم الأرواح بالإنس ، والإنس بعالم الأرواح ، وهذا هو السر الذى فى القرآن قد كشف الآن فى هذا الكتاب .

وغير ذلك من موضوعات عجيبة فى بابها سيأتى ذكرها فى الفصل الخاص بحياة الشيخ طنطاوى الروحية .

٢٥- أصل العالم :

عبارة عن مباحث فلسفية فى الجغرافيا الطبيعية.وسبب وضع هذا الكتاب هو أن المؤلف وهو فى الإسكندرية ورد إليه خطاب فى أواخر شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ من الشيخ عبد العظيم فهمى الضرير الطالب بالقسم الثانوى بالجامع الأحمدى بطنطا يسأله فيه بعض أسئلة عويصة حار فى فهمها كثيرون ويختم خطابه قائلاً : «كل آمالى ورجائى أن تتكرموا على بإيضاحها وإظهار الصواب فيها حتى أخرج من ظلمات الشك والتحير إلى نور اليقين . وعساك ألاّ ترد يدى صفراً ؛ فقد عهدتك كما عهدك الملأ حتى سكان «مذنب هالى» . لا تخيب سائلاً ولا تكسف راجياً . لا حرم الله العالم أمثال فضيلتكم» .

فأجابه الأستاذ الحكيم - وكان يومئذ مدرساً للغة العربية بالمدرسة الخديوية - جواباً شافياً وافياً لم يجعل مجالاً للريب فيه ، وطبعت هذه الإجابة فى هذا الكتاب الذى استغرق ٣٦ صفحة من الحجم الكبير .

٢٦- أحلام فى السياسة :

وكيف يتحقق السلام العام ؟» وقد كتبه الشيخ طنطاوى باللغة الإنجليزية ، ثم ترجمه فى عام ١٩٣٥ إلى اللغة العربية .

٢٧- القول الصواب فى مسألة الحجاب :

ثلاث مقالات ردّ بها على كتاب قاسم أمين فى تحرير المرأة نشرها فى مجلة «الموسوعات» بإمضاء «ط . . ج» ، وكانت ذات فائدة ؛ إذ اعتدل قاسم أمين وأعطى الشيخ طنطاوى بعض الحق واعترض فى بعض نقط ، وكان مذهب المؤلف هنا فى هذه المقالات كمذهب وسط بين الطرفين .

٢٨- بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية :

طبع فى عام ١٩٣٦ . بدأه بمقدمة فى قبول الفطرة الإنسانية للفلسفة وفى تاريخ علومها . ومن الفصول التى يحتويها الكتاب : عناية الدولة القديمة الإسلامية بالفلسفة ، اختلاف الترجمة وتلخيص الفارابى لها ، الدين والفلسفة ، الصابئون ، غموض التاريخ ، تاريخ الأمة اليونانية فى الفلسفة ، فلسفة اليونان فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد وما بعده ، الكلام على سقراط وأفلاطون ، فلسفة أفلاطون وغيرها من الموضوعات الفلسفية الهامة .

٢٩- القرآن والعلوم العصرية :

وهذا الكتاب الذى أعيد طبعه فى سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣ م) ، جاء كله فى حث المسلمين على جمع شملهم وعلى الأخذ بالعلوم ؛ حتى يكونوا أهلاً لما وعدهم به الله سبحانه وتعالى من القيام على الأرض بالعدل .

ويختم المؤلف كتابه هذا بقوله :

« . . ولقد أصبحت موقناً إيقاناً تامًّا بطريق الإلهام وما أعرفه من أحوال المسلمين أن هذه الحركة العلمية ستجعل المسلمين حاملين رايات الفتح العلمى فى مستقبل الزمان ، وبهم يرتقى نوع الإنسان ، ويكونون نوراً وهدى للعاملين . . وأنا أقول الآن مصرحاً بعض التصريح : إنى لم أقل هذا من تلقاء نفسى ، ولكنى ألهمته إلهاماً ، وأيقنت به إيقاناً . . » .

وقد كانت ثقة المؤلف كبيرة بنهضة المسلمين ، واستعادتهم مجده : عمارتهم الأرض ، وإصلاحهم

ما آل إليه أمرها من فساد واضطراب ، وكانت هذه الفكرة تنزل من نفسه منزلة اليقين الذى لا يخامره فيه شك . وربما لازمته منذ فجر حياته العلمية إلى نهايتها ، يجدها القارئ مبثوثة فى ثنايا كتبه جميعاً . وللقارئ أن يراجع أمثلة لذلك فى تفسيره الكبير للقرآن «الجواهر» جزء ١١ ص ١٥ و ٧٨ و ٢٢٧ و ٢٣٧ و ٢٣٩ ، ولاسيما الموضع الأخير ، حيث يؤكد ذلك من وجوه كثيرة : بعضها إلهام ، وبعضها وجدان ، وبعضها اعتماد على سنن العمران[١] .

٣٠- الجواهر فى تفسير القرآن :

وآخر مؤلفات الشيخ طنطاوى تفسيره الموسوم «بالجواهر» . . أتم تفسير القرآن فى ٢٥ مجلداً كبيراً ، ثم كتب المجلد السادس والعشرين لاستدراك ما فاته . متوسط صفحات كل جزء منها ٢٥٠ صفحة من الحجم الكبير . ولقد دوّن هذا التفسير بدون توقف - وهو بالمعاش - من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٥ .

وفى هذا التفسير طبق القرآن على النظريات الحديثة ، أو استخرج النظريات العلمية من نصوص كتاب الله ، فجاء مزيجاً من علوم الأمم قديمها وحديثها ، مع التوفيق بين الآراء الحديثة والأفكار الدينية ، وبخاصة مسألة الأرواح التى كتب فيها كتاباً أشرنا إليه من قبل ، وسنرجع إليه فيما بعد .

وكان لهذا التفسير فى الشرق الأقصى وفى إيران بوجه خاص سمعة طيبة وشهرة واسعة النطاق وقد قالت عنه مجلة الجمعية الآسيوية الفرنسية : إن الشيخ «طنطاوى» رجل فيلسوف حكيم بمقدار ما هو عالم بالدين . وبهاتين الصفتين قد فسّر القرآن الذى أثبت أنه دين الفطرة بما هو أكثر ملاءمة للطباع البشرية وموافقة للحقائق العلمية والنواميس الطبيعية . وقد ترجم تفسير الجواهر إلى اللغة الأوردية . وفيه من الصور الشمسية ما يزيد على ألف صورة يتبين بها القارئ عجائب الحيوان والشموس والأقمار والنجوم وصور النبات والحيوان وعجائب العين مصورة ، والدماغ وعجائبه . وفى تفسير قوله تعالى «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» نرى صورة المخ موضحة ، وكم فى الكتاب من معجزات أظهرها العلم الحديث فى هذا التفسير !

ولقد أخبر علماء إيران أن الكتاب يدرسه العلماء لجميع الطلاب وهو دائرة معارف عامة . ولقد انتشر انتشاراً عامًّا فى السودان وشمالى إفريقيا وبلاد جاوة . وقال العلامة أبو عبد الله الزنجاوى : إن طلاب العلوم الحديثة فى مدارس إيران يقرءون هذا التفسير ، وبه وحده زالت عنهم الشكوك

---

(١) راجع «الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين ص ٣١٥ .

والوساوس فى الدين ؛ كما أن علماء الوعظ يخطبون به على المنابر هناك .

وأقبل أهل الهند على هذا التفسير إقبالاً عظيماً .

وإلى هنا نكتفى بهذا القدر من التعريف «بالجواهر» مرجئين الحديث عنه بإسهاب فى فصل خاص بـ «منهج الشيخ طنطاوى فى التفسير» فيما يأتى بعد بهذا الكتاب .

وللشيخ طنطاوى عدا ما تقدم من كتب - كثير من المقالات والأبحاث والمحاضرات التى نشرها فى الصحف والمجلات ، وتبلغ عدداً كبيراً يمكن أن يكوِّن موسوعة ضخمة فى المعارف سواء فى التاريخ أو الطبيعة أو اللغة أو غيرها من مختلف فروع المعرفة رأينا أن ننشر بعضها فى بعض فصول الكتاب ، وبعضها الآخر فى الباب الثانى الخاص بالنصوص .

الفصل الثالث

المصلح الاجتماعى

فى عام ١٩٢٢ تخلى الشيخ طنطاوى عن التدريس لبلوغه السن القانونية للمعاش ، ومنذ ذلك الوقت انقطع للتأليف ، وأخذ يواصل الكتابة بأسلوبه الحلو الرزين الرصين ، ويرسل فى أبحاثه بنظراته الفاحصة العميقة ، ويفيض من علمه المتمكن الغزير ، فصنّف الكتب الكثيرة التى كان أشهرها « الجواهر » وقد أفردنا لمؤلفاته فصلاً خاصا .

كما أسس « جماعة الأخوة الإسلامية » وكانت تجمع طلاب المسلمين من الشرق الأوسط ومن الشرق الأقصى حين جاءوا إلى مصر ليتعلموا فيها ، وقد أضعفت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) نشاط هذه الجمعية ، وكانت قائمة فى عام ١٩٥٠ فى قبة الغورى أمام المسجد الذى يحمل هذا الاسم بجوار الأزهر ، وكان رئيسها فى عام ١٩٥٠ المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب وقت ذاك .

وكان الشيخ طنطاوى عضواً بجمعية البر والإحسان ، وعضواً فى « جمعية الشبان المسلمين » التى كان يرى فيها مثلاً طيباً للحركة الإسلامية فى الشبيبة الناهضة ، كما كان عضواً بارزاً بدائرة القاهرة الروحية . وتولى رياسة جمعية المواساة الإسلامية التى بدأت على يديه وكان أحد مؤسسيها .

لقد كان الشيخ طنطاوى عالماً متمكناً بطبيعة الأرض وبحياة أهل الأرض ، وكان مجاهداً صادقا مع الرعيل الأول من المجاهدين الصادقين فى الصف الأول .

لم تشتهر فى الشرق شخصية من المصريين كما اشتهر الشيخ طنطاوى ؛ فقد كان السائح الشرق إذا رحل إلى مصر يسأل عن « الشيخ طنطاوى » فى رحلته ، كما يسأل الإنجليز أو الأوربيون أو الأمريكيون عن « الأهرام » . فهو معروف فى الهند وبلاد فارس والصين وإندونيسيا وفى بلاد العرب وتركستان .

قالت مجلة « صحيفة دار العلوم » :

« إن التركستانيين لما استقلوا استقلالاً تاما وأقاموا جمهورية إسلامية وأنشأوا المدارس والجامعات - اتفقوا على أن يسموها باسم الشيخ طنطاوى جوهرى ، فسموها « جامعة طنطاوية » و « مدارس جوهرية » وألف زعماؤهم وعلماؤهم كتباً فى لغتهم للتدريس فى هذه الجامعات والمدارس باسم المترجم مثل كتاب « القصائد الجوهرية » ، لأنه فى عقيدتهم حجة الشرق وفيلسوف الإسلام » .

ويقول الأستاذ أحمد عطية الله - وهو أحد معاصريه - فى مقال له عن الشيخ طنطاوى بمجلة « المصور » بتاريخ ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٧٢ ما يلى :

« . . ومن ناحية أخرى كان الشيخ طنطاوى يتابع ما ينشره فى الصحف والمجلات من اكتشافات علمية ارتبطت فى ذهنه والتطور الحضارى للغرب ؛ لهذا نراه يقرن بين الجمهور والتخلف من ناحية وبين عزوف المسلمين عن العلوم الحديثة ، وقاد دعوة إلى الإصلاح الاجتماعى قوامها نشر هذه العلوم مؤيداً قوله بالأدلة والأمثلة التى لا حصر لها بأنه لا جفوة بين القرآن وهو مصدر العقيدة الأول وبين هذه العلوم ، بل إنه أكد القول بأن القرآن يحث المسلم على طلب العلم بمعناه الشامل : وطريق ذلك فى نظره نشر المدارس وإنشاء الجامعات الحديثة ؛ وأجمل هذه الدعوة قصيدة له مازلت أذكر بعض أبياتها منذ المرحلة الابتدائية يقول فيها :

وابنوا المدارس فى القرى
والجامعات كما يُرى . . .
فى كمبردج ، ولندرا .
فزمانها قد حانا . .

وتبلورت هذه الدراسات الموسوعية فى نوع من الفلسفة الاجتماعية ، وأصبح داعيا إلى نظام دولى يقوم على السلام والإخاء منددا باستخدام الدول العظمى للقوة فى إقرار سياستها ، وضمن ذلك عدة كتب منها « نظام العالم والأمم » ، و « النظام والإسلام » و « نهضة الأمة وحياتها » ؛ لهذا كان يرى نفسه فى أخريات حياته أحد دعاة السلام العالمى . . »

ولعل كل ذلك لم يضع الشيخ طنطاوى موضعه المرموق فى مصر كما هو الشأن معه فى أمم الشرق والغرب ، وقد كفانا الشيخ مئونة هذا بقوله : « إليك اللهم أشكو جور الحساد وغيظهم : يقولون إذا خلوا مع الموظفين من أمة الإنجليز : إن هذا إلاّ متعصب للدين ، فإذا تركتموه وشأنه أثار الثائرات وشن الغارات ! ويقولون للموظفين المصريين : ألا إنما هو خارج مؤوِّل فى الدين ؛ وإذا لقوا فريقا

آخر قالوا : إنه خلط العلم مع الدين ومزجهما خبط ضائع ! اللهم ، إنى سأعمل بما قلت لنبيك ﷺ : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين » .

فى سبيل العلم والدين :

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « الأخبار » التى كان يديرها ويرأس تحريرها المرحوم الأستاذ أمين الرافعى بعددها الصادر فى ٨ من سبتمبر عام ١٩٢٤ نداء هذا نصه :

« نداء . . من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ طنطاوى جوهرى إلى الملوك والسادة الأشراف والأمراء والأعيان وكل ذى حمية دينية إسلامية ببلاد الملايو وسنغافورة وجزائر الهند الشرقية وفولوفينا يستنهض فيه الهمم العلية لإحياء العلوم الدينية :

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله.(أما بعد) فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلاّ هو ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وآله . . ثم إنى أذكركم بما تعلمون أن هذا الزمان اتجهت أنظار الأمم فيه إلى العلوم والمعارف وتشييد المدارس ، وإنارة القلوب بالأخلاق والآداب . وإن الأمم الشرقية الإسلامية اليوم أحوج إلى ذلكم من كل الأمم .

ولما كانت بلادنا المصرية كعبة أنظارهم ، ومرمى آمالهم ، ومنتهى مقاصدهم لشرفها باللغة العربية والجامعة الأزهرية والعلوم الدينية - شرّفنا فى هذه الأيام ضيف مصر السيد النبيل حسن بن العطاس من مملكة جهور بهادر إحدى ممالككم العامرة ، ومعه حضرة عبد العزيز أفندى الشيمى المدرس فى أقطاركم ، وتحدث معنا فى أمر المعارف الدينية ونشرها فى أقطاركم المباركة الطيبة ، وطلب أن أسافر معه لبث الفكرة وجمع الكلمة ، فاستشرت طائفة من أولى العلم والفضل ففكروا مليا ، وأجمعوا أمرهم بينهم وقرروا ما يأتى :

أولاً : لا رقى لأقطاركم المباركة فى الدين إلاّ بإنشاء المدارس فى البلاد نفسها .

ثانياً : يجب أن يكون المعلمون من أبنائها ؛ لأن المدرسين المصريين وغيرهم يحتاجون إلى نفقات طائلة لبعد الشقة وطول السفر والغربة عن الأوطان .

ثالثاً : يجب أن يبدأ أولاً بتعليم طائفة من أبناء بلادكم العلوم المختلفة فى مصر ليكونوا معلمين فى المدارس التى تنشئونها فيما بعد إن شاء الله .

رابعاً : يجب أن يُبتدأ بإصلاح أحوال التلاميذ الذين هم الآن بالجامع الأزهر تشجيعا لهم

واستنهاضا لهمم غيرهم من أبناء البلاد .

خامساً : كلفت اللجنة المشار إليها كاتب هذه السطور أن يقابل أولى الأمر مع السيد حسن بن أحمد العطاس صاحب المشروع لتنفيذ الفكرة فى الأزهر أولاً بدراسة أحوال هؤلاء الطلاب ، فلبيت طلبهم وتوجهت مع السيد إلى صاحب الدولة (سعد باشا زغلول) ، ونائبه صاحب الدولة (محمد باشا سعيد) ، وقد وعد كل منهما بالمساعدة ؛ ومن هناك صدر الأمر لصاحب الفضيلة شيخ الإسلام بامتحان الطلاب ، فشكلت لجنة تحت رياسة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان العضو بمجلس الشيوخ ومن كبار العلماء بالأزهر لامتحانهم ومعرفة أحوالهم ، فسرَّها حال وساءتها أحوال ، وقد نظرنا فى أمرهم من عدة وجوه لابد من تكميلها وهى :

أولاً : إن التلاميذ لا يحسنون النطق بالعربية ، وهى لغة العلم بالأزهر الشريف إلاّ القليل .

ثانيا : إن مساكنهم التى يؤجرونها غير صحية ، وأحوالهم المعيشية غير مرضية .

ثالثا : إن المال ليس متوافراً لديهم كما هو عند طلبة الترك والشام وبلاد المغرب ؛ فهؤلاء جميعا غرباء مثلهم ، ولكن لهم أوقاف خاصة بهم ، فهم فى عيش أحسن وزى أكمل على كل حال .

رابعاً : رأت الجماعة أن هذا إنما نشأ من اقتراب هذه الأمم من مصر وابتعاد أمة الملايو وطول الشقة فى غابر الأزمان ، أما الآن فقد وجدت المواصلات بين الأمم ، فيجب العناية بهؤلاء الطلاب .

وعلى ذلك تقرر أن يعتنى بتعليم المستجدين من هؤلاء ويُراعَوْا رعاية خاصة ، ويجعل لهم نظام خاص عند ابتداء حضورهم ، ويطلب من فضيلة شيخ الإسلام العناية بذلك وهو أب لهم رحيم . ثم طلبت اللجنة – وأعضاؤها بترتيب حروف المعجم حضرات : حسن بك أحمد من الأعيان ومن كبار أولى العلم ، والأستاذ الشيخ عليش ، وعبد العزيز أفندى الشيمى ، والأستاذ الشيخ محمد نور المدرسون بالمدارس ؛ والسيد مصطفى البابى الحلبى الكتبى المشهور ، ونور الدين بك مصطفى من الأعيان وكبار أولى العلم – طلبت من كاتب هذه السطور أن يدون ذلك ويرسل خطاباً بمضمونه إلى حضراتكم ملتمساً جمع المال اللازم ، وأن تشكل لجنة عندكم من الملوك والوزراء والأعيان ويكون لها أمين صندوق ينتخب من بينهم . وهذه اللجنة مهمتها جمع المال والتبرعات باكتتاب دائم لتعليم العلوم الدينية حتى إذا ما اجتمع عند الجمعية ما يسد الحاجة فهنالك يحسن أن تخابر اللجنة المذكورة كاتب هذه السطور ، وترسل من تراه لتريه اللجنة ما هو واجب من شراء عقار ووقفه على الطلاب وغير ذلك ، ثم يستشار الإخوان هنا ، ويقررون ما يجب عمله فى مصلحة الطلبة الأزهريين من مسكن وملبس وتعليم وتوجيههم إلى المقاصد التى يصلحون لها ، وتكون اللجنة هنا بمصر كمستشار يؤدى وظيفة النصح التى تجب على جميع المسلمين . وهذا العمل هو المقصود من سفرى ، فليؤجل

ذلك السفر لفرصة أخرى إذا تمت الأمور .

وهذه اللجنة بمصر فوق التعليم الدينى تقوم بكل ما يلزم من النصح لكل طالب يريد الطب أو الهندسة أو القضاء الشرعى أو علم الزراعة أو علم التجارة أو غير ذلك من العلوم العصرية خلاف العلوم الدينية .

ثم كلفتنى اللجنة أن أنشر بيانا أستثير فيه الحمية وأبعث الغيرة فى نفوس من عندكم من إخواننا المسلمين فلبيت طلبهم وهأنذا أوجه خطابى للجميع . وقبل أن أقول كلمتى فى هذا الشأن أذكر أن جلالة ملك مصر فؤاد الأول قد أصدر أمره فى هذا العام بأن يبنى مسكن صحى لسائر الغرباء . وقد عهد الأمر فيه إلى صاحب الفضيلة الشيخ حسين وإلى سكرتير الجامع الأزهر ونحن لذلك مرتقبون .

وأيضا أخبرنى أستاذنا العلامة إسماعيل بك رأفت أن هناك وقفا للجاويين وقفته السيدة رمز عاشق هانم من معتوقات المرحوم إسماعيل باشا من الأسرة العلوية وذلك من نحو عشرين سنة وهو شاهد عليه هو ومحسن نورى بك مدير الدفترخانة . والبحث جار عن هذه الأطيان وإعدادها لأهل الملايو وأهل جزائر الهند الشرقيين الطالبين بالأزهر .

ولما رأى ضيف مصر الفاضل العطاس حال هؤلاء الطلاب استأجر منزلاً على نفقته بمعرفة السيد مصطفى أفندى البابى الحلبى حتى يتم النظام المستقبل الذى أعدّه لهؤلاء الطلاب .

* * *

ظهر العدد ٣٤٣ من جريدة « مصر الفتاة » الصادر فى ١٥ من نوفمبر عام ١٩٠٩ مصدراً بمقالة شغلت الصفحة الأولى وجزءاً كبيراً من الصفحة الثانية . وكان عنوان تلك المقالة :

مذهب داروين عند العرب
المقتطف والمفكر المصرى الكبير

« للمفكر المصرى الكبير ، والعالم العصرى العامل ، الشيخ طنطاوى جوهرى مباحث فكرية دقيقة فى علوم لم يشتغل بها إلى الآن غير الغربيين . ومن بنات مباحثه الجليلة كتابه الذى سماه « نظام العالم والأمم » وانتشر فى أنحاء الممالك الإسلامية الدانية والقاصية ، فكان موضع إعجاب القارئين من علماء المسلمين وطلابهم الكثيرين » .

« وقد اطلع أحد المشتغلين بالبحث والاستنتاج على هذا الكتاب الثمين فعنّ له سؤال بعث به إلى أصحاب « المقطم » ليجيبوا عنه أو ليوجهوه إلى مؤلف الكتاب حتى إذا اطلع عليه أجاب بما عرف فيه من قدرة واطلاع .

وقد تصدى أصحاب « المقطم » للرد على السؤال . وقرأ الأستاذ فى مجلة « المقتطف » السؤال والجواب ، فرأى من الواجب عليه أن يكتب مقالة يميط بها عن الحقيقة الحجاب ، وبعث بمقاله إلى أصحاب « المقتطف » عن طريق أناس من ذوى الجاه ، فوعدوهم وعداً حسنا ، ولما أن مضى الميعاد وظهر « المقتطف » فى الشهر الحالى وجده خاليا مما كتب مخالفاً للوعد . فلم يجد الأستاذ مندوحة عن بيان الحقيقة الناصعة بيضاء للناظرين . فأرسل إلينا بصورة مما بعث به إلى الدكاترة ، وطلب منا نشره ، ونحن مع أسفنا لظهور حضرات أصحاب « المقتطف » و « المقطم » بمظهر الناكثين للعهود نجيب حضرته إلى طلبه بكل ارتياح ونقول له : لا يحزنك يا فيلسوف مصر ما وجدت من دكاترة سوريا من المراوغة والمطل وخلف الوعد ؛ فإن من راوغ أمة كاملة ما ينيف عن ربع قرن لا يعز عليهم أن يراوغوا واحداً من كبار هذه الأمة ، وإن كان من كبار علمائها ومفكريها . وهذا نص المقالة التى أبى حضراتهم نشرها بعد أن وعدوا به . . . » .

ثم أخذت جريدة « مصر الفتاة » فى نشر المقال . ولما كان المقال طويلا ويمكن أن يكون رسالة فى مذهب داروين أو دائرة الوجود فى الشرق والغرب . ولما كان لهذا المقال من أهمية كبيرة رأينا أن ننشره بحذافيره فى الجزء الثانى من الكتاب فى الفصل الخاص بـ « مقالاته المتناثرة » مصدراً بخطاب الشيخ طنطاوى لأصحاب مجلة « المقتطف » .

الفصل الرابع

العالم الإسلامى

منهجه فى الإصلاح الدينى :

ليس التفريق بين ما هو من السياسة ، وما هو من الإصلاح - بالأمر الهين ، بل إن التفرقة تكاد تكون تفرقة تعسفية ؛ فكل حركة إصلاحية تخدم هدفاً سياسيا فى حقيقة الأمر ، وكل منهج سياسى يمكن وصفه بأنه حركة إصلاح تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية ، والذين يعملون فى الميدانين إنما يعملون فى الحقيقة فى ميدان واحد هو ميدان الوطنية .

والمشكلة الكبرى التى تواجه كل سياسى وكل مصلح هى كيف تخلق أمة قوية راقية فى هذا المجتمع ؟ وهذا هو ما ندركه بعمق فى كل ما قام به مصلحونا فى مطلع هذا القرن ؛ فلم يقف أحدهم عند الإصلاح الدينى فحسب ، بل جرّه هذا الإصلاح إلى الاشتراك فى ميدان الوطنية ، وبخاصة إذا كان المصلح من أصحاب العبقرية الموهوبة المطبوعة على أداء رسالتها فى عالم العقيدة والإيمان .

وهذا هو الشيخ طنطاوى جوهرى لم يكافح ويناضل فى سبيل سمو مبادئ الإسلام وقواعده فحسب ، بل كافح وناضل عن القضية المصرية بما يشهد له بأنه كان من أخلص أنصار القضية المصرية ، وفيما خلف وراءه من الأناشيد الوطنية وكتابه « نهضة الأمة وحياتها » الذى نشره فى جريدة « اللواء » أيام مؤسس النهضة الوطنية الزعيم مصطفى كامل - ما يشهد له بصدق النظر وقوة الإيمان فيما ندعو إليه ؛ حتى أطلق عليه العلامة « سانتيلانة » الإيطالى أنه أحد رؤساء الحركة السياسية والاجتماعية التى انتشرت فى طبقات الشعب الإسلامى[1] .

---

(١) انظر «فى ذكرى طنطاوى جوهرى» للأستاذ على الجمبلاطى ص ٣٧/٤٨ .

ولعل فيما قدمنا من سيرته ما نلمس فيه وطنيته بجانب أنه كان داعية الإسلام فى الشرق الناهض ، ولعلنا حين نستعرض ما اقترحه للإصلاح العام نلمس جمعه بين الوصفين وقيامه بالنهضتين ؛ فهو يرى أن الإصلاح ينهض على أربع دعائم ، ويوجه قادة الشعب إليها فيقول :

١ - أن يسرع قادة الشعب فى تعميم مزج علوم الحياة بالدين حتى يطمئن المتدين إلى النظر فى هذا العالم ، ويعشق العلوم عشقاً قلبيا .

٢ - أن تعمم آداب الدين الإسلامى التى حصرها الإمام الغزالى فى سبعمائة وخمسين آية بين مشايخ الصوفية حتى يقتربوا من إخوانهم طالبى علم الدين ، ويقودوا الشعب إلى المدنية والعلم .

٣ - أن يشجع قادة الأمة الصناعة والصناع بترويج ما صنعوا وإطرائه والإقبال عليه .

٤ - العناية بشعراء الربابة الذين يقصون أقاصيص خيالية تأخذ بألباب العامة على أن تهذب تلك الروايات ، وتتحول إلى ما نحتاج إليه من الأخلاق الفاضلة وحب العلم ورقى الأمة فسلطان هؤلاء على العامة كسلطان رجال الدين ورجال الصوفية على الباقين .

وهذا المنهاج يدلنا على ما سلكه الشيخ طنطاوى وأمثاله من المصلحين فى هذه الفترة من أمثال الأستاذ الإمام محمد عبده والكواكبى وعبد العزيز جاويش وغيرهم من دعاة الإصلاح الدينى . ويقول البارون « كاراه دى فو » فى كتابه « مفكرو الإسلام » فى الفصل الذى يبين فيه المظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديثة : « منها العناية الشديدة التى أظهرها رجلان من رجال الدين وهما الشيخ محمد عبده والشيخ طنطاوى جوهرى فى تمثيل الدين الإسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث »

وأيد ذلك العلامة « تشارلس آدمز » فى كتابه « الإسلام والتجديد فى مصر » حين ترجم للشيخ طنطاوى ككاتب له مؤلفات كثيرة فى نصرة الدين والدفاع عنه وأنه أحد الرواد الذين عملوا على التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى وبين الحياة الاجتماعية والدينية فى مصر ، وجعلوا لكيان ذلك كله طابعاً إسلاميا صحيحا .

ولعلنا نجد المشابهة واضحة بين رأيى الشيخ طنطاوى والشيخ محمد عبده إذا رجعنا إلى أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد فى كتابه عن « محمد عبده » ثم نرى ما قرره الشيخ طنطاوى لهذا الإصلاح ؛ فإنه يرى أنه يجب أن يدرس الأزهر مبادئ تخطيط البلدان وسير مشاهير الرجال مما يدعو إلى علو الهمم ، ثم دراسة السيرة النبوية بعد استخلاصها وإظهار ما يستوجب إعظام نبينا ومعرفة شجاعته وسياسته ، وجمع الأحاديث الصحيحة التى لها مساس بالاجتماع والحياة والرقى واستبدال بعض كتب المتأخرين بكتب الأقدمين ، ودراسة مبادئ التاريخ الطبيعى وشرح الآيات به ، وكذلك

مبادئ علم الهيئة بعد أن ينقّى مما اختلط بعلم التوحيد مما ينافى الدين ، وكذلك مبادئ قانون الصحة ، ثم أراد تشكيل لجنة من ذوى الرأى للنظر فى المعاملات والأحكام واستخلاص قانون مسنون من المذاهب الأربعة يلائم هذا العصر يستبدل بالقانون الأوربى ، ثم طالب له بالمال من الحكومة والأوقاف وأغنياء الأمة .

ثم هو يقوم بدور المدافع عن الدين الإسلامى حين رد على ما يدور فى أنحاء أوربا والشرق من أن المسلمين متعصبون ودينهم ينفر من المدنية والحضارة وعلوم العمران ، وأنهم ظالمون للنساء متباعدون عن الأعمال ، يأمرهم دينهم بالكسل ، وينهاهم عن العمل ، وأنه يبيح الرق ، وأنه يجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب الذين لا تتسع صدورهم لأى تسامح وهذا كله ترديد لما قاله « كرومر » من أن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعى !

وقد ردّ الشيخ طنطاوى على كل ذلك فى كتابه « نهضة الأمة وحياتها » ردًّا مفحماً مؤيداً بالآيات القرآنية والتاريخ الحديث والقديم ، وقرر أن نهاية أبحاث علماء العمران فى هذا العصر بداية علوم الإسلام لا المسلمين فى القرون الحالية .

وتحدث الإمام محمد عبده عن الرشوة ، وكذلك فعل الشيخ طنطاوى حين ندد بالمرتشين بشتى الصور ، وتحدث عن الرشوة فى الشرق وفى الغرب ، وتناول الحديث عن الزكاة والحكمة منها ، وأن الرشوة قلبت الأمر فأدلى الفقراء بأموالهم إلى الأغنياء والحكام !

وتحدث الأستاذ الإمام عن البدع والضلالات ، ونرى الشيخ طنطاوى يتناول فى كلامه عن العقول والأوهام بعدم تصديق ما ينشره الدجالون والمشعوذون من أفكار خاطئة عن التنجيم والعفاريت والإخبار بالغيب .

ولما كانت « الفتوى الترنسفالية » مثار ما كتبه الشيخ الإمام فى لبس القبعة وأكل طعام أهل الكتاب وأداء الصلاة وراء كل إمام يدين بالإسلام . كانت « الرسالة القازانية » مثار إجابة الشيخ عن سؤال أحد شبان القازان الذى يقول : « هل علماء الإسلام المتقدمون بلغوا النهاية من مباحث الإسلام فلا تثريب علينا إذا نحن سكتنا وتوقفنا عن التفكير بعدهم ، أو أن الأولين تركوا للآخرين مجالاً للبحث والتنقيب والتفكير فى أمر الدين ؟ » فسكت الشيخ طنطاوى مليا ثم قال : « أنا لا أنشر شيئا لقوم جبلوا على التقليد وأخاف – إن قلت الحقيقة – أن عامتهم تثور ، فتحبط العمل » . فردَّ عليه الشاب وقال : « ولمن تعطى العلم إذن يا سيدى ؟ » ، فحمله ذلك على أن يؤلف الرسالة القازانية فى ثلاثة أيام ، وهى عبارة عن ثلاث مقالات من خير ما كتب عن العلوم التى نسبها الغربيون إلى أنفسهم ، وهى داخلة ضمن فصول كتابه « نهضة الأمة وحياتها » فليرجع إليها من يشاء .

وقد دعا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى تعلم اللغات الأوربيـة ، وكذلك دعا الشيخ طنطاوى إلى تعلم اللغات الأجنبية مؤيداً دعوته بالبراهين .

وهنا تقتضينا الأمانة الأدبية أن ننقل عن لسان نجل الشيخ طنطاوى جوهرى السيد المهندس جمال الدين ما قاله لنا بشأن هذه المقارنات بين الشيخ طنطاوى والشيخ محمد عبده : إن الشيخ « محمد عبده » يرى تطويع الدين للدنيا وكان يعمل على أساس أنه مصرى ، أما الشيخ طنطاوى فكان يرى أن الدين هو السياسة والوطنية والعلم ، وكان لا يرى إلا أنه صاحب رسالة عليه أن يؤديها مهما كانت النتائج حتى لو عادت عليه بالضرر ! وكان يعمل على أساس أنه مسلم فهو يعمل للمسلمين جميعا ، وكان يرى أن السلام : فلسفة ، علم ، دين ، وسياسة .

من كل ما قدمنا نريد أن نثبت أن الشيخ « طنطاوى » كان من مدرسة الإمام ، ومن العاملين المفكرين المؤمنين بفريضة الإصلاح ورسالة التقدم ، وكان مثله يكافح الجمود من جهة ويكافح التفرنج الذميم من الجهة الأخرى . وقد سلك سبيل خدينه فى الدعوة الإسلامية ، فحارب أولاً ما استولى على المسلمين من ضعف وفتور العزائم والانصراف عن الدنيا ، وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستعباد بمقالاته وكتبه وخطبه ثم خروجه على الناس بحملة تقدمية كبيرة فى تفسيره العلمى ، ثم برده على ما يتهم به الإسلام من أنه دين متخلف ، ثم بمشروعه الذى تقدم به لإصلاح الأزهر ووصله بالحياة المعاصرة ، ثم بتلك الفتاوى التى كان يرد بها على كل من سأله فى مشكلات الدين سواء فى الدروس أو فى الصحف ، وكذلك آراؤه التى كان يذيعها عن طريق ندواته التى كان يعقدها فى منزله أو فى منازل مريديه أو الجمعيات التى يعمل بها ، ثم اتصاله بالشرق عن طريق كتبه الدينية التى ترجمت إلى كل اللغات الشرقية ، ثم كتاباته لكل علماء العالم وعظمائه فى الشرق والغرب . واتصاله بكل وافد شرقى وبالشبيبة من أبناء الشرقين الأوسط والأقصى فى جماعة الأخوة الإسلامية كما قدمنا كل هذه الوسائل التى سلكها المفكر الإسلامى العبقرى وغيرها جعلته على رأس القائمة حين يُذكر « دعاة الإسلام » ، فهو مسلم ارتفع إسلامه الحنيف عن القعود والتواكل ، وعن خزن ما فى صدره ؛ فعمل حتى لم يبق بلد شرقى يجهل مؤلفاته :

فى اليابان يتردد اسم طنطاوى جوهرى ويتدارس فقهاؤهم كتبه ، وكانوا يبعثون إليه فى طلب زيادة الرىّ منها .

وفى الصين يأتم جميع المسلمين فيها بكتبه ، وفى الهند يضع المسلمون من أهلها مؤلفات الشيخ طنطاوى موضع السند يعودون إليها كلما اختلفوا ويرتوون منها ما احتاجوا فيه إلى الرأى الثاقب .

وفى أفغانستان وإيران والعراق ومصر والشام والحجاز واليمن وما وراء هذه البلاد وما بعدها من

الأمم المسلمة فى المشرق والمغرب يعرف الناس ما كان للشيخ طنطاوى من فضل مشكور وجهاد مبرور [١] .

الشيخ طنطاوى فى صحف الهند :

نشرت جريدة « اللواء » فى عددها الـ (٣٢٦٠) الصادر فى يوم الخميس ٢٨ من أبريل سنة ١٩١٠ تحت العنوان السابق ما يلى :

« لما كان مسلمو الهند الذين يبلغون ستين مليونا من النفوس قد أخذوا ينهضون من سباتهم العميق وابتدءوا فى حركة الرقى والإصلاح ، وأخذوا يجدون فى العلوم الدينية والعصرية وكانت لغتهم هى « الأوردية » تطلعو إلى قبلة يؤمونها ووجهة يولونها فلم يجدوا بلداً عربيا غاصًّا بالعلماء مثل القطر المصرى ، فولوا وجوههم شطره . وبينما هم يرتقبون عالماً مصريا يشبه الإمام السيد « أحمد خان » يتلقون عنه العلم - إذ ظهر الشيخ الإمام محمد عبده ، فتلقفوا كتبه بشوق عظيم ، وودوا لو يطول عمره ، وتكثر تصانيفه . فلما غادر الدنيا ولقى ربه مع قلة تصانيفه صادفتهم كتب الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى ، فألفوها تضارع كتب الشيخين وتنهج نهج الإمامين ، فاستبشروا ، وتلقوها بالسرور وتلقفوها بالفرح ، وأخذوا يترجمون وينشرون ما ظهر من كتبه ، وكأن الله عز وجل عوّضهم مما فقدوه من كتب الإمام الشيخ محمد عبده بوفرة كتب الشيخ طنطاوى جوهرى . وكلما نشروا كتابا منها أخذوا يسألون عن غيره حتى وصل لهم كتاب « نهضة الأمة وحياتها » ، فأخذت تترجمها جريدة « وكيل » التى تصدر فى « أمرت » من بلاد « البنجاب » بالهند ، وقرظته جريدة « بيه أخبار » اليومية التى تصدر فى مدينة « لاهور » بعددها الصادر فى ١٥ من مارس الماضى عام ١٩١٠ تحت عنوان « المقالة الخاصة » .

قالت ما ترجمته : وصلنا كتاب « نهضة الأمة وحياتها » الذى صنفه الفاضل المصرى الشيخ طنطاوى جوهرى الشهير فأنعمنا فيه النظر ، فألفيناه قد ابتدأ الكتاب بالمبادئ والمقدمات اللازمة لرقى الأمم من الروحانيات ، ثم أتبعه وجوب وجود رجال عظماء للأمم النائمة الساهية ليوقظوها من سباتها وينشروها بعد موتها . وأخذ يشرح عناصر الإصلاح المكونة للأمم من الحرية والمساواة وتعليم العلوم والصناعات ، وطفق ينقد علماء العصر الحاضر الذين يمنعون المتعلمين من التغذى بلبان العلوم الحديثة باسم الدين !

ثم عقد فصلاً خاصا بين متعلم أزهرى وعالم عصرى ، وأخذ يشرح المقدمات ويستنتج النتائج

---

(١) عن «فى ذكرى طنطاوى جوهرى» ص ٤٨/٥٠ .

بعبارة حسنة جميلة رائعة تأخذ بالألباب ، وانتهت باتحاد المتناظرين على أن العلوم العصرية لا تفسد عقائد الدين ولن تفسدها إلاّ الآثار الناقصة المشوهة من فلسفة اليونان المتخللة كتب الدين .

واتفق المتناظران على وجوب قراءة العلوم الحديثة جميعا فى الجامع الأزهر .

وبعد أن فرغ من الإصلاح الأزهرى ألقى نظرة إلى الأمم الحاضرة ومدنيتها ، فبسط الكلام فى عناصر المدنية وقوانينها وأحوالها العامة وقارن مصر بتلك العناصر ، وأسف أشد الأسف على بلاده وتمنى رقيها السريع فهو مغرم برقى بلاده كما هو مغرم برقى الأزهر . وشرح الثانية كما شرح الأولى ، ووصف داءها ودواءها وصفا شافيا مما دل على إخلاصه وحبه لبلاده حبًّا جمًّا .

ثم أخذ يحلل بعد ذلك بطريق عجيب وأسلوب غريب مدهش كثيراً من الأخلاق والآداب والآراء بعبارات غاية فى الحسن والإتقان حتى إننا لم نملك أنفسنا عند قراءتها أن نقول « واه . واه » ثم قابل بين المشرق والمغرب بطريق عجيب غريب ، وأثبت بالأدلة الفلسفية والبراهين العقلية أن لا حياة للأمم إلاّ بالأحكام الدستورية ، وأن ذلك ناموس طبيعى يشابه تمام المشابهة لنظام الجسم الإنسانى . وعزّز رأيه بالقرآن والتوراة ، ثم أردفه المؤلف بمقالات كثيرة أظهر فيها قوة وغزارة علمه وتوفر مادته مما لم يجاره فيها أحد من الكتاب قبله ، ثم أتبعه الكلام فى مسألة الرق فى الإسلام بنهج عظيم رقيق ، فبين كيف ابتدأ الرق فى الإسلام ؟ وما فائدته ؟ وعلى أى مقصد أسس بنيانه ؟ وما فوائده العظيمة للأمم السالفة ؟ وأن الرق فى الإسلام عبارة عن مدرسة جامعة يحشر فيها أبناء الجاهلية فيتعلمون ويصيرون علماء وملوكا (ككافور الإخشيدى وابن طولون والمماليك) فهو معهد علمى تربى فيه ألوف من أبناء الفقراء والمساكين من الأمم الوحشية ، وأبان أنه لا سبيل لإصلاحهم بغير هذه الوسيلة .

والخلاصة أن هذا الكتاب فى محاسنه وبدائعه ليس له نظير . ولقد كنا ونحن نقرؤه ونزن قوة المؤلف وغزارة مادته نتذكر الإمام الغزالى فى فصاحته وبيانه وقوة إقناعه فى مصنفاته فتبارك الله رب العالمين » اهـ .

وإنا نرجو من الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى أن يجعل حياته وقفا على تصانيفه ؛ فإن « ملايين » من الأمم الإسلامية تتشوق لهذه الكتب فلا يحرمها مؤلفاته كل حين . ولا يسعنا إلاّ أن نحث علماء مصر على اختيار هذا الطريق لخدمة الأمم الإسلامية وإحياء الإسلام والعلوم .

عبد الحق الشاه نورى الهندى

وقد نشرت هذه المقالة جريدة « العلم » كما نشرته جرائد ومجلات هندية أخرى .

ويُعدّ هذا المقال نموذجاً لما نشر من هذا القبيل مما يدل على ما كان للشيخ طنطاوى من مركز كبير لدى الصحافة الشرقية والعالم الإسلامى .

مع السيدة جلنار :

هى مدام ليديف المستشرقة الروسية ، وتتقن أربع عشرة لغة منها العربية والإنجليزية والفرنسية والنمساوية والتركية والفارسية والروسية التى هى لغتها الأصلية .

جاءت هذه السيدة إلى مصر عام ١٩٠٦ ، وطلبت من نظارة المعارف أستاذاً عالماً بالتصوف ، فأرسل فخرى باشا ويعقوب باشا أرتين إلى الشيخ طنطاوى وطلبا منه أن يذهب إليها . . يقول الشيخ طنطاوى :

« توجهت إليها فوجدتها جالسة مع الوقار والأدب والكمال ، وأخذت تحدثنى باللغة العربية عن عالم الروح وما وراء الطبيعة وأقوال الأمم من شرقيين وغربيين فى ذلك ، وكانت تبتدئ بالقول على نهج الأوربيين تارة وحكماء الهند أخرى ، وفلاسفة اليونان تارة والعرب أخرى » . . وما ولجت باباً إلاّ قال لها الأستاذ : لقد طالعت هذا فى كتاب كذا من الكتب العربية كالأسفار للشيرازى ، والمواقف والإشارات لابن سينا ، والفارابى وابن عربى وغيرهما . ثم يأخذ فى الشرح ويفيض فيه حتى يلم بأقسام الموضوع الذى ابتدأته . . فدهشت السيدة وعجبت ، وكأن كلاً منهما لم يكن ليعلم أنه يلاقى من يشاكله فى هذا المجال . واستمرت هذه الجلسة ساعتين ونصف الساعة شرح لها فيها الكثير من الرسالة القشيرية .

قالت مدام ليديف للشيخ طنطاوى : إن لها أستاذاً بألمانيا يسمى ماركس ، وهو الذى أمرها بترجمة « الرسالة القشيرية » إلى اللغة الفرنسية لتعم أرجاء البلاد الأوربية ولتكون ذكرى لها بعد موتها .

وفى أثناء ذلك جاءها خطاب من أستاذها الألمانى يسألها فيه عن الذى يساعدها فى الدراسة فقالت له : إنه « الأستاذ طنطاوى جوهرى » . فأرسل لها يقول : « سليه عن معنى العفّة وما معنى التوحيد ! » وظن الأستاذ أن ذلك لمجرد الاستفهام ، ولم يكن ليدور بخلده أنه امتحان وأن ذلك سوء ظن من الألمانى بالمصرى ، فقال لها : « العفّة هى التوسط فى المطاعم والمشارب والملابس والمساكن وكل ما حام حول حمى الشهوات البدنية واللذات الحسية : فإن مال إلى الزيادة سمى طمعاً وشرها ، أو إسرافا وتبذيراً ، وإن مال إلى النقص سمى بخلا وتقتيراً ، ونحو ذلك من الأسماء والصفات التى شرحها علماء هذا الفن . .

« أما التوحيد فهو أن الله عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو الحى القيوم الأزلى الأبدى الذى تجلى على الأكوان فأبرزها ، وعلى الحقائق الكونية فأظهرها . ألا وإن الخلق جميعا

سابحون فى بحار نعمته ، غارقون فى أنوار جلاله وجماله ، وما مثلهم مع الحق جل جلاله إلا كمثل النجوم مع الشمس ؛ فلئن ثبت وجودهن إن الشمس أحاطت بهن ، وهكذا . . »

فلما ردّت على أستاذها الألمانى بما سمعت من الشيخ طنطاوى جاءها الرد يقول :

« إن هذا الأستاذ عالم بالفلسفة اليونانية والتصوف ، ولكنه لو قرأ اللغة اليونانية لكان ذلك أحسن ، ولى عليه اعتراض : هو أن هذا التوحيد الذى ذكر يدل على أن الدين الإسلامى لم يُحَلّ وثاقه ولم يطلق عنانه ولم يتح له أن يجعل التوحيد أوسع مما قال ، ولِمَ لم يكن كالحلاج الذى فنى فى ذات الحق ، وأفنى الوجود كله فيه ؟ ولكن الذى منعه هو دينه دين الإسلام . إنه رجل مستنير فليدرس معك هذا العلم ، فإن الشيوخ الذين قابلناهم فى أوربا لم نر منهم من يعرف هذه العلوم » .

ولما قرأت هذا الجواب على الشيخ طنطاوى عرف أن الخطاب كان امتحانا ، وحضر إذ ذاك يعقوب باشا أرتين واطلع على الخطاب ، فاستغرق ضاحكا وقال : إن الشيخ « طنطاوى » يقول مانعقله مما لاتفهمانه أنت وصاحبك الألمانى عن وحدة الوجود !

ولما أرسلت لأستاذها أول جزء من الترجمة كتب إليها يقول مامعناه : « لم أر ترجمة فى اللغة الفرنسية الفقيرة أبدع ولا أروع مما جاء باللغة العربية الغنية التى أبرزت مافيها من المعانى وبيّنت » .

ولقد كانت هذه السيدة تعجب مما تسمع من آراء مشهورى الصوفية -كالجنيد وابن المبارك وأمثالها - ووجدهم لربهم ، وعشقهم للحضرة الإلهية .

حادثة الجنيد :

وذكر الأستاذ الشيخ طنطاوى أنهما كانا يقرآن فى حديث عن الجنيد إذ قال له تلميذه : « . . وقوله ينشد شعراً والتلاميذ طربون فرحون صارخون مُوَلهون بما طربوا وما استفزهم من المعانى البديعة والمغانى البهية » وتوقف التلميذ عن القراءة ثم سأل : « أليس لك فى السماع ياسيدى ؟ » فقال له الجنيد : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب » ا . هـ .

فسألته السيدة : مامعنى هذه الآية ؟

فأجابها : « إن المتقدمين كانوا يفسّرونها بأن الجبال يوم القيامة ستكون هباء منبثا كالعهن المنفوش والصوف المندوف ، فيرى الإنسان الجبال كأنها لعظم جرمها ثابتة ، مع أنها سريعة الحركة ، فأما المتأخرون من المسلمين فإنهم لما قرءوا الهيئة الجديدة ورأوا أن الأرض دائرة والجبال معها قالوا : وترى الجبال تحسبها جامدة ساكنة وهى تمر مع الأرض الجارية بحُسبانٍ حول الشمس ، والسحاب يدور حول الأرض ، وهكذا القمر ، ولذلك أعقبه بقوله صنع الله الذى أتقن كل شىء ، والإتقان ينافى

التخريب ، فلو أن ذلك كان يوم القيامة لم يسغ فى نظم البلاغة أن يقال : صنع الله الذى أتقن كل شىء ؛ ولكن يقال : إن بطش ربك لشديد ؛ لتكون الصفات مناسبة للمقام .

فقالت السيدة : إذن لقد كذب والله الأوربيون إذ يقولون : ليس فى الإسلام لطائف وبدائع ورموز ! وظهرت عليها الدهشة ثم قالت : فهمت معنى الآية . وماقصد الجنيد إذن ؟

قال الشيخ : إن الجنيد يقول ، مامثلى إلاّكمثل الجبل يرى ساكناً وهو فى الحقيقة متحرك ، جار أسرع من الهواء والطير والسحاب : فقلبه جائل فى المعانى ؛ وجسمه ثابت كالجبال الرواسى : فالطرب والحركة للقلب ، والسكون للجسم .

* * *

وسألته السيدة جلنار يوماً مامعنى البيت الذى يقول :

وأسكَرَ القومَ دور كأسى وكان سكرى من المدير

فقال : إن هذه على عادة أهل الحانات ، يجلسون وأمامهم ساقٍ يسقيهم فيقول : إن كأس الخمر أسكرت القوم ، أما أنا فما أسكرنى إلاّساقيها والخمر هنا هى المعارف والعلوم واللطائف والفتوح الربانية ، والمعانى البديعة المنزلة على قلوب العباد المخلصين لربهم ، أما الساقى فهو مُنزل تلك العلوم على الأفئدة والمتجلى بنوره على القلوب ، والمشرق شمسه على بصائرهم . فيقول : إن الناس يسكرون للمعانى العلمية واللطائف الربانية ، أما أنا فاستغراق فى جمال جلاله ، وعشقى لذات جلاله . فلامعشوق إلاّ الله ، ولامحبوب لى سواه .

إذا كان هذا الكون يكلؤه الذى براه فأولاه الجمال وتمما .

فماذا يراه عاقل غيرَ أنه قصور جنان الخلد رصعن أنجما

فنظرت إليه وقالت بتحسر وتأسف : « ليتنى كنت شيخا » .

وكانت تأنس إليه وتستشيره فى كثير من الأمور ، بل كانت تصلى معه الصلاة السرية كالعصر والظهر ، وكانت تفخر به كأستاذ لها ليس له نظير .

الفصل الخامس

منهج الشيخ طنطاوى
فى تفسير القرآن

لعل من أكثر من ركّز على كونيات القرآن فى العصر الحديث أستاذنا الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره «الجواهر» فلقد توسع فى مجال التفسير العلمى ، وقرر أن القرآن يحوى كل العلوم ، وأنه يشير إلى جميع مسائلها ، ولعله تأثر بأستاذه الإمام الغزالى الذى ألف كتابه «جواهر القرآن» وخصص منه باباً يبين فيه كيف تشعبت العلوم كلها من القرآن . ويريد بالعلوم - العلوم الدينية والدنيوية واللغوية ، والعلوم التى كانت واندرست ، والعلوم التى هى كائنة ولا يعرفها الناس ، والعلوم التى ستكون فيما بعد ؛ ثم يعقب بأن هذه العلوم - ما عددناها وما لم نعدها - ليست أوائلها خارجة عن القرآن ؛ فإن جميعها مغترفة من بحر واحد ، من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه لا ساحل له ، إن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ! وعرض فى بيان أفعال الله ، والحاجة فى فهمها - إلى مختلف العلوم كفعل الشفاء والمرض لا يفهمان إلا بالطب ، وفعله فى تقدير الشمس والقمر ومنازلها بحسبان لا يعرف إلا بالهيئة ، إلى أن يشير أخيرا إلى أنه لو ذهب يفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها[1] .

ولعل شيخنا «طنطاوى» تأثر كذلك بآخرين من قدامى المفسرين من أمثال : الفخر الرازى صاحب «مفاتيح الغيب» المشتهر «بالتفسيرالكبير» ، والبيضاوى صاحب التفسير المعروف بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ؛ ونظام الدين القُمِى النيسابورى صاحب التفسير المعروف بـ «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» ؛ والإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى صاحب كتاب «البرهان فى علوم

---

(١) انظر (جواهر القرآن) للغزالى ص ٣١/ ٣٤ .

القرآن» ؛ وجلال الدين السيوطى فى كتابه «الإتقان فى علوم القرآن» ، وفى كتابه «الإكليل فى استنباط التنزيل» ، وفى كتابه «معترك الأقران فى إعجاز القرآن» ؛ والراغب ، والأصفهانى ، وأبى بكر بن العربى . . .

ولقد كان تفسير الشيخ طنطاوى - الجواهر - تفسيراً عجيباً حقا ، تنقل فيه بين فنون من العلوم والمعارف ، يعجب القارئ لإلمامه بها على تفاوت ما بينها . وكان عملاً رائعا لم يظفر التاريخ الإسلامى منذ قرون خلت بمثله . وأما المنهج الذى انتهجه فى هذا التفسير فلن يصل إليه إلا الأفذاذ من أهل العلم وأصحاب العقول الراجحة .

وكان الشيخ طنطاوى عالماً علماً ، وعاملاً مخلصاً ، ينتمى إلى جيل من الرواد الذين امتازوا بما لم يسبقهم إليه غيرهم : سعة أفق ، وبسطة فى العلم ، وشمول نظرة ، وإحاطة وقدرة على الاحتواء ، ورسوخ فى الإيمان ، يضاف إلى ذلك كله الموهبة التى منحه الله إياها . .

وفى مقدمة تفسيره يتحدث عن البواعث التى دفعته إلى تأليف هذا التفسير ، ويقول : «أما بعد» فإنى خلقت مغرماً بالعجائب الكونية ، معجبا بالبدائع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما فى السماء من جمال ، وما فى الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات ؛ ثم إنى لما تأملت الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية ألفيت أكثر العقلاء وبعض جلّة العلماء عن تلك المعانى معرضين وعن التفرج بها ساهين لاهين ؛ فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم ، وما أودعت من الغرائب ، فأخذت أؤلف كتبا لذلك شتى : كنظام العالم والأمم ، وجواهر العلوم ، والتاج المرصع ، وجمال العالم ، والنظام والإسلام ، ونهضة الأمة وحياتها ، وغير ذلك من الرسائل والكتب ؛ ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية ، وجعلت آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع ، وحكم الخلق . .»[1]

وكان مسلكه فى هذا عن طريق النظر فى آيات الكتاب الكريم والتدبر فى معانيه على أساس ما كان يتلقاه من إلهام ، وما كان يراه بعين بصيرته ؛ فهو يصرح بأن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمر به بطريق الإلهام ، وأيقن أن له شأنا سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهم أسباب رقى المستضعفين فى الأرض .[2]

وسمّى الشيخ طنطاوى تفسيره «الجواهر فى تفسير القرآن الكريم» ، لأنه يجعل الجوهرة بدل الباب أو الفصل ، والجوهرة يتفرع عنها الماسة الأولى والماسة الثانية وهكذا . .

وطريقته فى تفسير القرآن أن يبدأ بالتفسير اللفظى للآيات التى يعرض لها ، ثم يتلوه بالشروح

---

(١) الجواهر فى تفسير القرآن الكريم الجزء الأول ص ٢ .

(٢) المرجع نفسه جزء أول ص ٣ .

والإيضاح والكشف : أى أنه يشرع متوسعاً فى الفنون العصرية المتنوعة .[١]

غير أن بعض العلماء فى هذا العصر لم يرض عن هذا اللون من التفسير ، ولم يستسغ أن يُشرح به كتاب الله تعالى ، وراح يرد هذه الفكرة على أهلها ، ويتناولها بالنقد والتفنيد ، وينعى على من تأثروا فى تفسيرهم بنزعاتهم العلمية . ويعد هذا صارفاً يصرف الإنسان عن القرآن وهديه ، ويخرج به عن قصده ، وينحرف به عن هدفه . .

ونجد هذه المعارضة فى كثير من المحاورات والاعتراضات التى وجهت إلى الشيخ طنطاوى ، وذكرها لنا فى تفسيره ، وكثيرا ما نجده يخاطب الأمة الإسلامية وعلماءها خطاباً يدل على الإشفاق والغيرة والإخلاص . وإننا نراه يلوم المسلمين لأنهم اهتموا واعتنوا بالفقه واختلاف الفقهاء وآيات الأحكام قليلة جدًّا ، ولم يهتموا بالعلوم ، والآيات الدالة عليها كثيرة جدًّا فى القرآن ، فهو يقول : «لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية فى علم الفقه ، وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية ؟» ويقول : «لماذا كثر التأليف فى علم الفقه وقلّ جدًّا فى علوم الكائنات التى لا تخلوا منها سورة ، بل هى تبلغ (٧٥٠) آية صريحة ؟ وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة . فهل يجوز فى عقل أو شرع أن يبرع المسلمون فى علم آياته قليلة ويجهلوا علماً آياته كثيرة جدًّا ؟»[٢] .

«إذا نحن رجعنا لرأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى هذا اللون من التفسير نراه يقول ، وفيه تأييد لمنهج الشيخ طنطاوى جوهرى :

«للتفسير مراتب أدناها : أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير ، وهذه هى التى قلنا : إنها متيسرة لكل أحد (ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ٥٤ : ١٧)»[٣] .

ثم يقول : «وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور» . . ومن تلك الأمور التى نوّه عنها «علم أحوال البشر ؛ فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب ، وبيّن فيه ما لم يبينه فى غيره : بيّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية فى البشر ، قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسِيَرها الموافقة لسننه فيها ؛ فلابد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشئ اختلاف أحوالهم : من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم

---

(١) انظر «اتجاهات التفسير فى العصر الحديث» للدكتور عبد السلام المحتسب ص ٢٧٢ طبعة بيروت ١٩٧٣ .

(٢) الجواهر ، الجزء ٢٥ ص ٥٣ وما بعدها .

(٣) «تفسير المنار» جزء أول ص ١٩ (الهيئة المصرية العامة) ١٩٧٢ .

بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ؛ ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه»[١] .

ويقول الأستاذ الإمام : «أنا لا أعقل كيف يمكن أى أحد أن يفسِّر قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ٢ : ٢١٣) الآية - وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ؟ وكيف تفرقوا ؟ . وما معنى تلك الوحدة التى كان عليها ؟ . وهل كانت نافعة أو ضارة ؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم ؟ . .

«أجمل القرآن الكلام عن الأمم ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شىء علما ، وأمرنا بالنظر والتفكر ، والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالاً ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة»[٢] .

فهل خرج الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره عن هذا الخط ؟

وهل خرج تفسيره «الجواهر» عن هذا المعنى ؟

يقول الأستاذ الإمام : «إن التفسير قسمان : أحدهما جاف مبعد عن الله وعن كتابه ، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية ، وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيراً ؛ وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون كالنحو والمعانى وغيرهما ؛ والآخر هو التفسير الذى قلنا : إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية وهو الذى يَستجمعُ تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها ، وهو ذهاب المفسِّر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ؛ ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوهما من الأوصاف ؛ فالمقصد الحقيقى وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن . . وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير»[٣] .

نقول : وهذا هو المنحى الذى نحاه هو نفسه الشيخ طنطاوى فى تفسيره بل وزاد عليه فهو يقول : «يا أمة الإسلام ، آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها . . هذا زمان العلوم ، وهذا زمان ظهور نور الإسلام ، هذا زمان رقيه يا ليت شعرى ! لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث ؟

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢١ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢ .

ولكنى أقول : الحمد لله ، الحمد لله ، إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم ودراساتها أفضل من دراسة علم الفرائض ، لأنه فرض كفاية ، فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله وهى فرض عين على كل قادر . . إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام ؛ فهذا زمان الانقلاب ، وظهور الحقائق ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

وهكذا نجد أستاذنا الفيلسوف الإسلامى الشيخ طنطاوى جوهرى يفسر آيات القرآن تفسيراً علميا يقوم على نظريات حديثة ، وعلوم جديدة ، لم يكن للعرب عهد بها من قبل ؛ فهو يقود المفسرين الذين يأتون من بعده إلى أفضل طرق التفسير ، كما فاق من سبقه فى ذلك ؛ فأنت ترى الفلك والطب والهندسة والسياسة والاجتماع وكل علم ما فى السماء والأرض ، وكل ما انتهت إليه الثقافة فى مختلف عصورها من أول عهود الثقافة إلى الآن ، من عهد « أفلاطون » إلى عهد « كانط » - كل أولئك مذكور فى هذا التفسير بأجلى بيان ، موضح بأعظم توضيح ؛ ولا غرو فالأستاذ يفيض علماً ونوراً ، لأنهما يصعدان عن علم عامل بما يقول ، وعن عقيدة هى بقية من بقايا السلف الصالح المختار .

ومن العجيب أن كل من تصدى لتفسير القرآن تفسيراً علميا فى هذا الزمان لا يذكر الرائد الأول فى هذا المجال وهو الشيخ طنطاوى ، ولا تفسيره العظيم الذى نحن بصدده ؛ لذا نرى من واجبنا أن نستحث الهيئات الإسلامية لعل واحدة منها - كمجمع البحوث الإسلامية أو غيره - تتبنى إعادة طبع هذا التفسير الجليل الذى فاق سواه بما جمع من شتى النواحى العلمية والكونية ؛ لينتفع به المسلمون فى جميع بقاع العالم .

ومن المفيد أن نشير هنا إلى مقال قيم كريم منصف نشره الكاتب الفاضل الأستاذ رجاء النقاش فى هذا الصدد بمجلة « المصور » بتاريخ ٣ من نوفمبر عام ١٩٧٢ بعنوان « تفسير للقرآن بالخرائط والصور » جاء فيه :

« . . ولقد كانت أبرز وأغرب محاولة فى مجال إزالة التناقض بين القرآن والعلم هى المحاولة التى قدمها الشيخ طنطاوى جوهرى أحد علماء الدين البارزين وواحد من المفكرين النابغين فى هذا العصر برغم أنه لم يحظ بما يستحق من الدراسة والاهتمام لا فى حياته ولا بعد وفاته . وقد أصدر تفسيراً كاملاً للقرآن سنة ١٩٢٣ فى ستة وعشرين جزءاً وسماه « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » .

وتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى للقرآن أعجب تفسير قرآنى عرفه العقل العربى على الإطلاق ؛

---

(١) تفسير الجواهر - جزء ثالث ص ١٩ .

فالتفسير كله ينادى بأن القرآن يطلب من الإنسان أن يتوسع فى شتى أنواع المعرفة وأن ينظر فى كل العلوم نظرة عميقة ؛ ولذلك استعان الشيخ طنطاوى فى تفسيره للقرآن بصفحات كاملة من صور التشريح والحيوانات والنباتات والخرائط ، كل ذلك ليثبت أن القرآن يدعم الروح العلمية ويؤكدها ، ويدعو إليها دعوة عميقة وصريحة . ويقول الشيخ طنطاوى جوهرى فى مقال له مبرراً اتجاهه فى النظر إلى القرآن : «إن قراءة التشريح والطبيعة والكيمياء وسائر العلوم العصرية ودراسة الحيوان والنبات والإنسان أجل عبادة ولولا قصور علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون وما أحاطت بهم عاديات الدهر ، ولا أصابتهم كوارث الحدثان ! »

«وهكذا يرى الشيخ طنطاوى جوهرى أن الإسلام يدعو إلى العلم ويؤكد الروح العلمية ، وأن القرون الماضية قد أدت إلى تدهور المسلمين بسبب «قصور علمائهم» وما أصابهم من تأخر فكرى كبير . ويقدم لنا الشيخ طنطاوى تفسيره للقرآن - على أساس منهج محدد ، فآيات القرآن تدفعنا إلى التفكير والتأمل ، وهو فى تفسيره للقرآن - يفكر ويتأمل بوحى من هذه الآيات ، وهو لا يقول أبداً بأن النظريات العلمية جاءت فى القرآن الكريم ، ولكنه يقول : إن اكتشاف قوانين الطبيعة وأسرار الكون أمران يحث عليهما القرآن ، ويدعو إليهما دعوة صريحة قوية ، وهو يقف أمام آيات القرآن ويربط بينهما وبين عجائب الكون التى اكتشفها العلم الحديث دون أن يقول أبداً : إن هذه الاكتشافات بنصها فى القرآن . » .

ويسرد الأستاذ رجاء النقاش بعض أمثلة من هذا التفسير ثم يقول : « . . هذه نماذج من تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى ، وقراءة هذا التفسير ولا شك تجربة فكرية ممتعة ورائعة ، وكنت أتمنى أن يعاد نشر هذا التفسير اللامع ليكون بين أيدى القراء المعاصرين بصورة سهلة ميسرة ؛ فهذا التفسير ولا شك يساعد المتدينين جميعا على أن تكون لديهم حاسة علمية وشغف بالنظريات العلمية والكشوفات والمخترعات المختلفة ؛ كما أن هذا التفسير يساعد أصحاب النظرة العلمية المجردة على أن تكون لديهم مشاعر دينية عميقة حتى من خلال دراساتهم العلمية المتخصصة ؛ فهو تفسير يستخرج «الروح العلمية» من الدين ، ويستخرج «الروح الدينية» من العلم !

«إن الحافز الأساسى للشيخ طنطاوى جوهرى فى هذا التفسير هو إزالة أى وهم بأن هناك تناقضاً بين العلم والقرآن ، أو أن القرآن يمكن أن يبرر للمسلمين تخلفهم العلمى أو قصورهم عن اللحاق بأحدث النظريات العلمية والمساهمة فى الكشف والاختراع والعمل على الإضافة إلى ما وصلت إليه البشرية فى هذا المجال . وتفسير الشيخ طنطاوى يفيض بالحماس للعلم الحديث ، بل يجعل طلب العلوم العصرية واجبا دينيا أساساً فى حياة المسلمين .

«ونظرة الشيخ طنطاوى للقرآن نظرة جريئة وجديدة وفريدة فى مجال التفكير الدينى المعاصر، وفى مجال النظر إلى القرآن وتفسيره.

والحقيقة أننا إذا أردنا أن نحكم على هذا التفسير العظيم فإننا نجد فيه ميزة أساساً هى الابتعاد تماماً عن سذاجة القائلين بأن كل النظريات العلمية وردت فى القرآن؛ ولذلك فكتاب الشيخ طنطاوى أشبه بتأملات علمية واسعة «من وحى القرآن» أكثر منه تفسيراً مباشراً لآياته وسوره؛ فهو يتوقف عند آيات القرآن ويستوحى منها رحلته بين سائر العلوم العصرية.

وكتاب الشيخ طنطاوى من ناحية أخرى يؤكد فى نفوس المسلمين وعقولهم احترام الروح العلمية، ويدعوهم إلى الاهتمام الواسع العريض بالعلم، ويرفع هذا الاهتمام إلى درجة يقول عنها: إن التأمل فى العلوم العصرية والاهتمام بها هو أجل عبادة.

«وهذه الروح الدينية العلمية المتحمسة المشتعلة إنما هى ولا شك روح أصيلة ونبيلة وعالية، وهى ما يحتاج إليه العقل العربى أشد الاحتياج.

«وإذا كان هناك من ملاحظة على هذا التفسير الجليل فهى أنه يفرض على الباحث فى القرآن أن يجمع فى عقله جميع فروع العلوم العصرية، فلابد أن يكون عالماً فى الكيمياء والطبيعة والطب والحيوان والنبات وعلوم الجيولوجيا والبحار والهندسة وما إلى ذلك، وهو أمر صعب، بالإضافة إلى أنه يثير الاعتراض حتى من الناحية العلمية؛ فالعلم الحديث أساسه التخصص، وليس فى العلم الحديث معنى للعلم الشامل الكامل الذى يجمع كل شىء ويحيط بكل شىء.

«ولكنَّ المبرر الأساسَ الذى يقف وراء منهج الشيخ طنطاوى جوهرى هو أنه كان يهدف أصلاً إلى إثارة شغف المسلمين بالعلوم العصرية، وإلى إزالة وهم التناقض بين القرآن والعلم، وإلى التأكيد بأن الإسلام إنما هو دين يدعو إلى العلم - بمعناه العصرى - ويطلبه ويفرضه على كل مسلم، وإلى أنه لا خوف على الإيمان بالله من العلم، ولا خوف على العقيدة الدينية من النظريات العلمية المختلفة مهما اكتشفت ومهما وصلت من نتائج، بل إن ذلك كله فى رأى ذلك الشيخ النابغ العظيم طنطاوى جوهرى عامل من العوامل المساعدة على الإيمان لا على الشك والإلحاد!».

* * *

وإلى هنا ينتهى مقال الأستاذ رجاء النقاش الذى كان له أثر كبير فى العقول الواعية والأذهان المتفتحة.

ثم يأتى الأستاذ أحمد عطية الله - وهو عالم فاضل وكاتب كبير له آثار قلمية مجيدة منها «القاموس السياسى» فى ١٤٤٠٠ صفحة من الحجم الكبير، و «القاموس الإسلامى» فى خمسة مجلدات

كبيرة . ومن معاصرى الشيخ طنطاوى ؛ ليضيف إلى ذلك بعض آرائه وملاحظاته فيقول :[1]

« . . والمطلع على هذا التفسير كما جاء فى مقال الأستاذ النقاش يتبين مدى انفعال مؤلفه بالتأملات كما يقول المقال « تهدف أصلاً إلى إثارة شغف المسلمين بالعلوم العصرية وإلى إزالة وهم التناقض بين القرآن والعلم »

« ويلاحظ الكاتب الفاضل أن هذا التفسير ينبغى أن ينتهى إلى حد الاستثارة بما تضمنه القرآن الكريم من إشارات إلى ظواهر الكون لا أن يستطرد المؤلف فيقحم علوما بأسرها فى ثنايا تفسيره تمثل مكتبة متكاملة »

ويعلق الأستاذ أحمد عطية الله على هذه الملاحظة بأن هناك حقيقة وراء هذه الحقيقة لعلها مازالت مجهولة هى :

« كانت مؤلفات طنطاوى جوهرى من الكتب الذائعة الانتشار فى الشرق الأقصى ولاسيما فى الهند والتركستان وجزر الهند الشرقية « إندونيسيا » والملايو ، وكان اسمه يقرن بحكيم الإسلام ، ومن ناحية أخرى كانت سياسة الحكومة الهولندية بخاصة تقضى بحظر استيراد الكتب العربية باستثناء الكتب الدينية ؛ لهذا كان من الضرورى لتصدير هذه المعارف الحديثة أن تتضمنها كتب غير محظور دخولها إلى جاوه وسومطرة وغيرهما من مستعمراتها الأسيوية فمن ثم جاء هذا التوسيع فى تفسير الجواهر من مجرد تأملات كونية إلى إدماج كتب بأسرها فى صلب التفسير شملت جميع العلوم العصرية من طبيعية واجتماعية مع توضيحها بالخرائط والرسوم والصور الفوتوغرافية ؛ لهذا السبب كان تفسير الجواهر الذى صدرت منه حتى الآن عدة طبعات من التفاسير المجهولة تقريبا فى البلاد العربية على حين كان ولا يزال من التفاسير المتداولة فى دول الشرق الأقصى ولا سيما بعد أن ترجم إلى اللغة الأوربية » .

* * *

« وبعد ، فإذا حدثك إنسان بأنه رأى شجرة تحمل من الثمر الشهى والزهر الندى مما لا يوجد فى كل أنواع الشجر من ثمر حلو الطعم طيب المذاق - فتذكر القرآن ، وتذكر أن السورة منه سميت سورة لأنها تضم ألوانا من الفنون والعلوم كما يضم السور مدينة سعيدة يجد أهلها فيها كل ما يشبع حاجاتهم ويمتع حياتهم ، أو كما يضم السور بستانا ناضر الزهر ناضج الثمر موشى بمختلف روائع الألوان . فإذا نظرت إلى سورة منفردة ومجتمعة فاذكر قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » وقوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء

---

(١) من مقال له فى مجلة « المصور » بتاريخ ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٧٢ .

شهيد » ، وقوله تعالى : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) صدق الله العظيم » [١]

* * *

بقى علينا الآن أن نقدم للقارئ الكريم فيما يلى بعض نماذج من تفسير « الجواهر » تبين منهج المؤلف فيه :

نماذج من تفسير الجواهر :

« لقد كفر الذين قالو إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملكُ من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا . ولله ملك السموات والأرض وما بينهما . يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير » [٢]

يعتمد الشيخ طنطاوى فى تفسير هذه الآية على ما بينه علم الفلك من أن الأرض التى نسكنها كالعدم بعد أن كشفوا عما فى الفضاء من أجرام عظيمة هى الكواكب والمجرات ؛ فكل مجرة مركبة من مئات الملايين من الكواكب ، ومجرتنا التى منها شمسنا فيها نجوم نسبة شمسنا إليها ضئيلة جداً ، حتى إن الجوزاء حجمها كحجم الجوهر الفرد (ومعلوم أنه لا يُرى) لصار حجم الكون الذى يرى بالتلسكوب مثل حجم الأرض الحالى ، ولصار حجم الكون كله على ما يقضى به مذهب « إينشتين » ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء ، إذن أرضنا على مقتضى تقريب هؤلاء العلماء عالم لا قيمة له ، صغير جداً . وعلى قدر صغره يكون صغر سكانه وأخلاقهم ، فانظر لجهل هذا الإنسان الذى أظهره العلم الحديث ، وأشار له القرآن ، وأعجب لنظام الآية فى سورة « المائدة ».حكم الله بكفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . لماذا كفروا؟ لأن الأرض ومن عليها لا قيمة لها بالنسبة لمخلوقاتنا ، فأنا قادر أن أهلك هذا الإله الذى ادعيتموه وأهلك أمه ، وأهلك من فى الأرض جميعا . . فكيف أتخذ ولدا لى فى عالم لا قيمة له ؟ ألم تروا أنى أملك السموات والأرض وأنا على كل شىء قدير؟ فإذا كانت أرضكم أصبحت بالنسبة للعوالم أشبه بالجوهر الفرد بالنسبة لألف مليون أرض فقد انقلب الوضع ؛ فبعد أن كان أهل الأرض مغترين بأرضهم ظانين هذه الكواكب كلها ما هى إلا سُرُجٌ وُضعت فى السماء لتضىء لأهل الأرض أصبحت الأرض اليوم ملحقة بالعدم ، وسكانها أضعف منها وأقل حيلة ! إذن سكان هذه الأرض قد اغتروا بأنفسهم حين جعلوا لله ولداً فى أرضهم

---

(١) عن مقال للشيخ عبد الرحيم فوده بعنوان « علوم القرآن » بدائرة معارف الشعب .

(٢) المائدة : (١٧) .

الفانية الضعيفة المعدومة فى جانب مخلوقاتى . هذا كله يفهم من قوله « ولله ملك السموات والأرض » [١]

وعندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة آل عمران « الٓمٓ » نجده يعقد بحثاً طويلاً عنوانه « الأسرار الكيميائية ، فى الحروف الهجائية ، للأمم الإسلامية ، فى أوائل السور القرآنية » ، وفيه يقول :

« انظر رعاك الله ، تأمل . . يقول الله : ا . ل . م - طس - حم - وهكذا يقول لنا : أيها الناس ، إن الحروف الهجائية ، إليها تحلل الكلمات اللغوية ؛ فما من لغة فى الأرض إلاّ أرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية ، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية ، شرقية وغربية ، فلا صرف ، ولا إملاء ، ولا اشتقاق إلاّ بتحليل الكلمات إلى حروفها ، ولا سبيل لتعلم لغة وفهمها إلاّ بتحليلها ، وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون .

« ولا جرم أن العلوم قسمان : لغوية وغير لغوية : فالعلوم اللغوية مقدمة فى التعلم ؛ لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية . فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلاّ بتحليلها إلى أصولها فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية ؟ فهى أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية . لا يعرف الحساب إلاّ بمعرفة بسائط الأعداد ، ولا الهندسة إلاّ بعد علم البسائط والمقدمات ، ولا علوم الكيمياء إلاّ بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها ، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم » [٢] .

° ° °

تفسير سورة النور°

بسم الله الرحمن الرحيم

« الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » .

بعد أن بين الله من الآداب والأحكام الشرعية فى مخالفة هذه الآداب حفظاً للمجتمع مما يقوض

---

(١) تفسير الجواهر - الجزء ١١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) المرجع نفسه - الجزء الثانى ص ١٠ - ١١ .

° الجزء ١٢ من الجواهر (جمادى الآخرة ١٣٤٧ هـ) .

دعائمه ، وتقويته بما يكثر النسل . . عقب على ذلك بما هو أعلى وأجل من العلوم والمعارف بقوله تعالى : «الله نور السموات والأرض» . فكأنه تعالى يقول : أيها الناس ، ارفعوا رءوسكم ، وانظروا إلى جمالى ونورى فى شمسى وفى قمرى وفى النبات والزهر والنهر . . فلم أخلقكم لهذه الأرض خالدين ، وإنما لتعيشوا آمنين ما تخلقتم بهذه الأخلاق ثم تسعدوا فيها ما تطلعتم لآفاق الجمال فى كونى العظيم . وقد جعل الله هذا المثل نبراساً للعلوم المشرقة وضربه بما نشاهده فى مساجدنا من قناديل النور المشرقة فى رحاب المسجد . . كذلك نور الله المشرق فى عجائب الخلق . وقد فسّره العلماء بأوجه هى : تمثيل لمحمد ﷺ ، تمثيل لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، تمثيل لكل مؤمن ، تمثيل للقوى الدرّاكة فى الإنسان ، تمثيل للقوى العاملة فى الإنسان ، تمثيل للقرآن الكريم .

وهذا المثل اللفظى الذى جعل مُشَاكِلاً لعجائب أجسامنا وعقولنا وإدراكنا أشبه بما نصبه الله فى الأرض من الأجسام الإنسانية ؛ إذ أحكم صنعها ، ونظم أعضاءها وخلق وسوى وقدّر وأحكم فجعلها العلماء تمثيلاً لأمور وهى :

كالسفينة تركبها الروح فى بحر الحياة الدنيا حتى الموت .

كالدار فيها السكان المختلفون من القوى الدرّاكة والحس وأعضاء الحركة والهضم ، وأعضاء الخيال والغاذية إلخ . .

كاللوح والنفس تنقش فيها وترسم وتتعلم حتى إذا عملت ما تطيق رمت باللوح وراحت إلى ربها ، كما يقرأ الطفل فى اللوح حتى إذا تعلم ألقاه عنه جانباً .

كالمدينة والروح ملكها والأعضاء منازلها .

«كالدكان» والروح صاحبه والأعضاء الباطنة متاعها والأعمال تجارتها والربح والخسارة فى آخرتها . هكذا مثل قنديل المسجد :

الأول : نور محمد ﷺ :

المشكاة صدره ، والزجاجة قلبه ، والمصباح فيه النبوة . توقد من شجرة مباركة هى شجرة النبوة ، يكاد نور محمد ﷺ وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت يضئ ولو لم تمسسه نار .

الثانى : كيان محمد ﷺ :

المشكاة جوف محمد ﷺ : الزجاجة قلبه ، والمصباح النور الذى جعله الله فيه لا شرقية ولا غربية لا يهودى ولا نصرانى - توقد من شجرة مباركة (وهو إبراهيم عليه السلام) - نور على نور - نور قلب إبراهيم ونور قلب محمد ﷺ . وهما متقاربان .

الثالث : إبراهيم والأنبياء :

المشكاة إبراهيم ، والزجاجة إسماعيل ، والمصباح محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . سمى الله محمداً مصباحاً كما سماه سراجاً منيراً ، والشجرة المباركة إبراهيم ؛ لأن أكثر الأنبياء من نسله ، لا شرقية ولا غربية - يعنى إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ؛ لأن اليهود تصلى إلى الغرب ، والنصارى تصلى إلى الشرق .

الرابع : كل مؤمن : المشكاة نفس المؤمن ، والزجاجة قلبه ، والمصباح الإيمان فى قلبه ، والقرآن يوقد من شجرة مباركة هى شجرة الإخلاص لله وحده . وهذا أعم .

الخامس : قوى الإنسان الدرّاكة :

تمثيل لقوى الإنسان الدرّاكة الخمس التى بها المعاش والمعاد ، وهى الحساسة (الحواس الخمس) ؛ والخيالية التى تحفظ صور المحسوسات لتعرضها على القوة العاقلة متى شاءت ؛ ثم العاقلة التى تدرك الحقائق الكلية ؛ ثم القوة القدسية التى تتجلى فيها لوائح الغيب الخاصة بالأنبياء ؛ فهذه مثل لها بالمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت : فالمشكاة (الكوة) قد شابهتها محل الحواس التى قد وضعت فيها ووجهها الظاهر ، ولا تدرك ما وراءها كالعين فإنها لا تدرك ما خلفها . فإذا أدرك المحسوسات وصورت صارت إلى القوة الخيالية ، فإذا أغمضنا أعيننا فإننا ندرك فى أنفسنا تلك الصور التى رأيناها : فهذه القوة التى حفظت تلك الصور هى الخيالية فهى كالزجاجة تقبل صور المدركات وتضبطها ، ثم إن قوتنا المفكرة أكبر من الخيالية ؛ فإن هذه القوة الكامنة فينا تتصرف فى الصور التى فى قوة الخيال فتحكم عليها بالحسن والقبح ؛ فهى كالمصباح ، فأما القوة العاقلة فهى كالشجرة المباركة لأنها تؤدى إلى ثمرات لا نهاية لها . وزيتونها ولا شرقية ولا غربية ؛ لأنها تجرد المعانى عن الصور وتخترع القضايا الكلية التى لا تخص شيئاً بعينه فلا تتقيد بالجزئيات . فأما الزيت فهى كالقوة القدسية الخاصة بالأنبياء فهى لشدة صفائها تكاد تضىء بالمعارف من غير تعليم ولا تفكر

السادس : القوة العاقلة :

إن القوة العاقلة فى بدء أمرها خالية من العلوم ، ثم نقش فيها العلوم بالحواس الخمس ؛ فتصير كالزجاجة متلألئة فى نفسها قابلة للأنوار ، ثم تعرف العلوم بفكرها كالشجرة الزيتونة أو بالحدس كالزيت ، أو بقوة قدسية كالتى يكاد زيتها يضىء ، فإنها تكاد تعلم وإن لم تتصل بها العلوم . فإن اتصلت بها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت فهى كالمصباح ، فإذا استحضرتها فهى نور على نور .

السابع : قلب المؤمن :

قال ابن عباس : «هذا نور الله وهداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ؛ فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه ، كذلك يكاد قلب المؤمن يعلم بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور» .

وسأحاول بتوفيق الله عرض وجه آخر .

وهذه الوجوه وغيرها مما تتفتق عنه العقول الراجحة تصلح لها الآية جميعها ، وتلك خصيصة القرآن الكريم حيث يتضمن من المعانى ما يصلح لها جميعها فى وقت واحد . . فكأن الله يقول : كما أنرتم مساجدكم بالقناديل - كذلك أنرت قلوبكم وقلوب الأنبياء وعقولكم وحواسكم وخيالكم ، وإنى نور السموات والأرض : أنرت الكون المادى بأجرامه ، وأنرت الحياة بالأنبياء وإشراق بصائرهم ؛ فنورى فى كل الوجود نور على نور . .

وجه آخر : نور الله فى المادة :

إن الكون المادى مكون من مجرات ، والمجرات مكونة من النجوم ، والنجوم منها الفردى ، والثنائى والثربى والمجموعات المتقاربة ، ثم إن النجوم المضيئة بذاتها شموس باهرة تتجاذب وتدور حول نفسها كما تدور بعضها حول بعض فى تجاذب متعادل بين الكبير منها والصغير ، وهى كلها فى داخل دورتين للمجرة الكبرى : دورة حول نفسها ودورة حول مركز آخر بعيد لا ندرى أحياناً أين هو . . ؟

تلك شيمة الكون المادى كله فى مجراته ونجومه ، ثم إن للنجوم - لبعضها - كواكب سيارة انفصلت عنها أو عن نجم آخر قريب أو بعيد قائم أو تفتت وتشعع فى الفضاء . وهذه الكواكب نفسها تدور حول نفسها ، وتدور حول نجم بالذات . . كمجموعتنا الشمسية تماماً ، فكواكبها التسع السيارة لها دورة حول ذاتها ولها دورة حول مصدر الضياء فيها وهو الشمس .

-هذا فى الكون المادى فى لبناته الكبرى ، فلندخل إلى بناء الذرة وأصغر لبنة فى الكون المادى : لقد ظنوها منذ أجيال قبل الميلاد منذ أرسطو وفلاسفة اليونان واعتبروها الجوهر الفرد الذى لا ينقسم على نفسه ، ظنوها بناءً مصمتاً ، ثم جاء القرآن الكريم يسترعى الأنظار ، فذكر أن الذرة ليست أصغر شىء ، بل ثمة ما هو أصغر منها . قال تعالى فى معرض التدليل على قدرته ، والتوجيه للأنظار والعقول للتفكير : «لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ فى كتاب مبين» . (سبأ : ٣) .

«وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ فى كتاب مبين» (يونس : ٦١)

ومع ذلك لم تبحث العقول عن الشيء الذى هو أصغر من الذرة ، ثم جاء العلم فى القرن العشرين ليقول : إن بناء الذرة يتكون من نواة - بروتون - شحنة كهربية موجبة . وألكترون دوار حول البروتون - شحنة سالبة . والنواة تعتبر $\frac{1}{50}$ من الذرة أو أقل ؛ فانظروا إلى هذا الذى دق عن الذرة التى لا ترى بأكبر المناظر المكبرة حتى كان أقل منها بخمسين ضعفاً أو يزيد .

ثم ماذا فى هذا ؟ . . إن النواة الموجبة هى الشحنة الموجبة المضيئة بذاتها كالشمس والنجم فى المجموعات الشمسية والنجمية ثم يحيط بها شحنة سالبة فهى كالكوكب بالنسبة للمجموعات الشمسية . أما الشحنة الموجبة فإنها كالشمس مضيئة بذاتها ، والألكترون يستمد ضوءه من النواة كالكوكب .

إننا إذن أمام وجهين متماثلين بين أصغر حجر فى بناء الكون المادى ، وأكبر حجر بين الذرة والمجرة . حتى قال عالم فلكى : إن القوانين التى تعمل فى المجرة هى نفس قوانين الذرة . وذلك دليل وحدة الكون ووحدة الصانع الأعظم . وهذا مثال واضح لنور الله فى الأرض والكون المادى . فالألكترون وبقية الشحنات تمثل الكواكب وتمثل الزجاجة . والنواة تمثل الشمس وتمثل المصباح ، فى المثل المضروب لنور الله فى القرآن الكريم .

فنور الله فى الأرض هو ذاك . ونوره فى السموات ربما كان فى الحقيقة - والله أعلم - يعنى به نور الله فى عالم الروح والملائكة ، فنوره فى الناس ما مر من التوجيهات السبعة ، ونوره فى الجن له نظير بالإنس ، ونوره فى الملائكة له نظير بنور الأنبياء بين الناس ، فالله نور الكون المادى ، والكون العقلى ، والكون الروحى والإنسى والجنى والملائكى : أى الله نور الوجود كله . وقربه الله بمثل قنديل المسجد الذى يرونه ويراه الناس فى مساجدهم فى كل مكان . وكأن الله يقول : إياكم أن يصدكم ويصرفكم فقه الشرع عن فقه الكون المشرق ! ! انظروا إلى سمواتى : فيها شموسها سرج وعقولكم سرج وحواسكم سرج وقواكم الداخلية سرج ، ودينكم سراج ، وأنبياؤكم سرج ، والمؤمنون سرج ، وقد أضأت كل شيء بأنوارى وعلومى ظاهراً وباطناً ، ومساجدكم فيها من لا تشغله تجارة ولا بيع عن ذكرى ، فلا يشغلكم علوم الفقه بالبيع والشراء والمعاملات عن النظر فى عجائب صنعى وكونى فى المادة والعقل والروح وفى الأرض وفى السماء !

لذلك تراه سبحانه وتعالى وقد ذكر الخمر والميسر والحيض والنفاس والإيمان والطلاق والنفقة والعدة والرضاع والخطبة ، قال بعد ذلك : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى . أى لا يشغلكم ذلك عن هذا الجمال والروعة وذلك مجال الرقى الحق . . وهنا لم يذكر الصلاة بل ذكر هدف الصلاة الأعلى حيث عبر بالنور الذى عم السموات والأرض ، وما نور السراج إلاّ أثر من آثار النور فى

الشمس ، فالزيت بعض عصارة الثمار فى الأشجار والنبات ، وهى بدورها بعض عناصر الأرض وموادها . مادة ساذجة لا صورة فيها ، والمادة قبس من نور العقول المجردة فاضت من ذلك العالم الأقدس بالنظام الأكمل .

وجه آخر للمؤلف :

ذكر الله تعالى نور السموات والأرض بالنجوم والكواكب ، ومثّل بالسراج الذى هو أثر من آثار النور العام مثل به لما هو أتم وأكمل ، وهو نور العقول والبصائر . ولذلك توضيح :

العقل عند الحكماء :

العقل عند الحكماء كأرسطو وأفلاطون وسقراط والفارابى وابن سينا والغزالى والرازى وابن رشد وأضرابهم : إما عقل بالقوة ؛ أو بالفعل ؛ أو مستفاد ؛ أو عقل فعال . وإليك مثالاً موضحاً :

ابن الملك الشاب الذكى ملك بالقوة . فإن ولاّه أبوه ولاية فهو ملك بالفعل وبالقوة ، فإن تولى الملك بعد أبيه فهو ملك بالفعل . فإن أحسن إدارة ملكه وأشرف عليه إشرافاً كبيراً وبصيراً فهو ملك مستفاد . ونظيره فى العقول : الطفل العادى مستعد لفهم ما حوله ، وما يزال يحاول فهو حينئذ عاقل بالقوة ، فإن اكتسب معرفة فهو عاقل بالفعل لما يفهم وبالقوة لما هو مستعد له . فإن اكتسب معرفة كبيرة فهو صاحب عقل مستفاد : أى أن العقول الإنسانية فى أول أمرها مستعدة لاقتناص الصور من هذه المادة ؛ فكل إنسان ينظر ويسمع ويبصر ويشم ويذوق ويلمس وتلك صفات المادة وصورها ، وصور المادة أثواب لها . وقد عدّها الحكماء (٣٦) ثوباً كالألوان والأصوات ، إلخ . . وأثواب المادة خلق العقل ليكتسى بها ويلبسها منذ الطفولة الباكرة حتى يصل إلى مقعد الحكماء .

العقل المستفاد والعقل الفعّال :

والعقل المستفاد عند الإنسان - فى الحكماء والأنبياء - نظيره فى عالم الروح - ما وراء المادة - العقل الفعّال ، ذلك العقل الذى لم يقتنص معارفه من المادة ، بل علومه مغروسة فيه منذ وجد بفطرته ، وقد اكتسبت المادة صورها من أثر ذلك العقل الفعال وفق ما قام به وارتسم فيه . وهذه العلوم كلية فيه ، وإنما تنقسم فى المادة وتتوزع فى أثوابها المختلفة وأحجار بنائها . وعقولنا كذلك تجمع من المادة معارف غير منقسمة ولا موزعة لتنزهها عن الانقسام .

وهذا العقل الفعال نسبته إلى عقولنا كنسبة الشمس لأبصارنا ؛ فإذا كانت أبصارنا مستعدة للإبصار ، أى لو أشرق نور فى الهواء وانعكس من الأشياء على قرنية العين وعدستها ، فصور الأشياء على شبكيتها - أدركته وفهمته أعصاب المخ بالعين : فكذلك العقل الفعال إذا أشرق على عقولنا

إشراقاً معنويا كإشراق الشمس فى الهواء والعين فإن المعانى تتمثل فى عقولنا كما رسمت الصور فى القوة الباصرة - فالعقل الفعال شمس بالنسبة للعقول التى هى عيون استقبال لضوئه ، وإشراق العقل الفعال كإشراق الشمس الحسى ، وحصول الصور فى العقول كحصول المرئيات فى أبصارنا : فإذا حصلت المعقولات فى نفوسنا واستنتجنا بها علوماً أخر فإنه يقال : إن العقل عندنا بالفعل بالنسبة لما عرفناه ، وبالقوة لما لا نعرفه ، فإذا ارتسمت المعارف فى نفوسنا يقال : إنها عندنا بالفعل ثم يكون العقل المستفاد : ثم إن العقل بالقوة كأنه مادة للعقل بالفعل . والعقل بالفعل كأنه مادة للعقل المستفاد وهو كمادة للعقل الفعال وإدراكنا من الجزئيات فى الصور والمحسوسات إلى الكليات فى المعارف ، وأما العقل الفعال فينتزل عن الكليات إلى الجزئيات بلا زمان .

الصورة والمادة والمعانى والعقول :

لا تظنن أن المعانى تنقش فى العقول كنقش الصور فى المادة . والصورة - كما هو معلوم - غير المادة فنقش الخاتم غير معدن الخاتم . . كالثوب غير الإنسان . أما المعانى فإنها نفس عقولنا : كالصورة فى المرآة عين المصَوَّر ؛ إذ لا مادة ثمة . فكل معنى عقلناه فهو نسيج عقولنا : فالله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، فاقتبسنا من المادة معلومات كونت عقولنا ، ولا شىء وراء عقولنا ، وليست المعارف صفات لعقولنا ، بل هى نفس العقول .

ومعناه أن عقولنا تعتبر : عقلاً ، وعاقلاً ومعقولاً . . فإذا تعقل الإنسان نفسه فالعقل هو نفس المعقول ، وهو العاقل . فإذا نحن اكتسبنا عقولاً مستفادة من المادة وصورها والتصرف فيها لنذهب بها إلى عالم آخر - فأجدر بنا أن نقول : إن ثمة عوالم لم تكتسب علومها من المادة بل هى فيها كامنة ، ثم هى تشرف على إكساب عقولنا هذه العلوم عن طريق إشرافه على المادة وتصويرها وتحرير قوانينها . ومعلوم أن المادة هى محور معلوماتنا هنا : أى أن مثال القنديل فى المسجد ونور الكواكب ضربه الله لأنوار القلوب ، وإلى ما ينقش فى العقول من المعانى وما تزال تنتقل من معنى لآخر ، ومن مقام لمقام حتى تصل فى الفهم عن عالم الملائكة ذوات العلوم الكامنة بالطبيعة .

ولعمرى لضياء القنديل لحيطان وجدران ، أما الحقائق فنور البصائر والأبصار . «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» (الحج : ٤٦) .

قطرة ماء فى تفسير «الله نور السموات والأرض» .

نظرية النور والمادة :

إن روعة الخلق تتجلى فى آفاق السموات والأرض . والقرآن دلّ كثيراً على ذلك . وهناك روعة أخرى للخلق تغيب عن الكثيرين :

إن كل ذرة فى أرض أو قمر أو شمس أو كوكب أو نجم أو سديم أو ماء أو غاز . . إن كل ذرة فى الكون المادى من النور ؛ فما بالك بالسموات وما فيها من كائنات وعوالم ؟ وصدق الله العظيم : « الله نور السموات والأرض » .

يقول العلامة هنشو الفلكى الطبيعى بمجلة هاربر الأمريكية فى سنة ١٩٢٦ م : إن بعض قطرات الماء تصل إلى ثلث سنتيمتر ، فلوكبرناها إلى ١٥ سم لارتجفت وظهرت عليها ألوان قوس قزح ، فلو كبرناها ١٧٠ متراً لزال القوس وظهر الماء فقط ، فلو كبرناها ١٠٠ ميل لظهرت جواهر الماء الصغيرة ويصبح كل جوهر فى حجم (الجوزة) وقطره ٢,٥ مم ، ومعناه أن كل قسم لا يقسم لأنه جوهر فيحلل فقط للعناصر الأصلية لا للماء . ونعنى به «أكسوجين وأيدروجين» متحدين تماماً بنسبة ١ : ٢ وحينئذ لا يمكن فصلها إلاّ بالكيمياء .

فلنكبرها إلى مائة ألف ميل فيصبح قطر الجوهر الفرد منها ٤٠ قدماً تقريباً ، ويفيدنا هذا التكبير فقط فى رؤية كل من الأكسوجين فى الوسط والأيدروجين ذرتين عن يمين وشمال ، وهذه الذرات لا تنقسم وإنما تتكون من شىء آخر سنعرفه . وجوهر الأكسوجين فى الوسط أشبه بقنديل فى المركز تحيط به ست دوائر تبعد عنه ٢٠ قدماً . وهذه الدوائر فى سطحه . وذرتا الأيدروجين دائرتان من النور قطر كل منهما سبع أقدام تدوران حول مركز النور .

ولكى نرى كل ذرة منهما فلنكبرهما بعد ذلك ألف مرة فتصبح أكبر من فلك الأرض حول الشمس ، ويصبح قطر الجوهر المائى (ذرة الماء) ثمانية أميال ، ونرى دوائر النور السابقة فى الأكسوجين والأيدروجين خطوطاً وهمية من النور ترسمها نقطة صغيرة من النور تدور حول مركزها فى الثانية الواحدة ٦ آلاف مليون مليون دورة . وهذه النقطة الدائرة هى (الكهربا السالبة) ومركزها النورى يسمونه (الكهربا الموجبة) . وهذه الدوائر التى رسمتها النقطة فى (سج ويد) ما هى إلاّ كالدوائر التى ترسمها شعلة نحركها نحن بسرعة ، فترسم دائرة فى مرأى العين فقط ، أما الواقع فهى الشعلة فقط . .

فالجوهر المائى : سج اكـ يد ٢ . وكل منهما نقطة من النور الموجبة من حوله دائرة من النور السالب ، وبالدوران السريع صار كل منهما غازاً ، وبالاتحاد صارا ذرة ماء . والأصل فيهما النور . بقى أن نعرف أن عدد جواهر الماء الفردة = ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٥٠٠ جوهر : أى ذرة ماء متحدة فيها سج ١ : يد ٢ وأعجب من ذلك أن كل ذرة منهما مجوفة وفيها من البعد بين الكهربا الموجبة أو النواة والسالبة (الألكترون) كما بين الشمس والأرض وذلك فى جميع الذرات -

فى العناصر المادية التى وصلوا فى معرفتها إلى ٩٢ عنصراً أصيلاً تتكون منها جميع المواد فى الأرض والكواكب والنجوم والهواء بينها .

نتيجة :

إذن فجميع عالمنا المادى مكون من النور . نقطة نور تدور فى الفضاء حول مركز نور فترسم دوائر من النور ، فقطرة الماء مثلاً أشبه بالمشكاة ، وكذلك كل ذرة . ودوائر الأنوار الحادثة داخلها بسرعة جَرْى النقط النورية فى عناصرها أشبه بزجاجة المصباح ، والمصباح أشبه بالنقطة النورية فى المركز (البروتون أو النواة) .

وبذلك ظهرت المشكاة والزجاجة والمصباح ، وبقى ما يوقد منه المصباح فجعله الله تعالى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . وربما أفاد ذلك الوصف : أنها ليست من عالمنا الأرضى ، بل من العالم الإلهى الذى لا شرق له ولا غرب ولا زمان ولا مكان .

وبذلك رأينا قطرة الماء نوراً بل قطعة الحجر وحفنة التراب . وما هذا إلاّ شرارة وشعلة مقدسة من أنوار الحق فى كل الوجود . وعلينا لندرك هذا النور أن نفتح أبواب عقولنا لتدرك هذا الجمال الذى سيصبح رائعاً جليلاً واضحاً عندما نصفو أو عندما نودع هذا الكون المادى المحتجب فى نفسه . وحينئذ نكون بتوفيق الله تعالى وفضله - فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وندرك بعدئذ تفسير قوله تعالى : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» حتى فى الذرة فيها موجب وسالب . كالذكر والأنثى . أو هما زوجان متناظران ومكتملان . . وكذلك فى جميع الكائنات النباتية والحيوانية . وقد ظهر ذلك فى كل الديانات تقريباً .

وفى الفارسية مثلاً : إن الله خلق أصلين هما الخير والشر ، ولا يقوم العالم إلاّ بهما ، ثم جاء المخرفون فجعلوا للخير إلهاً وللشر إلهاً ، وهكذا طبع العدد «زوج وفرد» . والحساب جمع وتفريق . والعالم مركب من التنافر والمحبة . وكلها ترجع للآية : «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» . حتى ذهب فيثاغورس إلى القول بأن العالم : عدد ونغم . ومن فلاسفة اليونان من قال : كراهة ومحبة .

ولاتنس صلة هذه الآية بقوله تعالى فى أول سورة الأنعام : «الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدلون» وقوله فى سورة النمل : ٨٨ : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون»

فليراجع تفسيرها أيضاً فى الجواهر . .

الفصل السادس

الشيخ طنطاوى جوهرى

الرائد الروحى

كان الفيلسوف الإسلامى الشيخ طنطاوى جوهرى عالماً روحيًّا كبيراً ، وكان رائداً من الرواد المناضلين الشجعان الذين أمضوا حياتهم فى سبيل محاولة كشف المجهول من أسرار الإنسان فى علاقته بنفسه وبالكون وبالخالق عز وجل ، ويالها من أسرار تتجاوز فى قيمتها كل تقدير إذا ما وضعها الإنسان فى الاعتبار عند اتخاذ أى قرار مهما بدا له ضعيف القيمة هيّن الآثار !

لقد كان من أبرز أعضاء « دائرة القاهرة الروحية » ، وكان يشترك اشتراكاً فعليًّا فى الجلسات الروحية التى كان يعقدها الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير فى هذه الدائرة ، وقد كان بحق أول أبٍ للروحية الحديثة فى الشرق .

ولقد قام الشيخ طنطاوى بالدور الذى قام به فى الخارج ذوو الأذهان المتفتحة عندما عرفوا كيف يربطون بين الآراء الدينية وبين حقائق العلم الروحى الحديث بل بالحقائق العلمية ، وهو لا يجد أى غضاضة فى أن يكون رجوعه فى كتاب « الأرواح » إلى مراجع الفرنجة وبحوثهم قائلاً فى الصفحة ٤٧ من طبعة ١٩٢٠ م :

« إن سائر العلوم المدونة من سماوية وأرضية يقرؤها القوم ونحن معهم ، وأهل كل فن صادقون ، ولا جرم أنك تعلم أن سائر الناس لم يكونوا ليعلموا أن ههنا مخلوقات صغيرة « ميكروبات » تحدث فى أجسامنا الحمى والجدرى وأمراض الوباء حتى إن ألوفاً مؤلفة من تلك المخلوقات الحية تؤلف جماعة عظيمة تتعاون على إتلاف أجسامنا ، وتمزيق أحشائنا ، وبعثنا من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح ؛ فأصبح بفضل علماء أوربا الإيمان بهذه الحيوانات الذرية التى لا تراها العين يقيناً لا يشك فيه أحد .

وقد آمن بها الصعاليك والملوك والجهلاء والعلماء .

« فهكذا هم الذين خاطبوا الأرواح بتلك النفوس العصبية[١] ، والأمزجة المستعدة للتخاطب مع العالم اللطيف الذى لم نقرأ عنه إلاَّ فى الكتب الدينية ، فهل نصدقهم فى الحيوانات الذرية المسماة « بالميكروبات » ونكذبهم فى حياة الأرواح ؟ »

وهكذا يسترسل هذا العالم الجليل فى مؤلفه هذا فى تبيان الاتفاق التام بين العلم الروحى الحديث وبين العقيدة ، وفى الدفاع عن النتائج التى تكشف عنها هذا العلم ؛ فهو يقول فى مقدمة الكتاب :

« . . يشب الإنسان منا ويشيب وهو فى هموم الحياة مغموراً غافلاً عما بين يديه من عجائب الموت وغرائبه ، يسمع مقال الدين والأنبياء والعلماء فيمر عليه مرور النسيم على يابس الهشيم والصرصر على الحصباء فى الأرض الفضاء وجرى الماء على الصخرة الصماء ! برع الناس فى العلوم ، بلغوا الثريا فى المعارف ، غاصوا فى البحار ، طاروا فى الهواء ، سبحوا فوق الماء ! هل هذا الإنسان غاب عقله وضل سعيه ، وضاق مذهبه فعجز عن أمر نفسه ؟ هل هذه الأمم التى برعت فى سائر العلوم فجعلت ظهر الأرض بطناً وقلبت بطنها ظهراً ، واتخذت من الهواء مواد الحياة ، ومن ضياء الشمس جرى المياه ، ومن حركاتها سر الكهربا - غاب عنها أنفسها التى هى أعز مطلب ، وأنفس مأرب ، وأجلّ مرغوب ؟ كلا ثم كلا . .

ألا فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن المحافل الروحية والمجامع النفسية فى البلاد الأوربية قد نطقت فيها الأرواح على مرأى ومسمع من مجالس شوراهم والملأ من قومهم ومجالس الشيوخ والأعيان فى أمريكا وغيرها كما سترونه مفصلاً فى الكتاب مبيناً أيما تبيان ! لقد شرحت الأرواح ما شاهدته فى عالم البرزخ من نعيم وبؤس وهناء وعناء ، وخاطب الأموات الأحياء والآباء الأبناء فأنصت الجمع ، وكفكف الدمع . وجاءت البشرى بالحياة الأخرى . وقال الأموات للأقارب والإخوان : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان » ، فصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وجاء الحق وزهق الباطل وفرح المسئول وقنع السائل .

« فهل نقف نحن معاشر المسلمين أمام هذا الحادث صامتين ؟ إنه لعيب فاضح ، وخطأ واضح ، وشين مبين ؛ فنحن أحق بهذا العلم من الغربيين .

« إن الأمر لجلل يعوزه كتب تؤلف ، ومجامع تحشد ، وعلماء تنتقد . أنا لست فى كتابى هذا أثبت العالم الروحى فحسب ، فقد سبقنى إليه من نشروا الفكرة ، وأذاعوا أمره بين إخوانى المصريين .

« إنما الذى أدهشنى ما عثرت عليه من المحاورات بين الأرواح الناطقة من عالم الغيب وبين

---

(١) يقصد النفوس الحساسة ، وهو وصف يطلق بالإنجليزية على الوسطاء .

الأحياء فى المجامع العلمية وكيف كانت آراؤها وتعاليمها تذكرنى كثيراً بما طالعته فى أمهات الكتب الإسلامية . وما جاء عن السادة الصوفية ؟ أليس من واجبى أن أنشر تلك المطابقات العجيبة بين أئمنا الإسلامية . إنه لحرام علىّ أن أغمض العين ولا أنتهز الفرصة ، فأذكر كل حادثة من حوادث العجائب الروحية بما يطابقها من كلام أئمتنا الإسلاميين مبيناً الكتاب والصفحة واسم المؤلف .

«سيعجب المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إذا جاءهم هذا النبأ الذى عنه يتساءلون : من ذا الذى كان يدور بخلده أن يهجس بخاطره أن ما جاء من نعيم القبر وعذابه فى ديننا يعرض اليوم عرضاً على المجامع الأوربية النفسية كمثل الحاكم الألمانى بيللون الذى مات وعمره ٧٩ سنة ، وقد استغاثت روحه من اضطهاد يتيمين له ، وحققوا فوجدوا ثبوت غدره باليتامى فى دفاتر الحكومة فى تلك الأقطار ؟

«أنا لست فى كتاب الأرواح أسرد الحوادث المنقولة سبهللاً ، ولكنى أجد ذلك يطابق ما نص عليه الغزالى وغيره بطريق الكشف ، وكيف قال : إن عذاب القبر على هذا الأسلوب ؟ .

«من وقف على أسرار دين الإسلام فى أمهات الكتب العلمية عرف ما للذنوب القلبية من الحسد والكبرياء والطمع والجشع من الأثر فى العذاب ، وأن العلاقة متينة ثابتة مؤكدة بينهما عند الممات . وكذلك ليس للمرء من كمال إلاّ بالأعمال العظيمة لبنى الإنسان . . وفى الحديث «من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» . أفليس من الواجب نشر هذا التفصيل لإخوانى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ إن ذلك يأمر به الدين .

«نعم ، لقد بزغ بزوغ الشمس للورى قوله تعالى : «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً» . وثبت بالبراهين ويقين الصدق ، قوله تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» .

«إليك أيها القارئ روضة فيحاء ، وحديقة غناء ، قطوفها دانية لا تسمع فيها لاغية ، هى السر المصون والجوهر المكنون ، والكنز المدفون الذى اختبأ فى شريعة الإسلام . بهذا العلم ونشره ترى أمراً عجيباً (كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) . فليتعاون الكتّاب على نشره ، فإن فيه سلوة المحزونين ، وإيقاظ الغافلين ، وتعليم الجاهلين ، واتباع الإيمان باليقين ، ورقى الأخلاق ، وتقليل النفاق ، وضعف الشقاق ، وذهاب الأحقاد ، والوثوق بحياة جديدة ، فلا يفزع الناس أشد الفزع من الممات ، ويقل بكاء الباكيات ، ويسهل احتمال النكبات ، وأشد الأزمات علماً بأنها طهارة للروح ، وإنماء الأخلاق ، ودروع سابغات ، وأجنحة بها تطير إلى العلا . «وفى ذلك فليتنافس المتنافسون»

كيف كان مبدأ تفكر الشيخ طنطاوى فى أمر الروح ؟

لقد رأينا الشيخ طنطاوى فى كتابه « التاج المرصع » متشككاً مرتاباً فى نظام هذا العالم ، وقد بيَّن لنا تشككه ، وكيف كان يطلب الحقيقة بنفسه ؟ فما السبيل التى سلكها حتى عرف حقيقة الروح ؟ . . وهل كان الشك مبدأ أمره فيها ؟

إنه يجيبنا عن ذلك فى الصفحات ٢١٥ وما بعدها من كتابه « الأرواح » الطبعة الثالثة - بقوله :

« نعم ، لقد كان مبدأ أمرى فى مسألة الروح الشك المطلق بل الإنكار : ذلك أنى كنت يوماً واقفاً فى حقلنا بأرض (كفر عوض الله) بجانب نهره المسمى (ترعة كفر عوض الله) ، وكنت أزاول بعض العمل ، فاعترانى دوار لضعف صحتى ، فجلست مدة ، فلما أفقت مما غُشِّىَ علىَّ نظرت فى أمر الروح وقلت : ياليت شعرى ! إذا كنت الآن ما أزال حيا لم أفارق الجسم وما هو إلاَّ أن غُشِّى علىَّ حتى فقدت الشعور والإحساس - فكيف تكون حالى إذا فارقت الجسم وتفرقت الأوصال وتناثرت الأعضاء ؟ فهل يبقى لى عقل أو علم ؟ وكنت إذ ذاك فى زمان العطلة الأزهرية ، وكانت سنى حوالى العشرين . ثم بعد ذلك رجعت إلى الأزهر وأنا مكبّ على طلب العلوم اللسانية والشرعية ، فذات ليلة رأيت وأنا نائم كأنى فى مقابر (قريتنا كفر عوض الله) وكأن قائلاً يقول : انظر ، فنظرت فى الجو ، فرأيت كأن هناك نوراً أبيض مغموراً فى وسط الزرقة ! فقال : هذه هى الروح ، وكانت ليلة الخميس . فلما استيقظت قمت مع رفاق المجاورين للرياضة خارج القاهرة قاصدين بيت أحد أقاربنا ، فلما جلست وجدت فى الطاق كتاباً فأخذته ، فإذا هو كتاب « تهذيب الأخلاق » للشيخ أبى على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ ، ولم يكن لى عهد بهذا الكتاب ولا بغيره من الكتب الفلسفية ، فتصفحته فوجدته ابتدأه بالبرهان على وجود النفس ، وأتى ببراهين أشبه بما تقدم ذكره عن أفلاطون وسقراط :

فمنها أننا لما وجدنا فينا شيئاً يضاد الجسم وأعراض الجسم ويباينهما كل المباينة حكمنا أنه ليس جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً : ألا ترى أن الجسم المثلث لا يقبل التربيع إلاَّ بعد زوال الصورة الأولى ، وهو التثليث . وهكذا سائر الأشكال والأعراض ليس يقبل الجسم واحدا منها إلاَّ إذا خلع الآخر . والعقل نراه يقبل سائر الأشكال والألوان والمقادير ، فليس يتغير ، بل يقبلها كلها دفعة واحدة . وهذه العلوم تزيد العقل قوة بخلاف الجسم فلا يقبل إلاَّ لوناً أو شكلاً ولا يجمع شكلين معاً . وهذا هو التباين العظيم بين المادة والعقل .

ومنها أن القوى الجسمية لا تعرف العلوم إلاّ من الحواس فتتشوقها بالملابسة والمشابكة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام، والجسم يزداد بها قوة فهو يفرح بها ، فأما النفس فإنها كلما اقتربت من المادة ضعف إدراكها ، وكلما رجعت إلى ذاتها ازدادت قوة .

ومنها أن النفس تحرص على العلوم والأمور الإلهية ولا يتشوق شيء إلى ما ليس من طبعه ولا ينصرف عما يكمل ذاته ويقوم جوهره ، فالنفس بانصرافها عن الحواس عند التفكير لتكمل معارفها مخالفة أفعال البدن ؛ فهى إذن جوهر مفارق للبدن .

ومنها أنها أخذت مبادئ للعلوم غير التى أخذتها عن الحواس ؛ فإنها حكمت مثلاً بأنه ليس بين طرفى النقيض واسطة وهذا لا تدركه الحواس .

ومنها أن الحواس تدرك المحسوسات وحدها ، وأما النفس فإنها تدرك أسباب الاتفاقات وأسباب الاختلافات . وهى معقولاتها التى لا تستعين عليها بشيء من الجسم . وهى تحكم على الحس أنه صادق أو كاذب : ألا ترى أن البصر يرى الكبير صغيراً والصغير كبيراً كالشمس والإصبع الغائص فى الماء ؛ فإن الأول أكبر بالبرهان . والإصبع ليس حجمه الحقيقى ما يرى فى الماء . بل هو فيه أكبر مما هو عليه فى النظر . وأسباب ذلك مذكور فى علم المناظر .

هذا ملخص ما ذكره ابن مسكويه وقرأته فى ذلك اليوم ، ولم أشأ أن أخرج مع المجاورين للرياضة بل بقيت أقرأ الكتاب بقية اليوم ، فهذا كان مبدأ نظرى فى النفس وبقائها .

واستكمالاً لهذا الحديث يطيب لنا أن نورد هنا بعض ما كتب الأستاذ عبد اللطيف الدمياطى فى كتابه «الوساطة الروحية» عن الشيخ طنطاوى نقلاً عن الوسيط الروحى المرحوم الأستاذ حسن صالح أيوب وهو تلميذ الشيخ ونسيبه[1] :

«أما عن حياته الروحية فقد بدأت - كما هى الحال مع الكثيرين ممن اختارهم الله لتأدية مهام سامية فى هذا العالم - بأزمة نفسية نتجت عن مرض جسمى ، وقد اشتدت هذه الأزمة بالشيخ حتى بلغت به مرحلة اليأس ، وعندئذ بدأ هذا الصراع الهائل الذى يحدث دائماً للأرواح الكبيرة فى مثل هذه الظروف : هذا الصراع الداخلى بين قوى الروح من جانب وقوى الجسد من الجانب الآخر ؛ وكان الشيخ فى هذا الصراع هائجاً لا يقر له قرار. كان من ناحية يغمره اليأس حتى يغطى على جميع جوانب حياته : فالعالم - بما فيه من المتاعب والمكدرات - مكروه بغيض ، والحياة - بما فيها من هموم وآلام - حمل ثقيل ، وهى بعد لا فائدة فيها ولا نفع وراءها . ومن الناحية الأخرى كان يقترب منه هذا الإشراق الإلهى فيضئ جوانب نفسه المرة بعد المرة ؛ حتى إذا بلغ مبلغه إذ بالشيخ يفيق على هذه

---

(١) ص ٥٧/٥٩ .

الفكرة الوضاءة القوية التى ملأت كيانه وحجبت عنه كل شيء آخر : الله .

صحا النائم من غفوته إذن ، وقد صحا بعد أن تغير تغيراً كليًّا ، فأصبح ولا شأن له بهذا العالم وما فيه . وما الذى يعنيه من هذا العالم وقد وجد عالمه الحبيب المنشود ؟ وهكذا أصبح لا يشغل نفسه إلا بالواجبات العملية والأسرية ، فإذا ما انتهى منها التفت بكليته إلى ربه .

كان أول ما اتجه إليه فكر الشيخ أن يقترب من الطبيعة وأن يتوافق هو وقوانينها ، فحبب إليه الخروج إلى الخلاء ، وهناك كان يكشف عن جسمه ليتشبع بالعناصر الطبيعية من شمس وهواء وأثير لتبعث فى جسمه المادى والأثيرى بالقوة والحياة ، بل لتزيد فى قوته الروحية . ثم رأى أن يقصر طعامه على النباتات ، يتناول أكثر ما يتناوله منها طبيعيا غير مصنوع ، بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا فصام يومه وأحيا ليله ، وأمضى فى صيامه هذا ثلاثين حولاً ، هى الأخيرة من حياته ، لم يتخللها إفطاره إلاّ فى المناسبات النادرة كعيد أو نحوه ، وهكذا نرى أن الشيخ - وقد تجلت له الحقيقة - كان يعمل جاهداً فى سبيل رقيه الروحى مضحياً فى ذلك بلذائذه الدنيوية وراحته .

ولم يكن الرجل وقد أصبح عالماً بالأصول الروحية - يبغى من وراء رقيه هذا غرضاً شخصيًّا ؛ إذ إن الأنانية لا تتفق مع الاتجاه الروحى الصحيح ؛ وإنما كان غرضه أن يصبح قادراً على أن يؤدى خدمة للناس ، نعم كان يريد القيام برسالته ، وهى نشر الروحية وتعاليمها .

وأفلح الشيخ ؛ فقد تم له الاتصال فعلاً ، وكان اتصاله قويًّا . وهل هناك من الاتصالات الروحية ما هو أقوى من الاتصال بالله ؟ وربما استكثر بعضٌ على الرجل هذه الدعوى ، وربما وجد الناس فيها تغالياً . ولكن لنرجع إلى المنطق : فالله يريد الخير لعباده ، وهذا الخير إنما هو فى هدايتهم إلى الحق وإرشادهم إلى الصواب . وهو تعالى فى هذا يختار منهم من هيأ نفسه لحمل وسائل هذه الهداية وهذا الإرشاد ، ولن يكون جديراً بهذا الاختيار إلاّ رجل طهر جسمه ونفسه ووقف ينتظر هذا الاختيار ، فلئن كان الله قد اختار « طنطاوى جوهرى » لتأدية رسالة روحية فإن ذلك لأن « طنطاوى » كان قد أعد نفسه لهذا الاختيار فأصبح جديراً به ، والله يعلم حيث يجعل رسالته .

وبعد أن أعدّ الشيخ نفسه بهذا الإعداد كان يختلى جل وقته بربه ؛ ومن ثم يقوم بتدوين ما وصله عن طريق الإلهام ، وهكذا قام بوضع كتبه المعروفة ، نذكر منها : « الأرواح » و « أين الإنسان » و « التاج المرصع » و « أحلام فى السياسة » وهو آخر مؤلفاته .

وكان من الطبيعى ألاّ يروق سلوك الشيخ باتجاهه الروحى بعض رجال الدين ولا سيما أن الشيخ نفسه كان أزهريًّا ، فكان منسوباً إليهم ، فخاصموه وقاطعوا كتبه . وطبعاً لم يأبه الشيخ بهم ، بل راح يؤدى رسالته الروحية فى حزم وهدوء . وكان هذا فى الوقت الذى لم يكن فيه أحد يهتم بموضوع

الروحية ، فكان الشيخ فى هذا العصر الحديث رائد الروحية الأول فى مصر ، بل ربما كان رائدها فى الشرق كله . وليس فى هذا مغالاة ، فقد انتشرت كتبه وسادت تعاليمه فى بلاد شرقية كثيرة ، ووجد فيها حتى غير المسلمين من التعاليم السامية التى تدعو إلى رفعة الإنسان ما جذبهم إلى اعتناق الدين الإسلامى .

وهكذا نرى أن الشيخ بجهاده الروحى لم يخدم الفكرة الروحية فقط ، وإنما خدم الدين الإسلامى أيضاً ، إذ اعتنقه الكثير من الناس فى تلك البلاد ، وهذا ليس بغريب ؛ إذ إن التعاليم الروحية الحديثة تتفق تمام الاتفاق مع تعاليم الدين الإسلامى الصحيحة .

وكان الشيخ جم النشاط وخصوصاً فى مجال البحوث الروحية ، وكان يتتبع بمزيد من الاهتمام خطوات الحركة الروحية الحديثة التى كانت قد ظهرت فى الغرب ، ثم لما ظهرت الحركة فى مصر انضم إليها كعضو فى الدائرة الروحية التى أنشأها الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير ، وظل متصلاً بهذه الدائرة إلى أن انتقل إلى عالم الروح .

ولقد عاش الشيخ فى هذا العالم يعمل فى خدمة الروحية فى تواضع وإخلاص ، فلما انتقل إلى عالم الروح لم يلبث أن انضم - بحكم نهيئته - إلى جماعة الأرواح المرشدة ليواصل رسالته » .

• • •

ولانعدو الحقيقة إذا قلنا : إن روح الشيخ طنطاوى ما تزال مواظبة على الحضور الآن فى الجلسات الروحية سواء كانت فى الشرق أم فى الغرب . وهى روح مرشدة عظيمة لكثير من الوسطاء . ومنهم بالأخص نجله الكريم الأستاذ السيد جمال الدين طنطاوى . وكثيراً ما يراه ذوو الجلاء البصرى سواء فى غرف الجلسات أم فى خارجها . ونخص بالذكر منهم صهره الأستاذ (حسن صالح) الذى كثيراً ما يراه سائراً بجواره أو متكلماً معه سواء فى الطريق أو فى المنزل أو فى المصلحة التى يعمل فيها .

وللشيخ طنطاوى جوهرى رسالة روحية جليلة هو آخذ فى توصيلها من عالم الروح عن طريق وسطاء أعدُّوا أنفسهم لاستقبالها كما سنبين فيما بعد .

ويقول الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير فى حفل أقيم لذكرى الشيخ طنطاوى فى قبة الغورى يوم ٣٠ من يناير عام ١٩٤١ ، أى بعد مضى عام على انتقاله إلى عالم الروح[١] :

« نحن هنا الآن نحتفل كما جرت العادة بذكرى وفاة أستاذنا طنطاوى جوهرى ، ولو أننا سايرنا الحق والواقع لوجب أن نقول : إننا إنما نحتفل بذكرى ميلاده فى عالم الروح - عالم الخلود . وجرى العرف أيضاً أن نقول : إن فلاناً حىّ بآثاره ، وفاتنا أنه حى فى الواقع بجسمه الأثيرى (أى روحه)

---

(١) عن مجلة « عالم الروح » عدد مارس ١٩٥٦ ص ٢/١٠ .

يتابع الحياة فى عالم الروح ، ويواصل البحث والدرس . فالارتقاء هناك وقف عن العمل الصالح بالعلم الصالح والمضى فى رشف منهله . وطنطاوى جوهرى قد ترك لنا فى عالم المادة تراثاً غنيًّا وأثراً صالحاً ، وقد أبى بعد انتقاله إلى عالم الروح إلّا أن يواصل البحث والدرس ، فاختار الطب كما علمت منه فى هذا الأسبوع فقط ، ورأى أن يدرس الإشعاعات المجهولة منا والتى تصلح لإبراء الأورام الخبيثة بنوع خاص .

ولقد جبل أستاذنا طنطاوى جوهرى وهو فى حياته المادية على ألا يترك ظاهرة تمر أمامه دون بحثها وتسخيرها إن استطاع للخدمة العامة ، فلما انتقل إلى عالم الروح سار على نفس الدرب مسوقاً بذلك الطابع الدقيق : حبه للعلم وتطوعه لخدمة الإنسانية .

ولنعد القهقرى إلى سنة ١٩١٠ حيث ظهر فى سماء مصر مذنب هالى ، وكنت إذ ذاك طالباً فى المدرسة التوفيقية ، وجلست على مقهى فى حى الخليفة بجوار القلعة معتزماً السهر حتى أرى ذلك الجرم السماوى ، وإذا بجوارى شيخ وقور متواضع يسألنى من أنت ؟ ولماذا أنت هنا ؟ فلما أنبأته أمرى ورغبتى هش وبشّ ، ومضى يسامرنا سمر الأستاذ مع تلاميذه وما كان أشهاه سمراً ! ثم إذا به بعد فترة يستأذن مسلماً ، ومضى يسير منفرداً فى فضاء ميدان قره ميدان يرقب السماء . وسألت عن محدثى بعد قيامه فقيل لى : إنه أستاذنا طنطاوى جوهرى ، وأنه لا بد ماض ليرقب ذلك الجرم السماوى . وذاك كان أول عهدى به . ونعرف كلنا أنه لم يشأ أن يمر ذلك الحادث – حادث ظهور ذلك الجرم السماوى دون أن يخرج منه للمجتمع اللاإنسانى بعبرة ، فأخرج كتابه « أين الإنسان ؟ » وقارن فيه بين نظام الكون ونظام الأمم ، ودعا إلى الإنسانية الحق مستخرجاً السلام العام الذى يدعو إليه من النواميس الطبيعية والنظم الفلكية والفطر الإنسانية ، ونحا فيه منحى الداعية الروحى الصادق الأمين . ومضى فى تواليفه الكثيرة وهو بين ظهرانينا ينشر الروحية وتعاليمها القدسية ، لأن فيها كما يقول فى مقدمة كتابه « الأرواح » : « سلوة المحزونين ، وإيقاظ الغافلين ، وتعليم الجاهلين ، وإتباع الإيمان باليقين ، ورقى الأخلاق ، وتقليل النفاق ، وضعف الشقاق ، وذهاب الأحقاد ، والوثوق بحياة جديدة ، فلا يفزع الناس أشد الفزع من الممات ، ويقل بكاء الباكيات ، ويسهل احتمال النكبات وأشد الأزمات علماً بأنها طهارة للروح وإنماء للأخلاق ، ودروع سابغات ، وأجنحة بها نطير إلى العلا »

ثم دار الفلك دورته وإذا نحن بعد ذلك بما يزيد على ربع قرن من الزمان ، وبدأت أنشر الدعوة إلى العلم الروحى الحديث بشكل عملى ، فنقلت إلى العربية أحدث المؤلفات الروحية وأعمقها أثراً ، وألقيت كثيرا من المحاضرات فى مختلف قاعات الخطابة وفى كلية العلوم بالجامعة ، واستمع هو إلى معظمها وكان يرد على اعتراض المعترضين . ثم شاركنى فى إنشاء دائرتنا الروحية ، وهى أول دائرة

أنشئت فى مصر ، بل فى الشرق كله على غرار دوائر لندن الروحية ، وعلى أساس من العلم الروحى الحديث ؛ وكان أبرز أعضاء الدائرة وقاراً وعلماً وتقوى ، وظل يعمل معى ويحضر الجلسات إلى أن اختاره الله لجواره فانتقل به من عالم المادة إلى عالم الروح تتملكه باستمرار تلك الرغبة الجامحة فى خدمة الإنسانية والدعوة الى المحبة العامة . ولم تنقطع صلته بنا بعد انتقاله ، فكثيرا مايحضر جلساتنا ، ويراه وسطاء الجلاء البصرى ويسلمون عليه ، ورأيته بنفسى فى حجرة التحضير رؤية خاطفة ، فإذا بطنطاوى جوهرى المفقود مَوْجُودٌ ، وإذا بالعقل الفياض هو العقل الفياض ، وإذا بعواطفه الخيرة لاتزال متغلبة عليه ، وكثيراً ما كان يرد على أسئلتنا إما بطريق وسيط الكتابة التلقائية ، وإما بالحروف النورية يراها الوسيط المختص ، ويمليها حرفاً حرفا فى سرعة متناهية !

وقلّت فى الشهور الأخيرة زياراته لنا . حتى إذا كانت جلسة الاثنين الماضى (٢٧ من يناير سنة ١٩٤١) حضر ، ورأيته كالمعتاد رؤية خاطفة فى جبة سوداء ، ووافقنى على ذلك أصحاب الجلاء البصرى الذين أغبطهم على رؤيتهم إياه هو وصحبه من علية الأرواح رؤية مستمرة إلى أن ينصرف الجمع ، وسألته بعد تبادل السلام أين كان طيلة هذه المدة ؟ وقام أحد الوسطاء بإبلاغى حديثه .

قال : « كنت أتعلم لأنى أريد أن أخدم بنى الإنسان » .

فهلّلت وكبّرت وقلت : « لابد أنك قد بلغت الغاية التى أردتها من متابعتك الدرس ، فلما بلغتها عدت إلينا » .

قال : « نعم ، وقد تعلمت كيف أستخدم جهاز الإشعاعات الكونية وهاهو ذا فى يدى » .

ووصف لى وسيط الجلاء البصرى جهازاً أثيريا تنبثق منه جملة أنابيب ، تخرج منها إشعاعات مختلفة الألوان ، كل فى دوره ، وتستخدم فى العلاج ، وفى كشف دقائق العلة مما لاتصل إليه الأشعة السينية المعروفة الآن . ولايفوتنى أن أقول : إن هذه الإشعاعات تومض أحيانا فيراها كل من فى الحجرة من وسطاء وغير وسطاء ، ويظهر الومض فى السقف وفى الجو وفوق الأرض . وأحيانا تشع يدا الوسيط المعالج حزماً مومضة من هذه الأشعة الكونية الغريبة .

فياعجبا ! كنا نظن الموت نهاية فإذا به فى الواقع بداية ، وكنا نظنه فناء فإذا هو بقاء وأى بقاء ! وهل أغرب من أن يشترك « الميت الفانى » فى عرفنا فى خدمة « الحى الباقى » وتخفيف آلامه ؟ تلك والله آية العلم الروحى الحديث الذى نادى به طنطاوى جوهرى وأضرابه ، والذى أنشأت له جامعة كمبردج العريقة تلمذة ودراسة ، والذى لأجله ضمت جامعة لندن لمجلسها عضواً من البحاث الروحيين [١] .

---

(١) لجامعة لندن الآن مجلس للبحوث الروحية وفيها أكبر حجرة لتحضير الأرواح .

إن هذا هو حال الشيخ طنطاوى جوهرى ولم يمض على انتقاله إلى عالم الروح إلاّعام واحد . ولقد كان فى حياته المادية كثير الإنتاج ، كثير العمل ، فكيف به وقد تحرر من قيود المادة فى العوالم الروحية ؟ إنى لأنتظر منه الكثير والكثير جداً ، وسأذكره لوطال بنا الأجل فى هذه الحياة الدنيا ، ولقد صدق طنطاوى جوهرى حيث يقول فى آخر كتابه « أين الإنسان ؟ » مايلى :

« الناس غارقون : إما فى غمرة الجهل أو فى بحر حيرة العلم ! كبرت على عقولهم نظامات العالم فتلقفوا كلمات الخارجين تلقف الجهال كلمات الدجال الذى يدعى فتح الكنوز بالأحلام والأوهام . إن أكثر الناس واهمون فى قضايا الإنسانية خاضعون لمن علت كلمته ولو كان مخدوعاً » .

ولما كلفنى سكرتير جماعة الأخوة الإسلامية إلقاء كلمة فى حفل اليوم طلبت يوم الجمعة الماضى « ٢٤ من يناير سنة ١٩٤١ » إلى الروح الكبير الكريم سيلفر بيرش عميد جماعة الأرواح المتصلة بنا أن يسمح لأستاذنا طنطاوى - وقد كان خدنه الروحى وملهمه منذ أكثر من ثلاثين سنة - بأن يبعث إلينا برسالة منه وهو فى عالم الروح لأتلوها على المجتمعين فى يوم ذكراه الأولى فوعد خيراً . ثم كانت جلسة الأمس « الأربعاء الموافق ٢٩ من يناير سنة ١٩٤١ » فحضر الروح سيلفر بيرش وروح طنطاوى جوهرى والروح عبد اللطيف « الطبيب الفارسى المشهور » وجماعة أخرى من أرواح ذوى قرابتنا وغيرهم . ورآهم وسطاء الجلاء البصرى ، وطلب إلينا روح عبد اللطيف بلسان وسيطه أن نستعد لتلقّى رسالة طنطاوى جوهرى بالحروف النورية ، فأطفأنا النور الأبيض ، وأضأنا النور الأحمر ، وأعددنا العدة للكتابة ، وفيما يلى نص ماتلقيناه بالحروف النورية حرفاً حرفاً :

بيرش يتكلم :

أقدم لكم أستاذكم الكبير والروح الكريم طنطاوى جوهرى .

ثم تنحى بيرش عن الكتابة ، وبدأ طنطاوى جوهرى يكتب رسالته بالحروف النورية قال :

« إخوانى ، أقف اليوم بينكم خطيبا روحيًّا معرباً لكم عن سرورى بكم ، سرورى بهذا الحشد الكريم الذى أقمتموه فى ذكراى الأولى .

« وإنى لمسرور ومسرور جداً ، عندما أجد رجال الدين مُصْغِين ومسرورين عند سماع رسالتى المقلة هذه من عالم الروح . وأود أن تتضامنوا فى الاطلاع ونشر العلم الحديث ومافى هذا العلم . وكما قال الله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » فاعلموا أيها الإخوان أن عليكم عيونا من الله ترعاكم وتراكم .

« والآن أيها الإخوان وجب عليكم أن تتضامنوا جميعا وحبذا أنكم من رجال الدين ، فيكشف الله لكم عن هذا السرّ الإلهى الدفين ومافيه من الدين القويم .

« إخوانى - التقوى تقربكم إلى الله ، والصبر عند الشدائد وإغاثة الملهوف تجتمع فى عنصر واحد .

« سادتى ، كان بودى أن ألقى عليكم رسالتى مطولة عن هذه ، ولكنى أرى الوسيط قد تعب ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وماربك بظلام للعبيد .

« وأكرر الثناء عليكم جميعا فقد ظهرتم ملبين فى إقامة هذه الذكرى . وإننى لأدعو الله لكم أن يوفقكم لما فيه خير وفلاح والذكرى تنفع المؤمنين والسلام » طنطاوى .

تلك هى رسالة أستاذنا طنطاوى تلاها عليكم الآن بلسانى ، وإنى لأشعر به وبالروح سيلفر بيرش ، يجوارى الآن ومعهم نخبة الأرواح الطاهرة يشاركوننا فى الاحتفال بهذه الذكرى .

لقد قلت فى حفلة الأربعين إننا قد نسمعكم صوت طنطاوى جوهرى كما هو الحال فى الغرب إذ تخطب الأرواح فى المجتمعات بأصواتها المباشرة ، وتتجسد أمام الحاضرين ، فتبدو كما كانت تبدو فى حياتها المادية ، ولكننا لم نصل بعد إلى النجاح فى هذا النوع من التجارب وإن كنا ماضين فيه ، ولعلنا مستطيعوه يوما ، فتزدادوا إيمانا بأن الموت بداية لانهاية ، وبقاء لافناء . والسلام عليكم ورحمة الله .

وإلى هنا تنتهى الكلمة التى ألقاها المرحوم الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير فى حفل الذكرى الأولى للشيخ طنطاوى جوهرى يوم ٣٠ / ١ / ١٩٤١ نقلناها هنا لمافيها من فائدة ومتعة .

وجدير بالذكر أننا مازلنا ونحن الآن فى عام ١٩٧٦ على صلة بروح أستاذنا طنطاوى جوهرى ، وقلّ أن تعقد جلسة إلاّ يحضر فيها ، ويراه أصحاب الجلاء البصرى .

هارون الرشيد وطنطاوى جوهرى :

ولعل من أغرب ماحدث أن يتصل روح هارون الرشيد والشيخ طنطاوى فى إحدى الجلسات التى كان يعقدها الأستاذ فهمى أبو الخير ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ أى قبيل وفاة الشيخ طنطاوى بثمانى عشرة سنة ، ويطلب إليه أن يصحح خطأ تاريخيا وقع فيه المرحوم جورجى زيدان بصدد العباسة أخت الرشيد . وقد كان ذلك بطريق الكتابة التلقائية .

وهاهى ذى القصة من أولها كما سردها الشيخ طنطاوى فى كتابه « الأرواح »[1] .

تحرك القلم فى يد الوسيط ، وكتب بخط كوفى جميل جداً ، مايلى :

« ياأستاذ طنطاوى :

---

(١) الطبعة الثالثة - ١٩٣١ م المكتبة التجارية الكبرى .

« ولما رأيت السيف جلل جعفراً أجز فقلت : ونادى منادٍ للخليفة يا يحيى
« أسفت على الدنيا وعاتبت أهلها عليها وقلت الآن لا تنفع الدنيا
« فقال : عوفيت ياأستاذ طنطاوى . أنت عقلك كبير ، ولكنك حسن النية ، استمر فى تأليفك ، ولكن أنا أريد منك أمراً ، فهل أنت فاعله ؟ قلت : نعم ، فقال : بحق النبى ، بحق القرآن ألافعلته ، فكاد يغشى علىّ والحاضرون دهشوا لهذه المفاجأة ولماذا اختار فلانا ؟

« فأكدت له أن أفعل ذلك ، فقال : والله إن جعفراً مازنى بأختى العباسة ولازوجته إياها ولكنه رجل خانني فقتلته ، فهل تعاهدنى أن تسهر الليل وتجد بالنهار وتقرأ فى الكتب وتبحث فيها حتى تؤلف كتاباً به تطفئ النار المتأججة فى الشرق والغرب وتدفع الخطأ الذى نشره جورجى زيدان ؟

« فعاهدته على ذلك فقال له صاحب المنزل وهو يضحك : ماتقول فى والد الشيخ طنطاوى فقال : أنا أعرفه وهو سعيد ، ثم قال : تحب ياأستاذ طنطاوى أن أذكر لك اسم والدتك لأنك كنت تمتحن الأرواح فيها وذكر الحرف الأول من اسمها فقلت كفى .

« فقال صاحب المنزل للوسيط وكان يحب الضحك كثيراً : لاتضع قلمك على الورقة لئلا يقلع عين الخليفة : فقال له : ياسيدى ، أنا الآن روح من أرواح الله ولست خليفة ، فقال : ماهذا ؟ وهل لله أرواح ؟ فقال الرشيد : ياحبيبى ، تعلم اللغة العربية ثم كلمنى . وبعد ذلك أخذ الرشيد يلاطف صاحب المنزل ، فقال له : أنا لا أؤاخذك بقولك ، لأن النبى ﷺ كان يمزح ولايقول إلاصدقا ، إن أباك الآن فى درجة عالية ، وأمك صفتها كذا فقال : وماتقول فى أخى أحمد ؟ فقال : أما هذا فلاتسألنى عنه ، فقال صاحب المنزل : حقيقة أخى كان يرتكب الآثام ! ثم عطف ثانيا وقال : ياأستاذ طنطاوى تذكر وصيتى فقلت : سأعمل بها ، فكن مطمئنا .

وانتهى الحديث .

« وبعد ذلك بأيام حضر لصاحب المنزل وقال له : قل للأستاذ طنطاوى : لماذا لم يعمل بجد فيما أوصيته به ؟

« وبعد مدة قال : قل : للأستاذ طنطاوى أنا شاكر له فعله .

« وبيانه بعد أن قمت من ذلك المجلس بحثت فوجدت فى المكاتب كتابا اسمه « العباسة أخت هارون الرشيد » وماكنت اطلعت عليه قبل ذلك فاشتريته ودرسته ، وبحثت فى كتب التاريخ فوجدت الرواية خيالية والعلم يكذبها ، فألفت فعلاً كتاباً هو الآن عندى اسمه « براءة العباسة أخت هارون الرشيد » ووضع لهذا الكتاب حسن أفندى حسين - وهو كاتب مشهور بمصر - مقدمة ذكر هذه الحال كلها . . »

ثم قال : « رأيت القول فى هذه الحادثة صادف الحقيقة ، فإنى بحثت فرأيت جميع هذه القصة خيالية ، ولم يحصل هذا من العباسة وهى لم تر جعفراً والمسألة كلها سياسية بحتة .

« إن قدماء الفرس لما رأوا صولة العرب تدخلوا بينهم وقلبوا دولة الأمويين ، ولما جاءت الدولة العباسية ولم ينالوا مرادهم أرادوا قلبها أيضا ، ففتك بأبى مسلم الخراسانى أبو جعفر المنصور وبجعفر البرمكى هارون الرشيد لمقاصد سياسية ، والكتاب قد شرح هذه النقطة شرحاً وافياً مستمداً من جميع المؤرخين قديماً وحديثاً . . »

تحقيق جديد :

وهكذا كان الاتصال بعالم الروح سببا فى تصحيح هذا الخطأ التاريخى الذى وقع فيه جورجى زيدان وكان كاتباً من كبار الكتاب فى مصر ، وكان كتاب « براءة العباسة » الذى صحح هذا الخطأ نتيجة لحضور الشيخ طنطاوى تلك الجلسات الروحية التى كانت تعقد بانتظام فى « دائرة القاهرة الروحية » .

وفى الحقيقة أن روح الشيخ طنطاوى ماتزال -كما قلنا - مواظبة على الحضور حتى اليوم فى الجلسات الروحية ، وبالأخص الجلسات التى تعقدها « الجمعية الإسلامية الروحية » بالقاهرة ويهيمن فيها أستاذنا طنطاوى على نجله الكريم الأستاذ جمال طنطاوى .

ولقد ظهرت روح الشيخ طنطاوى بعد انتقاله إلى العالم الآخر بخمسة أشهر ، مع روح هارون الرشيد والعباسة ، وجعفر البرمكى ، فى إحدى الجلسات التى يروى لنا تفاصيلها الأستاذ فهمى أبو الخير فيما يلى[1] :

كان لابد وقد اتصلنا بعالم الروح أن نجرى تحقيقا جديداً وتم ذلك فى جلسة كنا عقدناها فى يوم السبت الموافق ١١ من يونية سنة ١٩٤٠ ، وحضر اثنان من وسطاء الغيبوبة واثنان من وسطاء الجلاء البصرى ووسيط استدعاء الأرواح ووسيط الكتابة التلقائية .

ووقع الوسيط أبو سريع فى الغيبوبة ، وتكلم بفمه أولاً الروح هوايت إيجل وهو روح معالج ، ثم سلم وانصرف مخليا المكان للروح المسمى سيلفر بيرش ، وماهى إلا لحظات حتى تكلم هذا الروح بلسان الوسيط بنبرة تخالف نبرات سابقه . وعرضنا عليه الأمر ، فطلب إلينا عقد جلسة الكتابة التلقائية لأن الوسيط متعب ؛ ومن ثم لايمكن استمرار التواصل طويلاً بطريقة تفوهات الغيبوبة . وفعلاً أطفأنا النور الأحمر وأضأنا النور الأبيض المعتاد ، وأعد وسيط الكتابة التلقائية وديع ميخائيل نفسه

(١) مجلة « عالم الروح » العدد ١١ السنة الأولى - سبتمبر ١٩٤٨ ص ٥/٩ .

للكتابة ، وجلس أمامه وسيطا الجلاء البصرى زكى وحسن ، ووقف وراءه وسيط استدعاء الأرواح حامد أبو الخير ، وتعاونت الأرواح والوسطاء و بدأ وسيط الكتابة التلقائية يكتب ، فكتب مايلى :

« سيلفر بيرش

« السلام عليكم ، لم أستطع مخاطبتكم طويلاً بفم الوسيط الواقع فى الغيبوبة لتعبه ، ولقد تقابلت بعد انصرافى وهارون الرشيد وكلمته فى هذا الموضوع ، فكان سروره لايقدّر ، وسيحضر الآن ومعه طنطاوى ، فاطلب منهما ماتريد » .

روح هارون الرشيد :

وبعد ذلك كتبت يد الوسيط مايلى ووسيطا الجلاء البصرى يريان « طنطاوى » ومعه هارون الرشيد يحف بهما وقار كبير :

« السلام عليكم - الرشيد »

فقلت « نحن مسرورون جداً لتشريفكم ، ونود منكم كلمة بخصوص ماكنتم كلفتم أستاذنا (طنطاوى جوهرى) القيام به وهو فى عالمنا لكى نضمها إلى مقالنا »

قال : « سرور عظيم وشكر جزيل أقدمه إلى حضراتكم على هذا.كم كنت حزينا ومتألما جد الألم مما كتب عن أختى العباسة بيد السيد جورجى زيدان ! ولذا حاولت الاتصال بأى طريق بمن يمكنه تصحيح الخطأ ، وكان أن أسعدنى الحظ وساقنى إلى مقابلة السيد العظيم سيلفربيرش فدلنى على وسيطه بالإلهام السيد العظيم طنطاوى ، وجعلنى أتصل به وتعاهدنا على تصحيح الخطأ الذى جاء برسالة السيد جورجى زيدان ، فعاهدنى على ذلك ، ولقد وفى بعهده ، وكان من طبيعته الوفاء فى عالمكم كما هو الآن فى عالمنا ، ولقد زاد سرورى جداً بسنوح تلك الفرصة التى ستعيد فيها ياسيد أحمد (أبو الخير)الإفصاح عن الخطأ فى رسالة السيد جورجى زيدان ، وتعيد إلى العباسة انشراحها وسرورها ، فتصحح تاريخها ، وهى - وإن كانت أنابتنى فى الشكر - ستحضر بنفسها الآن وتقدم لكم الشكر . الرشيد » .

روح العباسة أخت الرشيد :

وكفّ وسيط الكتابة التلقائية عن الكتابة ، وقال أحد صاحبى الجلاء البصرى ووافقه صاحبه على ماقال : « أرى سيدة تسير الهوينى فى عظمة الأميرات وقد أمسكت بيدها اليمنى ثوبها من فوق ركبتها ترفعه لأنه يتدلى على الأرض ، والسيدة بدينة قصيرة سمراء فى لباس خارجى أسود . وعلى وجهها

نقاب لاتظهر منه إلاّ عيناها . ولما خلعت نقابها وملابسها الخارجية تبدت بملابس بيضاء ناصعة ، وظهرت عيناها النجلاوان الواسعتان . » وقال وسيط استدعاء الأرواح « هذا أول ظهور لها فى الأرض بعد انتقالها » .

وبدأ وسيط الكتابة التلقائية يكتب فكتب مايلى :

« طنطاوى

« لم يترك لى السيد هارون ماأقوله لحضرتكم ، وإننى لاأستحق كل ماجاء بكلمته بخصوصى ، ولا يسعنى إلا أن أقول لكم شكراً ثم نجاحاً وسروراً تاما يَهَبُهُمَا الله لكم عن قريب . طنطاوى »

ثم إذا بالوسيط يكتب :

« العباسة

« تحيتى إليكم يامعشر الروحانيين . كان ألمى شديداً لما جاء برسالة السيد جورجى زيدان ، ولقد كان تصحيح السيد طنطاوى بمثابة الحكم الابتدائى بالبراءة ، وستجىء كلمتكم ياسيد أحمد (أبو الخير) وكأنها تأييد لحكم البراءة فى الاستئناف ، فشكراً ثم شكراً .

« وإليكم حادثة تثبت لكم البراءة ، وقد تكون بمثابة النقض والإبرام ياسيد أحمد :

« لقد قيل للرشيد فى يوم من الأيام : إن جعفراً ذهب إلى دار العباسة ليقضى معها بعض الوقت يطفىء فيه مايعانيه من نار الشوق والغرام ، فجاء الرشيد بنفسه متخفيا فى ثياب أحد الخدم كى يرى من بالدار ؟ وإذا بالدار خاوية إلاّ منى ومن الخدم ! فخجل وكان ندمه شديداً على تصديق ماسمع ، وعاد ولم يصدق بعد شيئاً . . العباسة »

روح جورجى زيدان :

ولما كف الوسيط عن الكتابة طلبنا (روح جورجى زيدان) فقيل لنا : إنه موجود ؛ والتفت صاحبا الجلاء البصرى إلى ركن آخر من أركان الحجرة وإذا بهما يريانه بملابسه الفرنجية عارى الرأس ، ثم اقترب من الوسيط ، وإذا بهذا يمسك القلم ويكتب :

« إننى ياسادة أتقدم تقدم من يريد الاعتراف بخطأ كى يكفر أولا عنه ثم يبرئ ناساً كانوا أفضل مايكون ، ولكن ساءت سيرتهم بما كان منى ، فأستسمحكم الآن كما سبق أن استسمحت الرشيد وأخته عند انتقالى إلى عالم الروح . . جورجى زيدان »

واسترخت يد وسيط الكتابة ، وطلبنا روح جعفر ليقول لنا كلمة فى الموضوع وهنا قال أحد صاحبى الجلاء البصرى : « أرى رجلاً يمسك بيده ورقة » .

وقال وسيط استدعاء الأرواح : « تلك رسالة لدعوة جعفر » .

روح جعفر :

وحضر روح جعفر البرمكى يتقدمه اثنان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وبدا طويل الجسم ، طويل الشارب ، كبير الرأس ، ممتلئ البدن ، قمحى اللون فى سمرة ، واسع العينين ، عريض الحاجبين ، واسع الجبهة . على رأسه عمامة تشبه عمامات الهنود ؛ وكتبت يد الوسيط :

« البرمكى

« إن قلت : ليلة سعيدة فغير كاف ، وإن قلت : أنا أسعد حالاً منى يوم كنت فى عالمكم ، وخاصة لحضورى الآن - فغير كاف أيضا ؛ وإنما أقول لكم : إننى مسرور جد السرور بظهور براءة من اتهمت معها بغير حق ، تلك فرصة يندر أن تتاح مرة أخرى كى نظهر فيها جميعا براءة العباسة ، ويعترف فيها المخطئ بخطئه ، ثم نعود فنتصافح معاً كما تصافح القاتل والمقتول !

« إننى عاجز عن التعبير عن مقدار شكرى - جزاكم الله كل خير . ووهب لكم كل نجاح ، وجعلكم رسل الروحية فى الشرق أجمع بعد أن قبرت فيه وقد كان مهدها . . البرمكى »

قلت : « الحمد لله أن تصافحتم جميعا »

قال : « وستتصافح أمامكم »

وبعد ذلك وصف صاحب الجلاء البصرى ما تم فقال : « أرى الشيخ (طنطاوى) يتقدم ويجمع بينهم ، فتقدم جعفر وصافح هارون الرشيد أولا ثم انحنى أمام العباسة . وأرى (جورجى زيدان) يتقدم ويصافح الرشيد ، ثم هو ينحنى أمام العباسة ثم يصافح (جعفراً) وتقدم من طنطاوى مصافحا وكأنه يقول : « أنت السبب فى إظهار الحقيقة فى الأرض وفى عالم الروح » .

* * *

ونقف بحديث هذه الجلسة عند هذا الحد ، لننتقل إلى جلسة أخرى كان قد عقدها السيد الإمام الأستاذ رافع محمد رافع رئيس « الجمعية الروحية الإسلامية » فى ١٣ من يناير ١٩٦١ [1] .

وقع السيد جمال طنطاوى تحت هيمنة واعية من أبيه أستاذنا الشيخ طنطاوى ، وتفوه بحديث طويل لامجال لنشره هنا ، ولكننا نكتفى بالفقرات الأخيرة التى اختتم بها الحديث :

---

(١) عن « البناء » الجزء الثالث للجمعية الروحية الإسلامية .

« . . لاأطلب لنفسى أكثر مما أطلب لإخوانى . إنى أطلب لهم ماأطلب لنفسى من الله ومن ربى ومن شهودى ومن معتقدى وموجودى ومن أحديته معلومة لى فيما أعلم من فنائى فيه ومن واحديته معلومة لى ، ومن بقائى به عبداً له ، ومن نطقى بما يريد بإرادته . ومن فعلى لما يريد بحكمته فناء وبقاء برسوله إلى بمعنى الفناء فيه والبقاء به ومن وجهتى بما يريد برحمته . لاحول لى والحول له ، ولاقوة لى والقوة له ، لافعل لى والفعل له ، ولاوجود لى والوجود له ، لاوجه لى والوجه له . .

« هذا ماكان فعلى وعملى ودعوتى . وهذا هو مايقوم عليه اليوم بعثى وحركتى إن سُميت لى حركة ، وفعلى إن سمى لى فعل ، وقولى إن نسب لى قول .

« إننى فى يومى أشبه ما أكون بأمسى وماقد أكون فى غدى . . فى جوهر الأمر لاأزداد فى الله إلاّ بما يزداد به الناس من وعى عنه وقيام به وبروح منه من روحه منه على أرواحهم ، ونورٌ من نوره على نور يتخلل أوانيهم ، وعلم من علمه يحل بكيانهم كتباً له وإعلاماً عليه .

« هذه هويتى وهذا مرتقاى . لامرتقى لى إلاّ أن أكون خادماً لله بخدمة الناس ، خادماً لله بخدمة عباده ، خادماً لله بخدمة إخوانى ، خادماً لله بخدمة أحبابه ممن يحب من أحب ومن لاأحب ،ومنى من كان معى فى هذا وأنا منه . وإنى من حيث أنا فإنما أحب الناس جميعا . أغفر لمسيئهم إساءته ، وأسأل الله أن يغفر لى وله . وأرتضى من المحسن إحسانه ، وأسأل الله أن يزيد لى وله ، وأن يقبل منى ومنه .

« وأما أنا فحسبى أن أكون فى خدمة الناس ، وأن أرى الله راضيا عمن يرتضى من الناس بلا فرض منى بشفاعة ، ولكن بمحبة منه لى ولهم . فى محبته لهم أشعر بمحبته لى . وإنى فى حبى لهم أشعر بحبى له . . أنا والناس ، أنا من الناس ، أنا فى الناس والناس فىّ . . أنا منهم وهم منى عباداً له . هذا ماأريد أن يبقى لى نعمة منه علىّ لاتنقطع ، وعطاء منه غير مجذوذ لى ولهم .

« هذا وعيى ياأخى . وهذا إدراكى ، وماأحب أن يكون وعيك وإدراكك ووعى الناس وإدراكهم - أنى مافارقت الناس فى الأرض وماأحببت أن أفارق الناس فى الأرض ، ومافارقت من عرفت ومن عرفنى من الناس فى عالم الروح أو فى عوالم الروح ، ولاأحب أن أفارقهم فى غدى أو أن أفارقهم فى يومى . إن أُنسى بالله فى أنسى بهم ، ومعرفتى فى الله فى معرفتى بهم .

« إنى أشهدهم بوعيى وأشهدهم بمحبتى حتى لو كنت لاأرى لهم وجوهاً أوأعرف لهم أسماء ؛ فإنى أحبهم جميعا ظهروا لى أو لم يظهروا تسموا عندى أو لم يتسموا . انضموا إلىّ أو لم ينضموا ، رأيتهم فى حاضرى أو لم أرهم . إنى أرى ماأرى فى حاضرى أنه عين ماكنت أرى فيما لاأرى من قديمى وهم

عين ماسوف أرى فى قادمى ، وفى مواصلة حياتى فى حيوات الناس . فى حيوات الإنسان فى حياة الله قديمة قائمة متواصلة .

« هذا ماأحب أن يعرفه إخوانى من أهل الأرض ، وماأحب أن يعرفه إخوانى من عوالم الروح ، ومن عوالم الكواكب ، ومن عوالم الإنسان ، ومن عوالم النفوس ، ومن عوالم العقول ، ومن العوالم الحمراء أو السوداء ، ويعرّفوا به بدورهم لمواصلة أنفسهم .

« إنى لاأرى فى نفسى إلاّماأصرح به ، ولاأحب أن يكون لى إلاّ ما أرى . إنى لأطمع من الله فى مزيد مما أنافيه إلاّ فى مزيد من رحمته بالناس ، وكرمه على الناس ، وتعريفه للناس وتعليمه للناس ، وتحقيقه للناس ؛ فى هذا نعمتى ، وفى هذا رضاى ، وفى هذا عطائى وإرضائى ، وفيه علمى عنه وتعارفى إليه .

« هذا ماأقول ، وهذا مافيه وبه أقوم ، وهذا ماأعتقد . وهذا ماأحب لنفسى ولإخوانى أن يعرفوه وأن يعتقدوه وأن يحبوه وأن يكونوه فى حاضرهم ، وفى قابلهم ، وأن يتعظوا بمايظهر الله لهم من آياته فى أنفسهم وفى الآفاق . وفى ماضيهم ،وفى ماضى الناس ، وفى حاضرهم ، وفى حاضر الناس ، وفى قابلهم ، وفى قابل الناس .

« لا إله إلاّ الله . . هذا يقينى وكتابى وقيامى وعقيدتى ، وإن صح أن تكون لى رسالة - فرسالتى ، وإن صح أن تكون لى دعوة - فدعوتى . . وإن صح أن يكون لى أمر - فأمرى . . وإن صح أن يكون لى مجاهدة - فمجاهدتى . . وإن صح أن تكون لى استقامة - فطريقى واستقامتى . .

« لا إله إلاّ الله وحده لاشريك له . الكل معه عباد . وما العباد إلاّ وجوهه ، وما العباد إلاّ أسماؤه وصفاته وذكره المحدث من ذكره القديم كما تحدثت وأتحدث دائما . .

« إن الله لانهائى بلا بداية ، لانهائى بلانهاية ، لاإله إلاّ الله . الله لانهائى فى قيامه . . لاإله إلاّ الله . لانهائى فى صفاته ، لانهائى فى ذاته ، وفى خلقه ، لانهائى فى حقه . . لانهائى فى كرمه وجوده . . هذه عقيدتنا فى (لا إله إلاّ الله) ياأخى أراها فى نفسى ، وأراها فيمن نتحاب معاً ، سواء أحببته كما أحببتك ، أو أحبنى كما أحببتنى ؛ فإننى إن أحببتك كنتك ، وإن أحببتنى كنتنى . . ومن أحب شيئا كانه فى قانون الفطرة .

« إن الله فى المحبة يوجد ما وجدت المحبة وما وجد الحب ومن يحب . « هذا ديننا ياأخى ، وهذا يقيننا ياأخى ، عليه نحيا ، وعليه نموت ، وعليه نبعث ، وعليه نبنى ، وبه نرقى ، وبه نتجدد (لا إله إلا الله) . .

° ° °

وفى جلسة أخرى جاءت على لسان الوسيط كلمة قيمة كانت مقدمة للجزء الأول من مجموعات « ألواح مابين قبر ومنبر » التى تصدر عن « الجمعية الإسلامية الروحية » بالقاهرة ضمن سلسلة نشر الثقافة الروحية ننقلها فيما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى جعلنى قادراً على أن أُذكِّر المسلمين فى كتاباتى وتآليفى أن الإسلام هو دين العقل ، وليس بدين الخوارق والمبالغات والأوهام .

والإسلام دين يقبل بالعقل ، ولايقبل أبداً بغير ذلك .

العلم هو كل شىء فى الحياة ، مادام هذا العلم المقصود به وجه الله ومعرفة الله .

فيأيها القارئ الكريم ، اقرأ هذه الكلمات ، ولاتجعل من نفسك قاضيا على مافيها من علم ، ولا تجعل من نفسك عالما ، فيمتنع عنك العلم ، ويحتجب عنك النور !

أيها المسلم الكريم ، أهدى إليك هذه الكلمات البالغات التى خطها بفيض أنوار رسول الله ﷺ :

مثل للتقوى ، ونبراس للإيمان ، وإمام لليقين.

اقرأ ففيها حلاوة وجمال ، يدرك لكل ذى قلب سليم

الخير من ورائها ، والحنان والحب يستمد منها

والله يهدى إليه من يشاء .

الروح الكاتب لهذه المقالة

أخوك

طنطاوى جوهرى

° ° °

وهكذا نرى مما سلف أن للشيخ طنطاوى - كما قلنا من قبل - رسالة روحية جليلة هو آخذ فى توصيلها من عالم الروح عن طريق وسطاء أعدّوا أنفسهم لاستقبالها وبالأخص نجله الأستاذ المهندس السيد جمال الدين الذى سمعت منه عن لسان أبيه كلمة تعد من جوامع الكلم يحسن أن نختم بها هذا الفصل من الكتاب وهى : « كلنا نحب الحياة ، ولكن ما الحياة ؟ الحياة هى أن تعرف من الله عن الله ماتدرك به الله فى نفسك ! » .

الفصل السابع

الداعى إلى السلام العالمى

لقد كان الشيخ طنطاوى جوهرى شأنه شأن المصلحين الرواد فى مطلع هذا القرن . لم يقف عند الإصلاح الاجتماعى والإصلاح الدينى ، بل امتد نشاطه إلى ميدان الوطنية ، فكان فى كتاباته يخاطب كل عاقل يريد الحياة ، ويدعو إلى الاطلاع على الحقائق من أى دين وأى نحلة من بلاد الشرق ، لأن بحثه عام للكائنات ، ودعوته عامة كيما يلحق الشرق بالأمم الغربية فى المعارف والعلوم والمدنية والحضارة . وكان يدعو إلى السلام العام الذى ألف من أجله كتابيه : « أين الإنسان ؟ » ، و « أحلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام ؟ » .

وهذان الكتابان - وسبق أن تكلمنا عنهما فى الفصل الثانى الخاص بمؤلفاته وآثاره المكتوبة - **يستخرجان السلام العام على أساس الفطرة الإنسانية ، وقد أوضح فيهما أن مدنية اليوم حيوانية ، فدعا الناس إلى الإنسانية الحق التى يقوم فيها السلام على المحبة وتبادل المنافع .**

وقد توجه بكتابيه هذين إلى فلاسفة الأمم وقادتها ، فدعا الأولين لبحث هذا الموضوع ، والآخرين للتعاون على العمل . . وكان لهما وقع عظيم فى المحيط الدولى ، وأثر كبير فى نفوس دعاة السلام .

وتكلم المستشرقون كثيراً عن هذين الكتابين القيمين وأوفوهما حقهما من الثناء مما لا يدع لنا مزيداً من القول .[1]

ولعلنا لا نحتاج بعد ما شهد به هؤلاء الأعلام إلى القول بأن الشيخ (طنطاوى) كان بالحق داعية الشرق كله للسلام فى هذه الآونة . وحسبنا اعتقاداً بإيمانه بالسلام مارد به على الأستاذ الدكتور زكى

---

(١) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب «الشيخ طنطاوى فى نظر المستشرقين» .

مبارك حين اتهمه بأنه مخدوع بتقديم كتابه للترغيب فى السلام بين أهل الأرض وهم يعيشون فى ظل القوة الجامحة ، فردّ الشيخ عليه قائلا : « إن لم يكن فى هذا الكتاب إلاّ أن القوم يعرفون أن الإسلام لا ينافى السلام فذلك كاف . إن القوم المدججين بالسلاح برًّا وبحراً وجو ينادون (السلام السلام) فى وقت إلقاء قذائفهم على الآمنين الوادعين ، ونحن محرومون من تلك القوة ! أفلا يحق لنا أن نجاريهم فى أقل الجهادين ؟

لا خيل عندك تهديها ولا مال : فليُسعد النطق إن لم تسعد الحال »

ترشيحه لجائزة نوبل :

تقدم الشيخ طنطاوى بنفسه إلى لجنة نوبل لنيل هذهً الجائزة بالبرلمان النرويجى فسألت عنه وزارة الخارجية المصرية ، وهذه سألت عنه وزارة المعارف العمومية ، فاهتمت الوزارة بترشيح الشيخ طنطاوى لنيل جائزة « نوبل » كأول مصرى يرشح لهذه الجائزة .

ولم تر الوزارة بدًّا من النظر فى طلب الأستاذ وإحالة كتبه إلى عميد كلية العلوم (الدكتور مصطفى مشرفة) لفحصها وإبداء رأيه فيها ، والكتب المقدمة هى :

١ - أحلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام ؟

٢ - أين الإنسان ؟ وقد تقدم به إلى مؤتمر الأجناس العام سنة ١٩١١ .

٣ - صورة ما كتبه بعض عظماء ملوك الشرق ، وجمعيات أوربا وعلمائها فى هذين الكتابين .

٤ - أساس النظام الدولى ، والموازنة بين آراء حكماء الشرق والغرب ، وبين الرأى المصرى الحديث .

٥ - نسخة منقولة من المجلة الشرقية بروما بتاريخ سنة ١٩١١ للأستاذ سانتيلانة الدكتور فى الفلسفة .

٦ - نسخة مما أرسله الأستاذ كريستيان جوب من لوكسنبرج مكتوباً باللغة الفرنسية إلى المؤلف ، وقال : إنه ملخص من كتاب « أحلام فى السياسة »

وهذه الكتب والرسائل تتجه كلها اتجاهاً عاليا فى الدعوة للسلام ، ونصيب الإنسانية من السعادة إذا ما رفرف عليها علمه وسار فيها نظامه .

وكان من شروط التقدم لمثل هذه الجائزة أن يكون صاحب المؤلفات من أساتذة الجامعة أو أن يرشحه أحد الوزراء أو عضو فى البرلمان أو أستاذ جامعى فى الفلسفة أو التاريخ أو القانون أو السياسة .

ولقد تطوع لترشيحه الأستاذ الدكتور مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم آنئذ ، والدكتور

عبد الحميد سعيد عضو البرلمان والرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين ، فأخذت وزارة الخارجية بهذا الترشيح ، وأرسلت مؤلفات الأستاذ إلى البرلمان النرويجى مشفوعة بتقرير عن جهوده فى سبيل العلم والسلام ، وشهادات علماء إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا فى قيمة مؤلفاته [١] .

ولكن . . ولكن القدر عاجل أستاذنا فوقف كل شىء فى هذا الصدد لأن جائزة نوبل لا تمنح إلاّ لعبقرى يكون على قيد الحياة . .

---

(١) مجلة «الرسالة» العدد ٢٩٣ السنة السابعة ١٣ من فبراير ١٩٣٩ .

الفصل الثامن

الشيخ طنطاوى
فى كتب المؤرخين وآثار الدارسين

كان لبعض العلماء والكتاب والدارسين فى مصر والهند وباكستان وإيران وغيرها من بلاد أخرى - عناية كبيرة بالشيخ طنطاوى جوهرى وآثاره ، يجب أن تذكر ، فتشكر .

هذا عدا دراسات المستشرقين التى أفردنا لها فصلاً خاصا .

ونورد فيما يلى أسماء الذين اتجهوا لدراسة شيخنا العظيم وبذلوا جهداً مشكوراً سواء فى التعريف به ، أو دراسة آثاره ، أو الكتابة عنه :

١ - الدكتور محمد حسين الذهبى ، وزير الأوقاف وشئون الأزهر سابقا . فى كتابه « التفسير والمفسرون » وهو بحث تفصيلى عن نشأة التفسير وتطوره ، وألوانه ومذاهبه ، مع عرض شامل لأشهر المفسرين . وتحليل كامل لأهم كتب التفسير ، من عصر النبى ﷺ إلى عصرنا الحاضر . ، وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب أفرد المؤلف فصلاً كاملاً طويلاً أتى فيه بالدوافع التى حملت الشيخ (طنطاوى) على كتابة تفسير « الجواهر » ، ومتى وكيف شرع فى كتابة هذا التفسير وغرض المؤلف من تفسيره ، ومسلك المؤلف من تفسيره ، وطريقة المؤلف فى هذا التفسير ، ونماذج من هذا التفسير ؟ وختم الدكتور الذهبى دراسته فى تفسير « الجواهر » بقوله :

« هذا هو تفسير الجواهر ، وهذه نماذج منه وضعتها أمام القارئ ، ليقف على مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية على قلم مؤلفه وقلبه . . والكتاب - كما ترى - موسوعة علمية ضربت فى كل فن من فنون العلم بسهم وافر ، مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازى ، فقيل عنه :

« فيه كل شيء إلاّ التفسير » ، بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به ، وإذا دلّ الكتاب على شيء فهو أن المؤلف رحمه الله كان كثيراً ما يسبح فى ملكوت السموات والأرض بفكره ، ويطوّف فى نواح شتى من العلم بعقله وقلبه ، ليجلى للناس آيات الله فى الآفاق وأنفسهم ، ثم ليظهر لهم بعد هذا كله أن القرآن قد جاء متضمنا لكل ما جاء ويجيء به الإنسان من علوم ونظريات ، ولكل ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث تحقيقا لقول الله تعالى فى كتابه : (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) ولكن هذا خروج بالقرآن عن قصده ، وانحراف به عن هدفه ، وقد عرفت رأينا فى المسألة فلا نعيده » [١] .

٢ - الدكتور محمد محمد حسين أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة الإسكندرية فى كتابه : « الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر » أبرز الدور الذى قام به الشيخ طنطاوى فى مكافحة الكفر والإلحاد بأنه « قد سلك إلى ذلك طريق العلوم الحديثة : من رياضة وفلك ونبات وحيوان وطبيعة وكيمياء وكل ما اكتشفه العقل البشرى ، ودعا المسلمين إلى تعلم هذه العلوم موقنا أن ذلك هو أقوى السبل وأقومها إلى إدراك إعجاز القرآن ومعرفته حق المعرفة ، ورد الزائغين إلى هديه الذى لم يقدروه حق قدره والذى صرفهم عنه هذه العلوم الحديثة نفسها ، فهى خليقة أن تردهم إليه اليوم ، كما صرفتهم عنه بالأمس » [٢]

ويقول فى موضع آخر من الكتاب : « وقد كانت ثقة الشيخ طنطاوى كبيرة بنهضة المسلمين واستعادتهم مجده : عمارتهم الأرض ، وإصلاحهم ما آل إليه أمرها من فساد واضطراب . وكانت هذه الفكرة تنزل من نفسه منزلة اليقين الذى لا يخامره فيه شك . وقد لازمته منذ فجر حياته العلمية إلى نهايتها ، يجدها القارئ مبثوثة فى ثنايا كتبه جميعا » [٣] وقد استغرق ما كتبه عن الشيخ طنطاوى فى هذا الكتاب عشر صفحات من الحجم الكبير .

٣ - الأستاذ مصطفى محمد الحديدى الطير عضو لجنة تنسيق التفسير الوسيط بمجمع البحوث الإسلامية فى كتابه « اتجاه التفسير فى العصر الحديث » بسلسلة البحوث الإسلامية - أفرد فصلاً خاصا بتفسير « الجواهر » قال فى مستهله :

« . . . وقد عرفت الشيخ (طنطاوى) شخصيا ، فوجدت له دينا قيما وقلبا نقيا وحبا لدينه عارما ، ووجدت فيه الرغبة القوية فى توجيه المسلمين إلى الإيمان الراسخ بالله تعالى بالنظر فى ملكوته

---

(١) « التفسير والمفسرون » ص ١٨٣ جـ ٣ - ١٩٦٢ م .

(٢) ص ٣١٠/٣١٢ الجزء الثانى طبعة ١٩٥٦ .

(٣) ص ٣١٥ .

وآثار نعمته ورحمته ، ولقد كان هذا الشيخ ، رحمه الله ، مغرما بتفسير القرآن الكريم على نمط علمى اختطه لنفسه ، لم يسبقه إلى مثله ولم يقلده فيه أحد . وكان تفسيره على هذا النمط مقصوراً على طلبته بدار العلوم أيام تدريسه لهم ، ثم بدا له أن يتم تفسيره على هذا النمط وينشره بين الناس راجيا أن يفهموا به العلوم الكونية ، وأن يكون داعيا حثيثا للشبان الموحدين إلى درس العوالم العلوية والسفلية »

وفى رسالة منشورة فى مجلة « عالم الرّوح » بالعدد السادس بتاريخ شهر أبريل ١٩٥٦ جاء فيها :

« حضرة الأستاذ العلامة العالم الروحى الأكبر السيد أحمد فهمى أبو الخير مؤسس المدرسة الروحية الأولى بمصر .

« السلام عليكم ورحمة الله ، أما بعد فقد قرأت فى عدد (عالم الروح) الخامس من السنة التاسعة مقالكم الجليل فى المغفور له العلامة الشيخ طنطاوى جوهرى مؤلف كتاب « الأرواح » والرائد الروحى الأول بمصر ، وفى هذا المقال أعطيتم الرجل حقه ووفيتموه مجده ، وأدخلتم السرور على أحبابه وأحبابكم ، حيث ذكرتم أنه يحضر جلساتكم الروحية ، وأنكم والوسطاء رأيتموه رأى العين وأنه حضر جلسة الاثنين ٢٧ /١/ ١٩٤١ ، وأنه كان يتعلم استخدام جهاز الإشعاعات الكونية ، وذكرتم أن الوسطاء رأوا الجهاز فى يديه ، وبهذا الجهاز يكشف العلة ويعالج المريض ، فاستولت على نفسى هذه الأنباء فأكبرتها وأكبرت ناشرها وترحمت على مصدرها .

« وبهذه المناسبة أكتب إليكم طرفا مما عرفته عن الأستاذ « جوهرى » فى آخر حياته ، ومنه تبدو ناحية يجهلها الناس عنه ، لأنه كان لا يحب الإعلان عن نفسه : ففى عام ١٩٣٦ جاءه ستة من طلاب الجامعة المصرية مع نجله الضابط الهمام جمال ، وكان وقتئذ طالبا ، وكان هؤلاء الطلاب يريدون التحدث مع الشيخ فى العقيدة الإسلامية رغبة فى دعمها ، فدعانى الشيخ ودعا معى عالما آخر انتقل إلى الملإ الأعلى رحمه الله ، وكان الغرض من دعوتنا التحدث مع هؤلاء الطلاب فى حرية تامة حتى يصلوا من دينهم إلى ما يحبون مما يدعمه البرهان .

وانتهى الاجتماع (بنتائج) سارة مع هؤلاء الطلاب أدّت إلى أنهم جاءونا فى مثل تلك الليلة بإخوان لهم للغرض ذاته ، فنشأ درس الثلاثاء لهؤلاء الطلاب ، وقد أتى هذا الدرس على مدى الأيام ثمرات جنية فيهم وفى غيرهم ، حتى وجد فى الجامعة رعيل إسلامى عظيم منه اليوم أساتذة فى الجامعات وفى المعاهد العلمية المختلفة وموظفون فى مصالح الدولة .

وقد أصيب الشيخ فى آخر حياته بأمراض مختلفة لم ينفعه معها علاج الأطباء لتقدمه فى السن ، فرأى برأيه الثاقب أن خير علاج لأمراضه أن يأكل طعامه كما خلقه الله دون أن يطهى بالوقود ، فكان يشرب لبن الضرع دون أن يغلى ، ويأكل الفواكه والخضراوات نيئة ، وقد شفى بذلك من كل

أمراضه ، وهذه المعلومات حدثنى بها حين كنا فى حفلة لتكريم السيد عزمى القطان محافظ المدينة المنورة وقتئذ ، وذلك أننى رأيته يعفّ عن الشاى واللبن والحلوى ، ويقتصر على تناول الفاكهة ، فلما سألته عن سرّ ذلك أخبرنى بأمره الذى أسلفته ، وكان حلو الحديث ، جميع الفكر ، واسع الأفق ، طيب النفس ، كريم الأخلاق .

وكان بيته كعبة لعلماء إيران ، وكان أهم ما يعنى به سفير دولتهم بعد تعيينه بمصر أن يزور منزل السيد طنطاوى جوهرى صاحب تفسير الجواهر الذى له فى بلادهم شهرة واسعة النطاق ليرى البحر الطامى ويسمع هديره شخصيا .

رحم الله الراحل الثاوى ، وسما بروحه إلى ملأ الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا ، وجزاكم عن إحيائكم لذكراه بهذا الفيض من الكشوف العجيبة أحسن الجزاء . والسلام عليكم ورحمة الله .

مصطفى محمد الطير

أستاذ بالأزهر

٤ – المرحوم الأستاذ الشاعر على الجمبلاطى ، المستشار للغة العربية فى وزارة التربية والتعليم بمصر ، وقد ألف كتيبا بعنوان « ذكرى طنطاوى جوهرى » فى سلسلة « اخترنا للطالب » (صدر فى ٧ فبراير سنة ١٩٦٢) . وكان غرضه من تأليف هذا الكتيب الصغير فى حجمه الغزير فى مادته وقيمته أن يقدم للنشء من أبناء هذا الجيل « سيرة فيلسوف الإسلام فى العصر الحديث » الذى لم تشتهر فى الشرق شخصية من المصريين كما اشتهر ، وقد قرظ تواليفه فلاسفة الأمم النَّاهِضَة : فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا ، ذلك العالم الدينى الإسلامى الوطنى ، والعالم الاجتماعى العالمى ، المغفور له الشيخ طنطاوى جوهرى »[1]

ولـلأستاذ الجمبلاطى أيضا مقال قيم بعنوان « أين الإنسان وجائزة نوبل ؟ » بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ٧ فبراير ١٩٦٩ .

٥ – الدكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب

فى كتابه : « اتجاهات التفسير فى العصر الحديث »[2] أفرد الفصل الثالث منه عن الاتجاه العلمى فى تفسير القرآن ، وذكر طائفة من المفسرين الذين سلكوا هذا النهج من التفسير ، ومنهم الشيخ طنطاوى جوهرى . .

---

(١) ص ٦ و ٧ .

(٢) الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٣ .

يقول الدكتور المحتسب فى سياق حديثه عن الشيخ طنطاوى :

« وسمّى طنطاوى جوهرى تفسيره « الجواهر فى تفسير القرآن الكريم » لأنه جعل الجوهرة بدل الباب أو الفصل ، والجواهر تتفرع عنها الماسة الأولى والماسة الثانية وهكذا . .

« وطريقته فى تفسير القرآن أن يبدأ بالتفسير اللفظى للآيات التى يعرض لها ، ثم يتلوه بالشروح والإيضاحات والكشف ، أى أنه يشرع متوسعاً فى الفنون العصرية المتنوعة » (١)

٦ – الدكتور على عبد الجليل راضى الأستاذ بكلية العلوم جامعة عين شمس ، كتب مقالاً فى مجلة « عالم الروح » (العدد الثالث السنة الثانية عشرة بتاريخ يناير سنة ١٩٥٩) . أرّخ فيه للشيخ طنطاوى ثم قال : « ولقد بز جميع مماثليه فى الذكاء وصفاء الروح مما جعله يتسم بمكارم الأخلاق وفيض المعلومات وعلى الصفات ، وكانت الحقبة الأخيرة من حياته أبرز الحقبات ، فقد شاءت نفسه المتواضعة أن يتتلمذ على أيدى تلاميذه من طلبة الجامعة فى تعلم اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة المختلفة من طبيعة وفلك وبيولوجيا وكيمياء إلى غير ذلك .

« ولقد أسعدنى الحظ فى أن أتعرف عليه وأنا طالب بالجامعة إذ دعانى لزيارته زميل عزيز هو الدكتور محمد جمال الدين الفندى أستاذ الأرصاد الجوية فى جامعة القاهرة الآن ، وكنا نصحبه مع فرقة من الزملاء الطلبة إلى ندواته أو إلى مسجد السيدة زينب لأداء الصلاة .

« كانت أظهر صفة للشيخ هى التحرر الفكرى وعدم التعصب الأعمى والقابلية لتفهم الديانات والأجناس الأخرى والمساعدة على الأخذ بيد المتأخرين بالرفق والكلمة الطيبة » .

وبعد أن حلل بعض مؤلفاته ختم مقاله بقوله : « وقد عاش زاهداً صائما معظم أيامه حتى انتقل إلى جوار ربه »

٧ – الدكتور رءوف عبيد وكيل كلية الحقوق بجامعة عين شمس فى موسوعته الضخمة « مفصل الإنسان روح لا جسد » كتب عن الشيخ طنطاوى تعريفاً جميلاً يليق بمكانته الكبيرة كرائد من رواد الروحية ومن أبرز أعضائها ، وكعالم مسلم مصرى لم ينصفه معاصروه ، وجهلوا قدره ، بل حاربوه فى مكانته العلمية ، وكرجل دين من أصحاب التفاسير الدينية القيمة التى أهمها تفسير « الجواهر » وأنه قام بنفس الدور الذى قام به فى الخارج ذوو الأذهان المتفتحة عندما عرفوا كيف يربطون بين الآراء الدينية وبين حقائق العلم الروحى الحديث .

واستشهد الدكتور رءوف بكثير من آراء الشيخ طنطاوى فى مواضع مختلفة من كتابه الضخم الذى يقع فى ثلاثة أجزاء يحتوى كل منها على أكثر من ألف صفحة من الحجم الكبير .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧٣ / ٢٧٤ .

٨ – الأستاذ محمد عبد الجواد : فى العدد الماسى من « تقويم دار العلوم » الذى أصدره لمناسبة مرور ٧٥ عاماً على المدرسة فى نحو ألف صفحة (١٨٧٢ – ١٩٤٧) ، كان موفقاً فى تأريخ الشيخ طنطاوى كل التوفيق ، ويحسن بنا هنا أن نورد فيما يلى بعض مقتطفات من ترجمته المسهبة للشيخ طنطاوى :

« عرفته مدرساً بدار العلوم ، فإذا به فى درسه كالطائر فى قفص يحاول أن يرد نفسه إلى حدود المنهج الدراسى ، فلا يطاوعه علمه ، ولا يساعده تبحره . كان يقرر المسألة فيستشهد فى شرحه بصغار الهوام والحشرات ، ثم يحلق بك فى أجواء من عالم الفلك والسموات ، فلا يكاد ينتهى من درسه حتى تشعر كأنك قمت برحلة فى طيارة شاهدت بها عالم السموات ، أو طفت بالبحار فى باخرة شاهدت فيها عجائب البحار ، أو طوفت بالحقول فتأملت فيها غرائب النبات ، أو تنقلت بين السهول والجبال ، فأدركت عجائب الكائنات غير الناطقات . مع عبارة تستهويك ، وألفاظ لا تملها ، وأمثلة من المشاهدات تحسبها عادية تمر بك كل يوم فلا تلقى لها بالاً ، ثم يفرغ من ملاحظته ، فإذا بك تحسبها مسألة عويصة ، فيها من الدروس والحكم ما يستوقفك ، ويستوحيك الفكر والتأمل ، والملاحظة والتعليل ، فتعلم أنك تعيش فى عالم كله دروس ، وكله مسائل علمية ، وكله يسترعى النظر ، وكله يتطلب التأمل والفحص . . هذا هو الشيخ طنطاوى فى شرحه المسائل ، وفى تقديره الأبحاث العلمية ، أو تفسير الآيات القرآنية ، فى دائرة الدرس المحدود المنهج ، المحدود الزمن ، المقيد بعدد من المستمعين »

٩ – الأستاذ عبد العزيز عطية (ناظر مدرسة المعلمين بالمنصورة ١٩١٨) – نُشرت له كلمة بالصفحة ١٩٦ من « تقويم دار العلوم » الذى تقدم ذكره – بعنوان « الشيخ طنطاوى جوهرى » نقلاً عن « المرآة » جاء فيها :

« عرفناه شيخاً بعد أن أروى من معين العربية ، وكوثر العلوم الشرعية ، والفقه الأكبر ، والمنطق والفلسفات القديمة وكثير من العلوم الأخرى ، حتى طار صيته فى معمور الأرض ، وقصده المعجبون بفضله من نواحى العالم يستمعون لآرائه . وكان أكثر ميله متجهاً إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى ، وكان أكبر همه أن يذيع فى العالم رسالة السلام عن طريق تعاليم الإسلام .

« وكثيرا ما جاهد وبذل من نفسه ووقته وعقله ، وكثيراً ما جادل غير المسلمين فى الإسلام ممن زاروه من بلاد نائية ، ولقد كان حاضر الذهن ، واضح الحجة ، كثير الاستشهاد بالنصوص ، كثير الاطلاع ، أوتى من فصل المقال ما يعز على كثير من أهل اللسن والفطنة .

« وقد ترجم الكثير من كتبه ورسائله إلى لغات أوربا ، وانتشرت فى غربى آسيا وشرقى أوربا

بخاصة لكثرة المسلمين هناك . ولقد عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، إلاّ من ذكر حسن ، ونفع عام ، وإقرار بفضل . وحسبه أن يغنى بالذكر عن المال الذى لم يشأ أن يمسك ، وكانت حياته كلها كفاحاً حتى مات فى ميدان الجهاد فلم يحس به إلاّ مجاهد تفقده فلم يجده ، ولقد كان مفخرة من مفاخر دار العلوم ، بل من مفاخر علماء الشرق سيضعه التاريخ فى أول الصف .

« ولعل من تلاميذه من يحيون كحياة أستاذهم : ينهجون منهجه ، ويفرغون لمصلحة دينهم ووطنهم ، اللهم فأفض عليه من رحمتك ورضوانك مايرضيه وما ترضى به عنه » .

١٠ – الدكتور محمد رجب البيومى ، الأستاذ بكلية اللغة العربية بالرياض ، والذى خدم اللغة العربية وآدابها أجل خدمة بما نشره من كتب كثيرة ومقالات غزيرة فى كثير من المجلات . كتب عن الشيخ طنطاوى مقالين تحليليين بمجلة « الحج » التى تصدر بالسعودية .

وكتب أيضا مقالاً فى مجلة « الأزهر » (الجزء العاشر) السنة الأربعون ، ذو الحجة ١٣٨٨ فبراير ١٩٦٩) مقالاً طويلاً بعنوان (عالم عربى معاصر يضع نظرية للسلام) جاء فيه :

« حين قام (جاجارين) رائد الفضاء الأول برحلته المثيرة أخذ يتحدث عما شاهده فى الكواكب النازحة من غرائب وأعاجيب ، وقد طلعت بعض الصحف الإنجليزية على الناس ببعض أحاديثه مشفوعة بما تكهن به الكاتب الشهير (هـ . ج . ويلز) عن العوالم البعيدة ، ثم فسحت مجال المقارنة بين ماتخيله الكاتب الإنجليزى وما شاهده الرائد الروسى ، ومن العجيب أنها ذكرت فى نهاية الموازنة أن عالماً عربيا كبيراً هو الشيخ طنطاوى جوهرى قد رحل إلى الكواكب رحلة خيالية كرحلة هـ . ج : ويلز ، وقد سجلها بدوره فى كتابه العظيم « أين الإنسان ؟ » . .

« وقد غمرنى شعور الفرح والزهو لتوفيق عالم إسلامى إلى إبراز حقائق طبيعية وفلكية تضارع ما سجله أعلام الفكر الحديث فى الغرب ، وهرعت من فورى إلى كتاب (أين الإنسان ؟) وأخذت أطالع روائعه المدهشة ، وأعجب لتساوق الأسلوب الأدبى مع الحقائق العلمية فى نسق فنى جميل ، وأستمع مأخوذا للكاتب حين يقول منذ نصف قرن أو يزيد :

« الأرض تجرى أمامى جرياً حثيثا ، وهى تتلألأ جمالاً وحسناً لما يسطع عليها من نور الشمس ، وحجمها كبير ممتد ، الأرض تجرى بسرعة فى الفضاء كأنها قلة المدفع . إن قلة المدفع تجرى عشرة أميال فى الدقيقة ، والأرض تجرى قدرها مائة مرة حول الشمس لتتم حركتها السنوية . لعمرك لقد هالنى المنظر : حركات الأرض الثلاث تدور حول نفسها كهيئة النحلة فى لعبة الأطفال ، وهى بنفسها وهيئتها مندفعة تجرى حول الشمس أسرع من القلة مائة مرة ، وهذا المجموع الشمسى مسخر مسكين كأنه أرض تجرى حول كوكب مجهول ، أدهشنى الأنوار ، وغطت على عقلى عجائب الحركات ،

نظرت أسفل فإذا رحل تحيط به حلقاته الساطعة الجميلة ، وهو ، يجرى حول الشمس كأرضنا ، ولقد تعجبت من الأنوار الساطعة البديعة البهية الدائرة حول المريخ ، فهناك قمران جميلان طالعان ، عجيب أمرهما وبهى نورهما . ولما رأيت أقمار المشترى زاد تعجبي وما كنت أظن فى العالم أقماراً غير قمرنا »

« وتمضى الرحلة على هذا النسق البديع ، فتتحدث عن زحل وأورانوس ونبتون وأكثروس وغيرها مما لا يحيط به غير المتخصصين من الأفذاذ ».

والمقال طويل نقف فيه إلى هذا الحد .

١١ – عطارد : بهذا التوقيع نشرت جريدة « الجمهورية » بتاريخ ٢٩ من يناير ١٩٥٦ مقالاً بعنوان « طنطاوى جوهرى العالم الروحى » هذا نصه :

« عنى الأب (جوم بيه) أحد رهبان الدومينكان منذ سنوات بدراسة حياة عالم مسلم مصرى لم ينصفه معاصروه وجهلوا قدره ، بل حاربوه فى مكانته العلمية مع أنه لا يقل مكانة عن الرازى والزمخشرى وابن سينا وابن خلدون ، ذلك هو العلامة (طنطاوى جوهرى) الذى أدخل لأول مرة فى تاريخ البحث العلمى العربى – العلوم الحديثة فى تفسير القرآن الكريم .

« وقد حدثنى عنه صديقنا الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بعين شمس فقال لى منفعلاً : اكتب عن لسانى أنه يستحق من المجد أكثر مما يستحق الإمام محمد عبده لولا أن زملاءه وإخوانه جهلوه ، وعجزوا عن نصرته عندما تقدمت الدوائر العلمية ترشحه لنيل جائزة (نوبل) كأول مصرى يُرشح لهذه الجائزة ، وكان ذلك منذ أكثر من عشرين عاماً .

« ومن المدهش أن العلامة « طنطاوى جوهرى » هو أحد خريجى دار العلوم ومن ذلك الرعيل المجاهد الذى خرجته هذه الدار . وقد ولد السيد طنطاوى طيب الله ثراه فى قرية (كفر عوض الله) إحدى قرى مديرية الشرقية ، وقد نشأ فى هذه القرية المجاورة لشاطئ النيل فاكتسبت روحه هذا (الإشراق) الذى دفعه إلى التفكير والبحث فى ملكوت السماء والأرض .

« ولقد عاش السيد حياة متواضعة بعيدة عن المظاهر والغرور ، فقد كان يحمل فى أعماقه قلب العالم المتواضع الزاهد الذى لا يطمع فى غير رضوان الله ، فعكف على أبحاثه ودراساته فألف عدداً من الدراسات العلمية التى تعد فى نظر المفكرين الأوربيين اليوم من أمهات الأسانيد فى دراسة الخطوط العلمية العامة للقرآن . وهى مراجع (وحيدة) فى الجامعات الأوربية ، ولم تلق هذه الأبحاث منذ إبان تأليفها تقدير الدوائر الفكرية فى مصر التى كانت مشغولة بالصراع بين القديم ، والجديد ، والتى لفتّها الأهواء السياسية حتى قضى السيد طنطاوى منذ سنوات ، ولم يذكره ذاكر ، ولم يعمل العاملون من

أبناء دار العلوم على الاحتفال بآثاره وذكراه ! »

١٢ – الأستاذ عبد المنعم البحقيرى : كتب مقالاً بعنوان « طنطاوى جوهرى » فى مجلة « الوعى الإسلامى » العدد ٥٢ السنة الخامسة بتاريخ ١٥ من يونية عام ١٩٦٩ – سرد فيه تاريخ حياة الشيخ طنطاوى وذكر آثاره التى خلفها ، وكيف أنه استطاع أن يقدم صورة لتعاليم الإسلام السمحة حيث إنه خاطب المجموع الإنسانى فى دعوته إلى السلام والمحبة ، وكيف أن الإسلام لم يؤيد العدوان مطلقا ، بل أقره دفاعاً عن المقدسات والشرف والكرامة الإنسانية ، وقدم هذه المبادئ العظيمة فى كتابيه : « أين الإنسان ؟ » و « أحلام فى السياسة »

١٣ – الأستاذ عبد اللطيف الدمياطى : فى كتابه « الوساطه الروحية » المطبوع فى عام ١٩٤٩ ، أفرد فصلاً خاصا بالشيخ طنطاوى (ص ٥٧ – ٥٩) بدأه بموجز عن تاريخ حياته ثم أخذ يسرد الكثير عن حياته الروحية ، كيف بدأت ؟ وكيف حمل لواء الوساطة فى مصر بعد عبد الوهاب الشعرانى الصوفى الكبير ؟ وقال عنه فيما قال : « لقد أبعد الشيخ نفسه كل البعد عن الماديات وماله صلة بها ، فلم يشأ أن يتكسب من كتبه ، وإنما كان نشرها هو الغاية الأولى فى حياته ، أما ما يعود عليه من نفع مادى فلم يكن له أى أهمية عنده ابتغاء نشر الدعوة الروحية . كذلك لم يكن الشيخ ميالاً إلى الإعلان عن نفسه بهذه الطنطنة الجوفاء ، فكان يعتزل الناس لا يقابل منهم أحداً إلاّ من سعى إليه فى غرض علمى أو روحى ، وما عدا هذا فهو مختل بنفسه منصرف إلى ربه ، لا يعنيه من مظاهر الحياة البراقة وصورها الخادعة أى شىء !

« وقد عقل الشيخ : فالروحية الحق وحب التظاهر أمران يختلفان كل الاختلاف ، والرجل الذى رائده حقا خدمة الروحية ، بل الذى وصل إلى مكانة تؤهله لهذه الخدمة – هو من لا يحفل بالطنطنة الجوفاء ، ولا ينشد الفخر الكاذب ، ولا يبغى العظمة الواهية ، ولم نحفل بهذا كله إذا كنا ندعو إلى الالتفات إلى عالم فيه خير من هذا كله ! »

١٤ – الأستاذ عبد العليم القبانى : فى كتابه « رواد الشعر السكندرى ، فى العصر الحديث » المنشور ضمن المكتبة الثقافية رقم ٢٨٢ – يقول :

« وكان العالم الفاضل الشيخ طنطاوى جوهرى – فى هذه الفترة – [1] يعمل مدرساً بمدرسة رأس التين الثانوية ، وكان الشيخ يلقن تلاميذه بعض الأفكار الثورية فى قصائد من نظمه ، وهذه مقطوعة مما كان ينظمه وقتئذ : نشرها بمجلة « جمعية الملاجئ العباسية » مجموعة سنة ١٩١٥ وتلاحظ الأبيات الثلاثة الأخيرة منها حيث يلمز الملوك فيها بالقول الغامز حيث يقول :

---

(١) سنة ١٩١٥ .

من الناس من تلقاه يعطف خدعة ولا يبذل المعروف إلاّ لظالم
ألا إنما هذى السجايا مواهب وأوسعها فى الخلق رحمة راحم
ألم تر أن الأرض تهتز بهجة إذ ماكساها الحسن ودق الغمائم
وأن ليس موهوب بأوفر مغنماً من الواهب الآلاف عند العظائم
فقل لذوى التيجان فيها . تبوءوا عروش قلوب ، لا عروش القوائم
فلا يَغُرُرَنْ ربَّ الأريكة ملكُه ولا الجحفل الجرار وسْط الملاحم
لعمرك ماذكر المليك ببطشه ولكن صدى صوت الندى والمكارم

١٥ – الأستاذ رجاء النقاش الكاتب والناقد المعروف : كتب مقالين فى مجلة « المصور » المقال الأول بالعدد ٢٥٠٨ بتاريخ ٣ من نوفبر ١٩٧٢ – بعنوان « القرآن والفكر الجديد ، تفسير للقرآن بالخرائط والصور » ، نشرنا جزءاً منه فى الفصل الخاص « بمنهج الشيخ طنطاوى فى التفسير » نرجو الرجوع إليه .

والمقال الآخر بالعدد ٢٥١١ بتاريخ ٢٤ من نوفبر ١٩٧٢ بعنوان « حول تفسير القرآن ، وأضواء جديدة على عالم كبير مجهول » جاء فيه :

« كتبت فى عدد سابق من المصور مقالاً تحدثت فيه عن العالم الكبير الشيخ طنطاوى جوهرى وتفسيره للقرآن الذى سماه « الجواهر » وهو التفسير الفريد الذى يقف متميزاً بمنهجه الخاص اللامع بين جميع تفاسير القرآن منذ نزول القرآن إلى اليوم .

« وقد قلت فى مقالى : إن الشيخ « طنطاوى » هو أحد علماء الدين البارزين وواحد من المفكرين النابهين فى هذا العصر برغم أنه لم يحظ بما يستحق من الدراسة والاهتمام لا فى حياته ولا بعد وفاته .

« وقد وصلتنى بعد كتابة هذا المقال رسالة من الأستاذ أحمد عطية الله يلقى فيها أضواء جديدة على هذا العالم الجليل والمفكر الكبير ، وأرجو أن تكون هذه المعلومات التى يقدمها الأستاذ أحمد عطية الله فى رسالته حافزا جديداً للانتباه إلى قيمة هذا المفكر ودوره العظيم . وأن تكون حافزاً جديداً لإعادة نشر كتابه « الجواهر فى تفسير القرآن » حتى يقترب الجيل الجديد من القرآن من خلال هذا التفسير الذى يناسب القرن العشرين ، بل ما بعد القرن العشرين .

١٦ – الأستاذ أحمد عطية الله : لما كانت رسالته التى أشرنا إليها ضمن مقال الأستاذ رجاء طويلة لا يسمح المقام هنا بنشرها كاملة نجتزئ منها ما يلى :

« . . لم تكن الرياضيات والطبيعيات غريبة عن طالب دار العلوم فى تلك الأيام ، إذ كان المنهج

يتضمن دراسة الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعى والرسم تعويضا عما فاته من هذه الدراسات التى لم تكن معروفة فى أروقة الأزهر حيث ينشأ طالب دار العلوم ، ولا شك أن هذه العلوم كانت لها جاذبية بالنسبة لصاحب الترجمة ، وقد وضع ذلك فى تفسيره « الجواهر » بعد ذلك الذى يقرر فى ثناياه مثلاً أن تعليم الكيمياء من الواجبات والفروض ، بل امتد شغفه بالدراسات الطبيعية إلى العلم الطبيعى فنراه مثلاً فى عام ١٩٣٠ يرفع مذكرة إلى الحكومة المصرية فى أثناء غارات الجراد التى اجتاحت البلاد يقترح فيها جمع الجراد وبيضه لاستخراج زيت يقول إنه أجود زيت يصلح للطيارات ، ثم استخدام النفاية سماداً للماشية « تحت تأثير ما قرأه فى بعض المجلات » داعما مذكرته بالأعداد والأرقام عن حصيلة مشروعة ، كما امتد شغفه من الرياضيات والطبيعيات إلى الموسيقى باعتبار أنها من فروع الرياضيات . وكان يقول : إن الموسيقى المسموعة باب من أبواب الموسيقى المعقولة ، وأورد فى تفسيره كثيراً من النوادر والحوادث الشخصية التى كانت الموسيقى حافزاً له فيها على ارتياد مواطن جديدة من النشاط الفكرى ، بل إنه عزا توسعه فى تفسيره وعنايته بتضمينه الكثير من حقائق العلوم الطبيعية إلى حادث من هذه الحوادث الفردية التى أدى فيها الفوتوغراف دوراً فى تطوير أفكاره وشحذ عزيمته .

« عرفت الشيخ (طنطاوى جوهرى) فى عام ١٩٣١ على إثر عودتى من البعثة بإنجلترا ، التقينا فى المطبعة الرحمانية بالخرنفش ، وكانت من أنشط المطابع إنتاجاً فى ذلك العهد وكنا نجتمع لمراجعة البروفات فى كشك من خشب الصناديق مقام بفناء المطبعة ، وكان ثالثنا أستاذا بكلية الهندسة « عائداً من سويسرا » يطبع كتابا له عن آلات الديزل على حين كنت أطبع كتابى « بساط علم النفس » والشيخ يراجع طبعة جديدة لأحد مؤلفاته الإصلاحية ، وكان إذ ذاك فى الحادية والستين من العمر ، ومع ذلك لم نكن نحس بفارق السن ولا بأننا فى صحبة فقيه أزهرى ، بل كنا نستمتع بمجلسه ، إذ كان يبدو فتيا جم النشاط جامعاً بين علوم الدين والفلسفة والعلوم العصرية ملما بمظاهر الحضارة الغربية مع قدرة على قص النوادر وضرب الأمثلة الطريفة الواقعية .

« فى عام ١٩٣٨ التقيت أنا والشيخ طنطاوى فى وزارة المعارف وصحبته إلى إدارة البعثات بها ، ذ إنه جاء مستفسرا عن شروط التقدم للحصول على « جائزة نوبل » للسلام ، وكان يرى أنه جدير بها لمؤلفاته الكثيرة فى هذا المضمار ، ولا سيما أن بعضها « أو فقرات منها » قد ترجمت إلى اللغات الأوربية منها كتابه « أين الإنسان ؟ » وكان لا يعرف أن الترشيح لهذه الجائزة يتم بالهيئات والجماعات .

« أحيل الشيخ طنطاوى جوهرى إلى المعاش فى عام ١٩٣٠ وحول هذا التاريخ أكمل تأليف

تفسيره الجواهر الذى يقع فى ٢٦ جزءاً أو نحو ٦٥٠٠ صفحة كبيرة ، وكان قد أتم هذا التفسير أولا فى ١١ جزءاً ثم وقع له حادث أدت فيه الموسيقى دوراً حفزه على التوسع فيه بإضافات شملت مختلف العلوم الطبيعية ويصف نشأة تفكيره فى وضع هذا التفسير وأسلوبه فى التأليف بقوله : « بعد أن قطعت زمان الشباب وحل بساحتى المشيب وأنا أزاول مهنة التعليم فى المدارس وتأليف الكتب ، وجاوزت الستين رأيت شباب نفسى لطلب العلم وحبه لا يزال غضا طرى الإهاب قويا ، فأخذت أكتب هذا التفسير ، فأكببت على العمل سنتين كاملتين أو أزيد ، وكنت أكتب فى اليوم نحو ٤٠ أو ٥٠ صفحة ، ومتى كتبت العدد الأول الذى أقرره فى نفسى أقوم للرياضة فى الحقول حول القاهرة وأمشى نحو ٦ كيلو مترات . »

١٧ – الدكتورة بنت الشاطئ : فى كتابها « القرآن والتفسير العصرى » (سلسلة اقرأ رقم ٣٣٥ نوفمبر ١٩٧٠) بالصفحة ٣٩ تقول :

« وقدم الشيخ طنطاوى جوهرى تفسيره (الجواهر) فوجدت فيه الجماهير ما يريحها من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف » . . وأحالت الدكتورة بنت الشاطئ القارئ لمزيد بيان – للرجوع إلى كتاب « إنتاج المستشرقين » لنبى بن مالك .

١٨ – عبد العزيز جادو : فى كتابه « الروح والخلود بين العلم والفلسفة » (سلسلة اقرأ رقم ٣٢٦ فبراير ١٩٧٠) تأريخ وتعريف بالشيخ طنطاوى جوهرى وريادته فى الروحية الحديثة .

* * *

هذا ما أمكن العثور عليه من أقوال العلماء والكتاب والباحثين فى مصر عن الشيخ طنطاوى جوهرى ، أما المجلات التى نوهت عنه فكثيرة ، منها : [مجلة الجمعية الآسيوية الفرنسية نشرت فى عددها الصادر فى شهر يناير عام ١٩٠٨ مقالاً طويلا تشيد فيه بالشيخ طنطاوى وبكتابه « نظام العالم والأمم » ولقد نشرنا بعض ما جاء فى هذا المقال فى الفصل الخاص بمؤلفات الشيخ طنطاوى .

– ومجلة الجمعية الملوكية الإنجليزية : كتبت عنه تقريظا لكتابه « نهضة الأمة وحياتها » فى عددها الصادر فى مارس عام ١٩١٠ ، ولقد فصلنا ذلك أيضا فى الفصل الخاص بمؤلفاته .

– صحيفة دار العلوم العدد الرابع السنة الخامسة.

– مجلة « الرسالة » العدد ٢٩٨ بتاريخ ٢٠ من مارس ١٩٣٩ السنة السابعة

– جريدتا البلاغ والأهرام بتاريخ ٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٨ هـ

* * *

ولكى يكون القارئ على بصيرة من الأمر يحسن أن نورد كل ما استطعنا معرفته من أمر أستاذنا

مما وصل عنه من كتب التراجم :

١ – خير الدين الزركلى : كتاب « الأعلام » الجزء الثالث الطبعة الثانية (طبعة بيروت) ص ٣٣٣ – ٣٣٤ ، وفيه ترجمة مركزة وثبت بأسماء كتبه .

٢ – زكى محمد مجاهد : كتاب « الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية » الجزء الثانى ص ١١٦ – ١١٧.

٣ – إلياس زخورا : كتاب « تقويم مرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر مصر » وبه ترجمة مفيدة للشيخ طنطاوى بالجزء الثانى ص ٢٢٥ – ٢٢٨ طبعة القاهرة .

٤ – سركيس : موسوعة « معجم المطبوعات »

الفصل التاسع

الشيخ طنطاوى
فى نظر المستشرقين

وبجانب الأقلام العربية الكثيرة التى قدّرت الشيخ طنطاوى حق قدره ، وتناولته بالثناء كل الثناء كان ثمة مخلصون من عشاق الفكر الخالد فى أوربا ممن عرفوا له مكانته ، وفسحوا مجال النقد والتقريظ لحقائقه ، فى طليعتهم :

١ – الأستاذ «سانتيلانه» المستشرق الإيطالى الشهير ، الذى يقول فى كتابه «صدى صوت المصريين فى أوربا» والذى نشر عام ١٩١١ تقريباً :

« ليس من يجهل بمصر الشيخ (طنطاوى جوهرى) هو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرر الشهير ، ذلك الإنسان ذو العقل الكبير ، بل أحد رؤساء الحركة السياسية والاجتماعية التى انتشرت فى طبقات الشعب الإسلامى كافة تحت اسم الجامعة الوطنية » .

٢ – والعلامة الشهير «مارغيلوس» مؤلف كتاب **Early Development of Mohamedanism** تحدث عن الشيخ طنطاوى بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩٣٧ ، فيمن تحدثوا من مشاهير النقاد ، وقد وازن موازنة دقيقة بين الفيلسوف «كانط» الألمانى والأستاذ طنطاوى جوهرى المصرى فقال : «إن عنوان هذا الكتاب يذكرنا بكتابين نشرهما العلامة كانط الألمانى فى السلام العام ، فإنه – وإن كان عالماً بالرياضة والفلك – لم يستعملها فى السلام العام ، أما الشيخ طنطاوى جوهرى فإنه أدخل فيه هذين العلمين ، وأضاف إليهما علم النبات والكيمياء والتشريح وعلم النفس ؛ فهذه العلوم كلها قد جعلها المؤلف وسيلة توصل إلى حل مشكلة السلام العام» .

٣ – أما الأستاذ العلامة كريستيان جب ، فقد حضر من لكسمبورج إلى مصر سنة ١٩٣٨ ليلقى العالم الفيلسوف الشيخ (طنطاوى) ويتعرف عليه شخصيًا بعد ما عرفه من كتبه التى ترجم منها كتابيه «أين الإنسان ؟» و «أحلام فى السياسة» . وقد نقلت جريدة المقطم حديثاً عنه بتاريخ ٨ من يناير سنة ١٩٣٨ أعلن فيه ذلك . ولم يكتف بهذا الحديث الصحفى بل ألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين قال فيها :

«إن كتاب (أين الإنسان ؟) يبحث فى أعقد المشكلات المالية بحثاً عجزت أوربا إلى اليوم عن الإتيان بمثله» . . وقال : «إنى أعلن أن خير كتاب أخرج للناس فى هذا الشأن هو كتاب (أين الإنسان ؟) الذى يرسم للعالم بأسلوب فلسفى عميق طريقه المستقيم إلى السلام الدائم الذى رسمه الله فى قوله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (الحجرات : ١٣) .

٤ – دكتور ريتشارد هارتمان : أما الدكتور هارتمان فقد ذهب إلى أن الشيخ (طنطاوى) من أتباع الأستاذ الإمام محمد عبده ومن مدرسته ، وقد أيد ما ذهب إليه بالموازنة بين آراء كل منهما فى مصنفاتهما فقال :

«لقد فصل الشيخ طنطاوى وأسهب فى تفسير الآية (١٥٩) من السورة الثانية التى تبين آيات الله فى الكون وهى التى حركت همته إلى درس العلم الطبيعى ، وهى نفسها إحدى الآيات الأساس التى استند إليها الشيخ محمد عبده فى الدعوة إلى معرفة الله من آثاره فى الكون بدلاً من الركون إلى الجدل النظرى والمناقشات الكلامية . ويردد الشيخ طنطاوى فى تفسيره لهذه الآية جميع الصيغ التى ألفنا وجودها فى تعاليم الأستاذ الإمام مثل قوله : (الإسلام دين العقل والفهم لا التقليد ، وإن العلم إذا أحسن فهمه يصبح أداة صالحة لفهم الدين . ومثل مناهضته للمغالاة فى تقديس الأولياء ، ومثل قوله : إن الاقتصار على اتباع مذهب واحد من مذاهب الفقه سبب للجمود والتأخر فى الاسلام ، وإن الاجتهاد هو خير حل لجميع العلل . .»[1] .

ونقول : لو أراد الدكتور هارتمان التمادى فى هذه الموازنة لوجدها واضحة فى آراء الشيخ طنطاوى فى كتابه «نهضة الأمة وحياتها» ؛ فقد كانت آراء كل منهما أقرب الآراء إلى آراء حجة الإسلام الإمام الغزالى ، وأنهما أحاطا باللباب الجوهرى من أقوال الفلاسفة المسلمين . ومباحثهما تدل على علم بآراء الفلاسفة المتأخرين من الأوربيين ، وأن الإمام (محمد عبده) ترجم عن الفرنسية «كتاب التربية» للفيلسوف سبنسر ، وكذلك فعل الشيخ طنطاوى حين ترجم «كتاب التربية» عن الإنجليزية للفيلسوف

(١) هارتمان جـ ١٣ – ١٩١٦ ص ٨٢/٥٤ .

كانط . وكلاهما تحدث عن إصلاح الأزهر.

ولقد حلل الدكتور هارتمان ثلاثة من كتب الشيخ طنطاوى هى : «التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم» و «جمال العالم» و «النظام والعالم» ، وقال : «وتتميز كتبه الثلاثة ولا سيما ثانيها بحب الطبيعة حبا غير خفى ، ونلحظ فيها أثر الكاتب الإنجليزى «جون لوبوك» الذى اشتهر بحبه للطبيعة ، وأعظم ما يبدو أثره فيما كتبه الشيخ طنطاوى عن ملاذ الحياة وجمال الطبيعة وعجائب الكون .».

٥ – العلامة الدكتور تشارلس آدمس : فى كتابه «الإسلام والتجديد فى مصر» الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ الكبير عباس محمود ، وقدّم له العلامة الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، وصدر عن لجنة دائرة المعارف الإسلامية فى أبريل سنة ١٩٣٥ – ترجم للشيخ طنطاوى ككاتب له مؤلفات كثيرة فى نصرة الدين والدفاع عنه ، وأنه أحد تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده الذين عملوا على التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى وبين الحياة الاجتماعية والدينية فى مصر ، وجعلوا لكيان ذلك كله طابعاً إسلاميا صحيحاً .

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بفقرة جاءت فى هذا الكتاب يقول فيها المؤلف بعد أن انتهى من حديثه عن الشيخ محمد عبده : « . . وحوالى ذلك العهد (١٨٢٧ م) كان الشيخ الطنطاوى الذى سافر فيما بعد لتدريس الأدب العربى فى سان بطرسبورج ، قد بدأ يدرس مقامات الحريرى ، وهى طائفة من المقالات نالت حظا من الشهرة والتقدير . وأنشئت سجعاً فى القرن الثانى عشر الميلادى ، واشتهرت بصعوبة أسلوبها ، ووفرة مفرداتها ، وحريتها فى التعبير عن بعض العواطف والأفكار ، ولم تكن مثل هذه الموضوعات تدرس فى الأزهر من قبل» .

ومن المهم أن ننبه إلى أن الشيخ الطنطاوى هذا الذى ذكره الدكتور آدمس فى هذه الفقرة من كتابه ليس أستاذنا الشيخ «طنطاوى جوهرى» ، وإنما هو الشيخ «محمد عيّاد الطنطاوى» الذى قام برحلة إلى روسيا فى عهد «رفاعة الطهطاوى» – أما أستاذنا طنطاوى فقد قضى حياته كلها فى مصر ، ولم يسافر إلى الخارج إلاّ فى أوائل عام ١٩٣٤ حيث سافر إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج .

٦ – البارون كارا دى فو[1] : فى كتابه القيم «مفكرو الإسلام» ذكر من هؤلاء المفكرين بمصر

---

(١) الاستاذ العلامة كارًا دى فو : (القرن ١٩) مستشرق فرنسى ، عنى بالفكر الإسلامى ولاسيما الفلسفة والعلوم ، وهو الذى كتب مادة «التفسير» بدائرة المعارف الإسلامية ، ومن مؤلفاته «مفكرو الإسلام» و «ابن سيناء» ، و «الغزالى» ودراسة عن «الحكمة الإشراقية» للسهروردى المقتول . و «الإسلام : العبقرية السامية والعبقرية الآرية فى الإسلام» باريس سنة ١٨٩٨ ، ونشر نصوصاً قديمة مثل «كتاب الكرويات» ليحي المغربى ، و «الآلات والحيل» لهيرون .

ثلاثة هم : رفاعة الطهطاوى ، والإمام الشيخ (محمد عبده) والشيخ (طنطاوى جوهرى) .

ولقد رأينا أن ننقل فيما يلى ما جاء عن الشيخ طنطاوى فى هذا الكتاب مترجماً عن النص الفرنسى من الصفحة ٢٧٥ إلى الصفحة ٢٨٤ :

نقط الموضوع

(١) تفسير القرآن للشيخ طنطاوى جوهرى (٢) أسلوبه البديع لا نظير له (٣) التفسير روح جديدة مجددة لشباب الإسلام (٤) كتاب الأستاذ الشيخ طنطاوى «أين الإنسان ؟» ، (٥) موازنة أسلوبه الخيالى الفلسفى السياسى بأسلوب توماس موروس Thomas Morous وكامبانيلا Campanella وباسيفيكس Pacifeques والمعاصر هانريز Han-ryner من الأوربيين وابن الطفيل من الشرق ، (٦) وموازنته بالفارابى والقزوينى مع نضج فكره العصرى . (٧) موازنة آرائه بآراء نيتشه الألمانى ، وداروين الإنجليزى فى نظام الأمم السياسى العام ، (٨) كتابه فوق المستوى الفكرى العام . (٩) أسلوبه يحدث فى الشيوخ طرب الشباب وسحره يقلب الطبائع البشرية إلى الكمال ، (١٠) تنبأ الأستاذ فى كتابه بالحرب الكبرى قبل وقوعها بأربع سنين ، (١١) هذا الكتاب شرف لمصر والإسلام .

* * *

الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الجنس أبرز لنا كتباً كثيرة فلسفية دينية – وهو روح قوية مفيدة يملك الذوق العلمى ، ويشعر بنشاط قوى وحماسة بما فى الأمم الإسلامية من النقص الشائن الذى حط من كرامتها فى عيون أمم الغرب ، ويجد فى بث فكرته ونشاطه وحماسته بين معاصريه فى أقطار الإسلام ليبرهن لهم أن اكتساب العلوم ليس مما يضاد الإسلام فحسب ، بل إن العلوم مجددة لشباب الإسلام . وتكسبه قوى جديدة ، ويتبين من كلامه أنه رجل السلم والإنسانية الراغب فى أن يرى المودة مشيدة الصروح بين الأمم ، معتقداً أن الديانات تسعى لنشر هذه المودة العامة . كما يظهر من ناحية أخرى أنه مخلص صادق أمين ، وهذا الحكم استنتجناه من أسلوبه السهل المنتعش الحياة ، العالى النادر الوجود . وبالجملة فالأستاذ يتجلى فى نفسى من كلامه بهيئة محبوبة ذات روح لطيفة وشخصية بارزة . فسّر القرآن بطريقة فريدة تستحق الاحترام والإجلال ، شائقة جديدة ، ومع ذلك لم يشذ فيها عن آراء المتقدمين .

وابتدأ بهذا التفسير وهو مدرس بدار العلوم ، وكان يلقى على تلاميذه تفسير بعض الآيات . وتلقفته جميع الأقطار الإسلامية وانتشر فيها أى انتشار والصفحات الأولى منه تريك حجة واضحة وآية ظاهرة وقوة قاهرة وتحث على مطالعة العلوم الطبيعية . والمؤلف يضع موازنة بين العلوم الطبيعية

التى شغلت أذهان مفكرى الإسلام والعلوم الفقهية ، ويقول : إن القرآن لم ينصح بمطالبة العلوم الطبيعية فقط ، بل جعلها فى المكان الأعلى فوق العلوم الأخرى . وفى القرآن كما يقول الأستاذ (١٥٠) آية تدل على العلوم الفقهية مع أن فيه (٧٥٠) آية تدل على العلوم الطبيعية . وهذا حساب غريب جدًا . ولكن هذا الحساب مزين بالجمال وهو خير مشجع لقرائه – وهو يقسم العلوم قسمين : العلم الأول : وهو كل العلوم الطبيعية ، علم الآفاق والأنفس بحسب هذه الآية «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم»[١] والعلم الآخر هو علم الفقه وجاء فى القرآن «الحمد لله رب العالمين» ، وأيضا «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض»[٢] . قال : فنحن معاشر المسلمين يجب علينا أن نقرأ عجائب المخلوقات كما نقرأ الفقه ، وبهذه العلوم الكونية نعرف جلال الله تعالى وجماله فنرتقى فى الفنون والصناعة والزراعة والتجارة . بهذا أدعو جميع الأمم الإسلامية الشرقية منها والغربية . وإلاّ فلماذا يقول الله تعالى «ليظهره على الدين كله» ؟ ، وكيف لا يكون الإسلام فوق الأديان وهو الذى أوجب مطالعة العلوم الكونية مع أن الديانات الأخرى قصارى أمرها ألاّ تتعرض لنبذها ؟ والعجب كل العجب أن الأستاذ لم يقتصر بمهارته الفائقة على الحث على مطالعة العلوم الطبيعية بل أيدها بالآيات القرآنية المقدسة وهو دائم الوثوب قوى الهجوم بديع الأسلوب يقول : «أنذر المسلمين إذا لم يعملوا بقولى أن تغشاهم غاشية من عذاب الله كما غشيت عاداً وثمود ! وقد ابتدأت تظهر الدلائل وقد أدركها المسلمون وهو تلك الطيارات القاذفات القنابل على القرى والشيوخ والأطفال . إن علوم الطبيعة محققة مكشوفة واضحة لا يعتورها اختلاف كالاختلاف فى الأحكام الفقهية التى فرقت بين المسلمين ليفسّر علماء الإسلام للمسلمين عجائب الشمس والقمر والزهر والثمر وعجائب المعادن والنبات ؛ وحينئذ تكون المذاهب الإسلامية كلها تدرس علومًا متحدة فيرى السنى والشيعى والزيدى أنهم جميعا متفقون فى جميع علوم الكائنات التى هى الغذاء لنوع الإنسان ولا يكون اختلافهم إلاّ فى علوم الشريعة التى هى كالدواء . وما أقل الدواء بالنسبة للغذاء ،

«الإنسان لا يعيش إلاّ بالغذاء فلا يستغنى عنه ، أما الدواء فإنما يكون وقتا دون وقت . أيها المسلمون ، اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء : أى العلوم الكونية والعلوم الشرعية . وجميعها يطلبها القرآن وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بعلوم الدواء ؛ فمالى أراكم عما قدمه الله معرضين ، وعلى ما أخّره الله عاكفين ؟ قدم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهدايته الصراط المستقيم . ولقد ساءنى والله ما أرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ، ولقد كنت أود أن

---

(١) فصلت وتسمى أيضاً حم السجدة : ٥٣ .

(٢) يونس : ١٠١ .

أرى أولئك الذين نزحوا إلى أوربا بعلم الطبيعة معرضين ولعجائب الخليقة مسارعين . ولكنى رأيتهم منصرفين إلى الوظائف الوقتية والأعمال الإدارية ، وما رأيت أحداً منهم بالعلوم الكونية مغرماً فتشابه فى بلادنا العلماء الدينيون والشبان الذين هم للكون دارسون : فالأولون على أحكام الفقه مقتصرون ، وهؤلاء بالوظائف قانعون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، إلاّ قليلاً من الفريقين نالوا حظا عظيما . قال الله تعالى : (وقليل ما هم) ، وقال : (وقليل من عبادى الشكور) . .

والشيخ طنطاوى لا يقتصر على الحث والتحريض بلا برهان ، بل يؤيد الوعظ بالبراهين ويضرب الأمثال . إنه فى السطور الأولى من الفاتحة وهى السورة الأولى من القرآن هجم هجوماً شديداً وأظهر مقصوده من تفسير القرآن بوضوح تام . وقد قام فى ذلك مقام العلامة القزوينى مؤلف عجائب المخلوقات . ولكن الشيخ «طنطاوى» قزوينى العصر الحاضر منه استمدّ علمه لا من القديم . فتراه فى تفسير البسملة التى هى أول الفاتحة يذكر عن العلامة الأستاذ ميلن إدوارد أن حيوانا يسمى (اكسيلوكوب) يعيش منفردا فى فصل الربيع ومتى باض مات حالاً . فمن رحمة الله أن ألهم هذا الحيوان أن يبنى بيتا قبل أن يبيض فيعمد ذلك الحيوان إلى قطعة من الخشب فيحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم يجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب ، ثم يبيض على ذلك بيضه ، ثم يأتى بنشارة الخشب ويجعلها عجينة ، ويجعل فيها سقفا لذلك السرداب . والحكمة فى ذلك أن هذه البيضة متى فقست وخرجت الدودة كفاها ذلك الطعام سنة ، وهى المدة التى تستطيع تلك الدودة أن تحصل فيها قوتها . ويشرح أيضا عجائب النباتات منتقيا منها النباتات المعروفة فى مصر مثل القمح والذرة والنخل ، ويجتهد أن يفهم القارئ بإيضاح تام ويستخدم فى ذلك الطريقة العلمية الحديثة . قال :

«لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة ، فأرونى حبة القمح مكبرة مجسمة إلى آخره» . . وقال عند كلامه عن الذرة فى تفسيره (الحمد لله رب العالمين) : إن المسلمين فى أنحاء المعمورة يأكلون الذرة أو يشاهدون مزارعها وأكثرهم يجهلون كيف ربى الله الحبة الواحدة فى (المطر) المسمى بالكوز عند العامة فى بلادنا المصرية وهو مجمع الحب الذى يتكون حوله سطوراً منتظمة لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم ، ولفهموا كيف يربى العوالم كلها . إن لكل عود من أعواد الذرة ذكوراً فى أعلاه وإناثا فى وسطه ، أما الذكور فهو ما يسميه العامة (الكذاب) وهو أغصان بعضها فيها طلع مخفى عن الناس ، ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذى هو مجمع الحب وله خطوط طويلات حريرية حمر أو بيض ، تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من أوسطها ثقبا لا يشعر به الناس فينزل الطلع من أعلى العود إلى تلك الخيوط التى يسميها العامة فى مصر

(شرابة) ، فيدخل ذلك الطلع فى التجويف الذى فى تلك الخيوط ، ويسرى حتى يصل إلى محل الأنثى فى (المطر) أى محل الحب فتلقح تلك الأنثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير ! فانظر وتعجب فى ذلك (المطر) من حبة وكيف كان لكل حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل فى التجويف إلى الأم فتحمل بتلك الحبة . » ولقد ذكر هذا فى كتاب « جواهر العلوم » وأوضحه أيما إيضاح .

هذا هو الأسلوب الذى جرى عليه المؤلف فى تفسيره ، فلينظر القارئ كيف مزج العلوم الحديثة بالتفسير علماً منه بأن ذلك مفيد جداً ، وهو - وإن كان مغرماً بذلك - لم يترك ما سطره كبار الشعراء عند المسلمين ، بل أخذ يوازن بين كلامهم وسورة الفاتحة ، وفوق ذلك لم يدع القصص التاريخية بل أدخلها تفسيره ؛ فلا تعجب إذن من أن تفسيره ذو صيغة جميلة حديثة سامية عجيبة لم ينسج على منوالها ناسج ، فانظر ما قاله : تأمل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إذ ذاك (إنا لم نأتكم لطلب الدنيا وإنما طلبتنا الآخرة . فقال له رستم ما دين الإسلام ! قال : أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله . قال : وأى شىء أيضا ؟ . قال : إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله . والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم) .

ثم قال المؤلف : ألست ترى أن هذه المحاورات والخطب تتقارب هى وما ذكرناه فى فاتحة الكتاب من أن العبادة والحمد مختصان بالله عز وجل ، أولا ترى أن الإسلام كان له فى الصدر الأول معنى غير الذى يفهمه المسلمون الآن ؟ والأمة الإسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا فى القرون الأولى ، وإلاّ فكيف يسمع منهم العدل والمساواة وألا يستبعد بعضهم بعضا وأنهم خلفاء الله فى أرضه ليعطوا عباده الحرية ؟ فالإسلام إذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والعقل ، فأما الآن فإنه مجرد مظاهر وأعمال فلا يصل إلى أعماق القلوب ؛ فلذلك انحطت الأمم الإسلامية اليوم ، وقد آن أنْ ترجع إلى عزها القديم ومجدها العظيم .

ولقد نشر الشيخ طنطاوى من قبل كتاب « أين الإنسان ؟ » المطبوع سنة ١٩١١ الذى قرَّظه الأستاذ سانتيلانه الإيطالى العالم الكبير فى المجلة الشرقية بروما لسنتها الرابعة . وللأستاذ كتب أخرى مثل « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » وغيرهما . وكتاب « أين الإنسان ؟ » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ؛ فهو فى هذا يشبه الفارابى من حيث أصل الفكرة ، وابن الطفيل من حيث الأسلوب والمنهج . فجمع بين دقة الفكر وجمال الأسلوب . .

والأستاذ فى هذا الأسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا فى أوربا أمثال توماس موروس Thomas Morous وكامبانيلا Campanella ، ومعاصرنا هانريز Han-ryner.

وصف الأستاذ الجامعة الإنسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهر نقائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يُسْدِى نصائح ويبدى حججاً لالتئام الأمم واتحاد الدول ، بل يطلب ما فوق ذلك وهو الحب والإخلاص العام والمثل الأعلى فى ذلك ، ويتمنى (كما تمنى الفارابى) أن تكون الدول كلها مؤسساً نظامها على الحب العام وتبادل المنافع ، ولكن دولنا الآن فى الأمم الأرضية – وإن كانت ارتقت الآن ارتقاء ماديا – لم يؤسس بنيانها إلاّ على تبادل الحرب وتخريب المدن وقعقعة السلاح ! فأما تلك الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهى مغلوب عليها . إن الأساس الذى بنى عليه أمر الدول الآن هو ما سطره داروين الإنجليزى ، وقفى على آثاره نيتشه الألمانى من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء !

إن للمؤلف خيالاً سامياً غزير المعنى واسعاً ؛ فإنه بينما كان ينظر إلى السماء فى ليلة من ليالى شهر ربيع سنة ١٩١٠ وهو يبحث فى مذنب هالى الذى يرجع مرة بعد أخرى . وأخذ يقول : ياليت شعرى ! إذا كانت هذه السماء الصافية جميلة بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل سكانها مثلنا فى الظلم والقتال ، أو هم فى هناء وعدل كما نرى فى نظام السموات ! وبينما هو مستغرق فى تأملاته – إذ وافته روح مشرقة النور بهية الطلعة فى هيئة شاب جميل الطلعة حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة فى السموات العلا ، فلبى طلبها بشوق عظيم . وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحـــــلام Pasteur suédous Siudenborg ، ثم إن الروح أخذته وطارت به فى ساحات الفلا إلى عوالم غير معلومة لنا حتى وصلت إلى كوكب سيار أبعد من نبتون لم يكتشفه الناس للآن ، فرأى فى ذلك الكوكب أربعة آلاف أمة . وتعجب المؤلف من نظام هذه الأمم الكثيرة على هذا الكوكب ، وقد حضر من كل أمة نواب عنها ، واجتمع أولئك جميعا فى مجلس واحد عام يدبر الأمم كلها . ولقد أدهشه ما رأى وما سمع من آراء وجد ونشاط وعدل وصدق ، ووازن بينهم وبين جمعيات الأمم الأرضية الذين هم عن الصدق حائدون وعلى الحرب عاكفون وفى النزاع والجدال مجدون !

إن فى الكتاب كثيراً من المحاورات العلمية السامية التى تسوق العقول الإنسانية إلى مجال البحث الدقيق والحكمة الشريفة : ومن هذه المحاورات ما سأذكره ، وذلك أن شيخاً كبيراً من علماء هذا الكوكب أخذ يحاور الأستاذ محاورات لذيذة سارة شريفة ، وهذا العالم اختصاصى فى علوم الأرض والمريخ . فسأل المؤلف قال : أمن الأرض أنت ؟ فقال نعم . قاله له : أى حيوان أنت ؟ فقال : الإنسان . قال : ماذا فعلتم بإنسانيتكم ؟ فقال له : قد كشفنا عجائب الكون ؟ وانتفعنا مما حوت الأرض مما كشفناه ، ألست ترى إلى البريد والطرق الحديدية والقطر الجارية والبرق الذى له سلك والذى لا سلك له وقد طرنا فى الجو ، وركبنا متن الماء ، واستولينا على الطبيعة ! فقال : ياعجبا

لكم ! ما هذه إلاّ أمور حيوانية ترقى الأحوال الجسدية ، أما تربية النفوس البشرية والجمعية الإنسانية والصدق فى الأقوال والحب العام والإخلاص التام فأنتم عن ذلك كله معرضون . وما هذا النجاح الذى وصلتم إليه فى أرضكم إلاّ آلة للتخريب والتدمير ! فياليت شعرى ! أى رقى هذا ؟ إن هذا إلاّ رسوخ فى الجهالة والضلال والنكال !

ومن عجب أن المؤلف قد طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وقد تكهن فيه بطريق حكمى شعرى بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى .

إن مقصود هذا الكتاب كله وما فيه من المحاورات التصورية هو نشر التعليم العام والحب بين الشعوب والأمم بحيث يمتزج بأغانيهم وأشعارهم وموسيقاهم حتى يكون ذلك إلهاماً للأطفال فى أول حياتهم . وأن يكونوا محبين لجميع الأمم كارهين للحرب ، ناظرين لجمال الطبيعة محترمين الجمعية الإنسانية أى احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث فى الشيوخ نشوة الشبان ويبعث فى النفوس الإنسانية غراماً وولوعاً ، ويقلب الطبائع الإنسانية بما فيه من السحر الحلال . وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة تامة النظام ، ويهيئ الأطفال فى الأمم كلها لأن يكونوا على نسق الأمم التى زارها والنصيحة التى سمعها من أولئك العلماء .

فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلماً ، الغزير المادة ، السامى الفكرة ، الناتج من تفكير عميق وبحث يقل نظيره – يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو يشرف مصر والإسلام ، وجدير بالاحترام .

وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد فى لندن فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ – انتهى .

الفصل العاشر

نهاية المطاف

وفاة الشيخ طنطاوى :

فى صباح يوم الجمعة ٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٨هـ - ١٢ من يناير سنة ١٩٤٠ انتقل إلى رضوان ربه المغفور له الشيخ طنطاوى جوهرى بعد أن استطالت خدماته وتواصلت منذ فجر النهضة المصرية . وكان من طبقة أبطال النهضة الحديثة وأقطاب التجديد وحملة لواء القلم وحماة الدين القويم فى مصر ، بل فى الشرق ، بل فى العالم الإسلامى كله .

وقد كان رحمه الله يواصل جهاده الحافل فى العمل على توحيد شعوب الإسلام تحت راية التوحيد ، ولم يقعد به مرضه الأخير عن هذه الدعوة حتى لزم الفراش ، وانتقلت روحه إلى الرفيق الأعلى وقد بلغ من العمر الثامنة بعد السبعين .

وعندما تسامع المسلمون بنعيه أقبلوا من كل فج لتوديعه الوداع الأخير ، وحضر ممثلو الجماعات والهيئات الإسلامية وفى طليعتها « جماعة الأخوة الإسلامية المؤلفة من جميع الأقطار الإسلامية » ، التى كان الفقيد علماً من أعلامها ، وركنا من أركانها ، وعلى رأسهم وكيل الجماعة وسكرتيرها للاشتراك فى تشييعه إلى مرقده الأخير .

وبعد أن ووري جسده الطاهر تبادل الخطباء من جميع الهيئات المراثى التى أدمت القلوب ، وأفاضت الدموع . وكان من بينهم فضيلة الشيخ صاوى شعلان وكيله فى قسم التحرير ؛ إذ تقدم بتعزية الجماعة إلى أسرته وذكر مآثر الفقيد ، وختم كلمته بأبيات شعر ارتجلها . .

نعيه فى الصحف :

وقد نعته جميع الصحف العربية ، ونكتفى هنا بالنعى الذى جاء بجريدة « المقطم » فى مساء الجمعة ١٢ من يناير سنة ١٩٤٠ وهذا نصه :

« وفاة عالم فاضل

« اختار الله إلى جواره فى فجر اليوم عالماً عاملاً ، وأديبا ضليعا ، ومربيا فاضلا ، وكاتبا اجتماعيا كبيرا هو المرحوم الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى بعد ما أشرف على الثامنة والسبعين من عمره الحافل بشتى الجهود المشكورة فى سبيل الدين والعلم والأدب .

« وقد ترك رحمه الله عدة مؤلفات فى فنون أدبية واجتماعية كثيرة تدل على ما كان له من واسع الاطلاع وعميق البحث ودقة الفهم ، وهى صفات اشتهر بها طول خدمته فى وزارة المعارف حتى انتقل إلى الدار الخالدة .

« وكان آخر مؤلفاته النفيسة كتباً ضمنها رأيه فى السلام العالمى واشترك بها من بضعة أشهر فى جائزة نوبل للسلام بعد ما أعجب بها بعض الكتاب الغربيين فترجمها له .

« رحمه الله رحمة واسعة ، وعزى عنه العلماء والأدباء خير عزاء ، وألهم آله جميل الصبر والسلوان »

° ° °

نعى جمعية الشبان المسلمين :

ونشرت الصحف اليومية ما يلى :

« تلقينا من المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين أنها تنعى إلى مصر والعالم الإسلامى أحد أعضائه البارزين ، وهو المرحوم فضيلة الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى . غادرنا بعد جهاد طويل فى سبيل نصرة الإسلام . وله تأثيره الكبير فى ماضى الإسلام وحاضره ؛ فهو لا يكافح ويناضل فى سمو مبادئ الإسلام وقواعده فحسب ، بل كافح وناضل عن القضية المصرية بما يشهد له به التاريخ أنه كان من أخلص أنصار القضية المصرية والعمل على استقلال البلاد استقلالا لا مرية فيه .

« وقد خلف وراءه من الأناشيد الوطنية وكتابه « نهضة الأمة وحياتها » الذى نشر تباعاً فى جريدة اللواء أيام مؤسس النهضة الوطنية وزعيمها الأول مصطفى كامل باشا — ما يشهد له بطول الباع ، وصحة النظر ، وقوة الإيمان فيما كان يدعو له .

«وليس المقام مقام سرد مآثر الفقيد ؛ فذلك يطول شرحه ، وإنما هو نعى ، ونعى ذلك الراحل الجليل الذى لا يسعنا إزاء هذا الخطب الفادح الذى حل بالعالم الإسلامى إلاّ أن نسترجع ونقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

* * *

وهكذا كان ارتياع العالم الإسلامى كله من أقصاه إلى أقصاه . .

وهكذا سكن القلب الكبير الذى طالما خفق بحب الإسلام والجهاد فى سبيله . .

وهكذا وقف الفكر الجوّال الذى فكر فى تعليم المسلمين وإصلاح أمورهم دهراً طويلا ، وهدأت النفس الأبية ، الثائرة التى دأبت تدعو إلى تزكية عقول المسلمين ونفوسهم حقبا كثيرة ، وكانت فى شيخوختها كما قال المتنبى :

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أن ما فى الوجه منه حراب

وهكذا تعطل القلم الجرىء فى التأليف عشرات السنين غير عاثر ولا وان . .

ولكن . . هل مات الشيخ طنطاوى جوهرى حقا ؟ . . كلا ، إنه إنما انتقل من العالم المادى ، عالم الفناء . . إلى العالم الروحى ، عالم البقاء والخلود . . وسيظل اسمه مخلداً فى الحياة الدنيا على مر الأيام بين العلماء العاملين المخلصين . جزاه الله عن جهاده لمصلحة المسلمين وخدمة الإسلام ، والدعوة للسلام بأضعاف ما أوفى وهو كثير .

وسلام عليه فى الخالدين إلى يوم الدين .

الباب الثانى

النصوص

مقالات متناثرة

وللشيخ طنطاوى جوهرى مقالات ومحاضرات كثيرة غزيرة عثرنا على بعض منها متناثرة هنا وهناك فى عدة مجلات مختلفة : منها مجلة «النشرة الاقتصادية المصرية» التى كان يصدرها «منصور صدقى بك» سنة ١٩٢١ ، ومجلة «المعرفة» التى كان يصدرها «الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولى» فى الثلاثينات – رأينا أن نجمع شتاتها ونلم ماتفرق منها فى سمط واحد ، ونفرد لها قسما خاصًا من هذا الكتاب لتعم الفائدة ، فنكون قد أدينا ماعلينا من واجب لذلك الفيلسوف الكبير ، ولست أشك أن عدداً آخر من مقالات الشيخ طنطاوى مازال فى بطون الجرائد والمجلات . ولعلّ باحثاً فاضلاً يتولى استقصاءها من بعدنا . .

أمراضنا الاجتماعية

أيها السادة

إن الأمم اليوم قد تنبهت من غفلتها ، وقامت من سباتها ، والعلم يعدو حثيثا بالأمم إلى العلا . والإنسان اليوم غيره بالأمس ؛ هذه حركة فكرية عامة للتطور العام الاجتماعى الإنسانى ومصر التى شهد لها التاريخ بالتقدم على سائر الأمم أجدر أن تدلى دلوها فى الدلاء وأن تبحث مع ذوى الآراء فى الأمور الهامة والمسائل العامة ، وتحذو حذو الأمم الرافعة للعلم حتى لا يسلقنا خلفنا بألسنة حداد ويقول أبناؤنا : لقد قصر آباؤنا الأولون ، ونام علماؤنا السابقون ؛ فوجب علينا أن ننقى مجتمعنا من بعض المضار والمصائب التى من أهمها مسألة الخمر .

تحريم الدين للخمر :

أيها السادة حرم القرآن الخمر تحريما قاطعاً ولم يستثن حالاً من الأحوال ولا أباحها لمرض ولا أجازها لهضم الطعام ولا رضيها لتقوية الشهوة عليه ولا لإكثار الدم فى الجسم ، بل عمم التحريم فقال : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟» (المائدة : ٩٠ ، ٩١)

التداوى به فى الدين :

اختلفت الفقهاء فى التداوى بها : فأباحه طائفة إذا لم يقم غيرها مقامها . وقال آخرون : الخمر لا يتداوى بها واستدلوا بالحديث الشريف : «لم يجعل الله دواء أمتى فيما حرم عليها» . ويقول القرآن : « فهل أنتم منتهون »

المدنية الحديثة والدين :

هجمت المدنية الحديثة فى الشرق ، وأخذت تسرع فى أسباب الرقى ، ففشت الخمر وعمت الأمصار والقرى ، وشاعت بين الخاصة والعامة ، وتبعها فى ذلك أنواع الحشيش والكوكايين وغيرهما ويقول القرآن : «رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»

مطاردة المدنية الحديثة للأديان :

كان أسلافنا يقيمون الحدود ويجلدون الشارب نحو أربعين جلدة ، فكان ذلك مخففا من سطوة الخمرة ومانعاً لطغيانها ، وكان لرجال الدين سطوة وبأس ، وكان الملوك والحكام أقوى معضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالاً لقوله تعالى «فهل أنتم منتهون»

جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها وشاركتنا فى الأولاد والأموال ، وهجمت علينا ولم يبق للدين سطوته ، فانحسر عن المدن إلى القرى ، ثم انحاز إلى أطراف البلاد وهى تطارد الدين ، ولكن المدنية بلا علم ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة كما قال الغزالى خير من الفطانة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكياء المغرورين : فإما الدين كله ، وإما العلم كله ! ونحن أخذنا من الديانات أسماءها ومن العلوم قشورها ، فخسرنا الصفقتين وربحنا الرزأين ، وسبقنا المتدينون وفاقنا من الفرنجة العلماء العاملون ، فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم ! أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؛ فحق علينا أن نبحث فى موضوع الخمر بحثا علميا حتى نكون قد أتينا البيت من بابه ورجعنا الأمر إلى نصابه ؛ فالعلم اليوم هو السلاح الذى به يصول قائد الفضيلة ، وبه يحارب النقيصة ؛ فبهذا السلاح أقاتل معكم وبقوتكم وهمتكم جيوش الجهل بين أبناء أمتى المصرية المحبوبة ، فلأقص عليكم أنباء ما عثرت عليه فى هذا الموضوع مرتبا على مقتضى الترتيب الزمانى وينحصر ذلك فى أربعة مباحث وهى :

١ – ما قاله علماء الاجتماع من أن الخمرة تفنى النسل وتستأصله

٢ – ما قاله علماء التشريح من أنها تورث الجنون فى الأقطار الجنوبية

٣ – أعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر وما جاء فى خطبة رئيسها فى مصر

٤ – ما جاء فى كتب الطب الأفرنجية وخصوصا الأمريكية وكيف منعوا التداوى بها .

المبحث الأول :

قرأت فى كتاب خواطر وسوانح فى الإسلام تأليف الكونت هنرى دى كسترى الفرنسى المطبوع فى سنة ١٨٩٨ فى صحيفة ١٣٥ : «وعندى أن هجرة القبائل إلى الصحراء الكبرى جنوبا من الجزائر وهْمٌ باطل بالقول بإمكان مضايقتهم فينزحون عن البلاد شيئاً فشيئاً . أما انقراض الأهالى بالتدريج بعد دخول التمدين الأوربى فنحن لا نصدقه إلا قليلاً ما ؟ فإن احتكاكهم بالمتمدينين ربما قلل من وسائل العيش عندهم ، ولكنه لا يؤثر فى وجودهم ، بل لا يزالون يتناسلون أكثر من الأوربيين . ونضيف إلى ذلك أن المسكرات التى استعملها بعض الفاتحين للتعجيل على بعض الأمم المغايرة لهم لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديداً» . ولقد دهشت عند قراءة هذه الجملة وقلت ما قاله نصر بن سيار :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكو وإن الحرب أولها كلام
فإن كانت أمية فى سبات فقل : قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب كيف يقرأ قومى وهم غافلون ، اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ؟ وكيف يقول ذلك الفرنسى العظيم : إن الخمرة آخر سلاح تقتل به الأمم المستعمرة وبه فناء نسلهم ، وأهل بلادى فى غفلة ساهون . ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول ألم تقرأ أمتنا هذه المقالة أم قرءوا وهم لا ينتهون . فالمسألة موت أو حياة

المبحث الثانى :

قال العلامة الإنجليزى بنتام فى كتاب أصول الشرائع ترجمة المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا تحت عنوان الجرائم الشخصية : «النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الرجل كالأبله ، وفى الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون : ففى الأولى يكتفى بالمعاقبة على السكر كعمل وحشى ، وفى الأخرى يجب منع ذلك بطرق أشد ؛ لأنه شبيه بالتشرر . ولقد حرمت ديانة محمد ﷺ جميع المشروبات المسكرة ، وهذه هى محاسنها» انتهى كلامه .

المبحث الثالث :

منذ نحو ثمانى سنين جاء إلى مصر رجل من أعضاء دار الندوة (البرلمان) للسويد والنرويج ذكر أنه

رئيس جمعيات منع الخمر فى العالم وأنه زار جميع دول أوربا والشرق كفرنسا وإنجلترا وروسيا والصين واليابان ، وأن كل الحكومات ساعدته وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل ، وذكر أنه فى أمريكا حرم خمسة وأربعون مليونا الخمرة على أنفسهم (وكان ذلك قبل الآن وقد حرمت فى هذه السنة تحريما عاما فى هذه البلاد) . وقال : إن ولى العهد لبلاد السويد رُبى على ألا يشرب الخمر ، . ونحن نفتخر بأنه أول ملك لا يشرب الخمر فى أوربا . فرد أحمد زكى باشا قائلا : هناك ثلثمائة مليون هم أعضاء عاملون فى منع الخمر وهم المسلمون !

المبحث الرابع :

كنت منذ بضع سنين عند طبيب نطاسى مصرى ، فأرانى كتاباً إنجليزيا مؤلفه أمريكى وقال : إن مؤلفه يقول فيه : إنى لست أبحث فى منع الخمر للسكر فهذا فرغ منه العلماء وإن بحثى اليوم فى مضاره الطبية وإن التداوى به يجلب للإنسان أمراضا لا قبل له بها ؛ فإذن التداوى به ممنوع طبيا وليس فيه أدنى فائدة ! فقلت له لماذا لا ترفع صوتك بهذا فى البلاد ؟ فقال : إن إخوانى الأطباء يسلقوننى بألسنة حداد ! فقلت : أليس فى أمريكا علماء محققون ؟ فقال : بلى ، ولكن لا يطاع لقصير أمر ! فلما دعيت للخطابة فى هذا الموضوع طلبت منه الكتاب وهو يسمى كتاب اليد الطى تأليف الأستاذ كيلوج . كتب تحت عنوان الاستعمال الطبى للخمر من صفحة ٤٧٥ إلى ٥٠٤ ، فلأذكر لكم جملاً منه وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه إن رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوربا وإلا فساعدوا على منعه كما منعته أعظم الأمم علما ومقاما وهى أمريكا . قال المؤلف : من كان عنده أقل ريب أو ظل للشك فى أن الخمر سم فليعتبر بما يكون عند وصوله للمعدة ؛ فإن الغشاء المخاطى يصير محتقنا ويخرج مقداراً من المخاط ليحمى نفسه ، ونرى غدد المعدة وقواها الدافعة تسرع فى إخراج ما وصل إليها بأسرع ما يكون ! أليس ذلك مزيلاً لشك الشاكين وريب المرتابين فى أن الخمر من أنواع السم ؟ وقال الأستاذ (ليبج) : إنه إذا اعتدل الإنسان فى شربه قوى جسمه وأكسبه نشاطا ، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين – للبان والأستاذ بيرن والأستاذ دروى ثم الأستاذ ادوارد سميث الإنجليزى – وقد برهن الثلاثة الأولون على بطلان ما تقدم بقولهم : إن الخمرة تخرج من الجسم ولا أثر لها ؛ وزاد الأخير بقوله : إنه حلل الدم فلم يجد فيه أدنى شىء من العناصر التى يتركب منها الخمر . وقال الدكتور ملر الأسكتلندى : الخمر لا يشفى شيئا ! وقال الدكتور هيجنو ثوم أمام الجمعية الطبية البريطانية : أنا لم أعلم مرضا قط شفى بالخمر ! وقال الدكتور جونسون الإنجليزى : إن الخمر ليس ضروريا البتة ليستعمل دواء ! وقال فى إبطال قولهم – إن الخمر غذاء وإنه يحفظ الجسم أو

يقوى العضلات – ما هذه القوة ؟ إن هى إلا اسم آخر من أسماء السموم : كقولنا فلان نشوان طرب ثمل معناه مسموم ، وبرهن على ذلك بقوله : إذا أدخلنا الخمر أو أى سم آخر من العقاقير السامة التى تعد بالمئات فى الجسم فإن جميع الأعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لإخراجه من الجسم ، ومن هنا كان النشاط . وقال فى نقض قولهم – إن الخمرة تمنع المرض إن الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة فإذا كان ما يقولون حقا فأضرار الخمرة أشد من الأمراض فتكا بالأجسام فكيف بها إذا كانت لا تشفى منها شيئا فإن تجارب الأطباء السابقة تثبت أنه لا يترك أثراً فى النسيج ، والأثر الحقيقى إنما يكون فى النسيج ؟

وقال الدكتور سميث الإنجليزى ردًّا على الأستاذ ليبج : إن الخمرة بسببها يخسر الجسم جزءا من الحرارة ؛ فمن الضرر أن يتناول المريض شيئا من الخمر ، فأثبت أنه لا يمنع فقد الحرارة ، بل يزيد ذلك الفقد ! ومن العجيب أن سيدنا محمداً ﷺ أثبت ضرر الخمر فى الحديث الصحيح : فقد جاء فى صحيح مسلم مع شرح الإمام النووى صحيفة ٣٦٤ أن طارق بن سويد الجعفى سأل النبى ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصفها فقال : إنى أصفها للدواء ؛ فقال الرسول ﷺ : «إنه ليس بدواء ولكنه داء !»

أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث ؟ يقول الدكتور سميث : إن الخمرة تسبب للجسم خسارة جزء من الحرارة ، وقد منعت الدولة الأمريكية الخمر بتاتا بناء على أمر الأطباء وعلى الاكتشاف الحديث المنافى لآراء الدكتور ليبج ، وهذا الكشف الحديث معجزة إسلامية ، وقد أثبت الدكتور باركس ثم السير جون هول «مفتش عموم الجيش البريطانى» والدكتور كاربنتر والدكتور هنرى مارتن وآخرون غيرهم أن الخمر لا يشفى المرض ولا ينفع الجسم ! وقال فى إبطال قولهم – إن الحب والفاكهة فيهما سم – إن بعض الناس يقول – إذا كان فى الخمر ضرر – فذلك ليس خاصا به ، إنه من الحب والحب فيه قليل من السم ؛ فلم أكثر الأطباء من ذم الخمر مع أن السم عام فيه وفيما أخذ منه ؟ فأجاب عن ذلك بقوله : نعم إن الخمر من الحب ومن ذا يقول إن الحب فيه سم ؟ إن الحب لم يكن سماً إلا بعد إتلافه ، فليس الخشب دخانا ، وليس الحب خمراً ولا جرم أن السم حدث فى الفاكهة والحب بعد إتلافهما ! .

فالحب لا سم فيه ، وكذلك الفاكهة ، ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور فهى كاذبة فهل تدس الطبيعة التى أعدت لنا الحياة السم فى الدسم ؟ .كلا . . وقال فى إبطال قولهم – إن الشرب المعتدل لا يضر – إن كلمة (إنتوكسيكيشن) مشتقة من كلمة لاتينية معناها السم ، فالشرب المعتدل يصير عادة لا يتخلى الشارب عنها فهو يتجرع السم قل أو كثر فويل للشاربين ! وأبطل قولهم : إن

الخمر الصافى لا يضر ، فقال : (إن الخمر الصافى سم صاف) .

فإذا احتج الشارب بأمثال هذا فقد ضل ضلالا مبينا لأنه ثبت أن الخمر سم سواء أكان نقيا أو مخلوطاً ، فهو ضار للصحة مهلك للأبدان . ثم ذم الأطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات فقال : إنه من موجبات الأسف المحزن ذلك المنظر الذى تتقطع له القلوب أسى - أن يخضع العالم أمام جنود الشهوات والرذيلة المخزية ! ومما هو جدير بالذكر أن أولئك الأطباء الذين لا ينصحون بشرب الخمر ويحضون عليه يصبحون هم أنفسهم مغرمين به عاكفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم ومرمى سهامهم وقتلى علمهم وهم لا يشعرون أو ليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم فى ذلك أوحت بها شهواتهم وقضت بها أوهامهم وهم عن العلم معرضون ألا ساء ما يصنعون !

وأخذ يبطل قول الشاربين - إن الخمر يمحو الهم والكسل ويجعل الفقير الذى لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه ذو غنى أو ملك - فأطال فى ذلك وقال فى الرد عليه : إن الإنسان إذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه وفقد الإحساس ونسى ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها لعاجز عن الاعتبار لتلك التجارب العالية الرفيعة القدر الشريفة المنزلة والشعور الشريف الذى تكون به البهجة العالية بالحياة الحقيقية ، وإن الفرار من الحق جبن . وأبطل ما يدعيه الشاربون من قولهم : إن الخمر لا يضرنا ؛ ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون المخدرات والمسكرات من الأفيون والخمر ونحوها وقال إنهم فريسة لها ويأتيهم الموت من حيث لا يعلمون . وأخذ يدحض حجة أخرى للشاربين الذين يقولون : إن الخمر عادة إنسانية وطبيعة بشرية وكيف لا ونحن لا نرى أمة إلاّ شربت الخمرة ولا جيلا إلاّ عاقرها ولا قبيلا إلاّ كرع منها ؟ وها هم أولاء اليابانيون والصينيون والشرقيون والغربيون والمسلمون والنصارى واليهود والمجوس والبوذيون كل منهم يشربها ، ومن ذا يقاوم الطبيعة ، أو من ذا يقف فى طريقها ؟ فرد عليهم قائلا : أليس فى هذه الأمم ضالون وفاسقون وكذابون ومنافقون ومخادعون ولصوص خائنون ؟ فكيف يحتج الشارب بفريق السكارى مدعيا بأنه طبع فى البشر . أفلا نأسف لشيوعه ونأنف من وقوعه وتكاثره فى بنى الإنسان ! إنه من موجبات الحزن والأسف لا مما يحتج به للاعتذار ويصار إليه للتقليد والاتباع .

هذه نبذة من آراء المؤلف كيلوج الأمريكى ، ولا ريب أن الحكومات لا تقطع أمراً حتى يثبته العلماء ويطلبه الشعب ، ولولا أمثال مؤلف هذا الكتاب ما منعت أمريكا الخمر ، ومصر أولى بذلك لأنها فى أول نهضتها بين الأمم الإسلامية ، ولأن الخمرة ضرتها كثيراً . ولى أمل فى رجال الطب وعلماء الأمة أن ينصحوا للشعب بالإقلاع عن هذه العادة . والله موفقنا إلى الإصلاح .

عن العدد ٦٤ والعدد ٦٥ السنة الثانية الصادرين
فى ١٨ و ٢٥ من أبريل سنة ١٩٢٢
من « النشرة الاقتصادية المصرية »

الفلسفة عند العرب*

أيها السادة :

إن الأمم اليوم تجد فى التنقيب عما خلفه الأولون والبحث فيما أورثه الأقدمون ، ولقد رأينا بأعيننا أهل أوربا يكشفون ما خبأه الزمان الغابر وما دفنه الدهر الدائر فى بطون الدفاتر وغضون المقابر والقصور المعطلة والبلاد المهدمة والأطلال الدارسة والدمن المهجورة والأجسام المقبورة واللحود المطمورة ، وما كفاهم ذلك فى آبائهم وآثار قدمائهم حتى جاسوا خلال الصين والهند والعراق ، ونشروا خط أهل سبأ ، ودرسوا علم الأشوريين والبابليين ، وفسروا علومهم ، وصوروا مدنهم ، وترجموا لغاتهم ، ونقبوا فى البلاد المصرية عن الآثار الهيروغليفية والعلوم اليونانية والنقوش والآيات الحكمية ، واستخرجوا من النواويس وأجداث الملوك نفائس النقوش وغرائب الصور وبدائع العلوم ، ومالنا نذهب بعيداً فها هى ذى أمتنا المصرية أخذت تجارى الأمم وتنافس الدول ، فجمعت آثار قدمائنا من العرب والفراعنة فى متحفين عجيبين ، وأخذت تدرس اللغة العبرية فى الجامعة المصرية ، ومن الشبان من أخذوا يتبارون فى تقليد آبائنا فى بعض الشمائل والمزايا وهم يجدون .

إذا ثبت ذلك فهل من المعقول أن ننبذ ما درسه الآباء وسطره القدماء فى الكتب الفلسفية والعلوم العقلية والعجائب الحكمية ؟ أو ليست العلوم تساوى النقوش القديمة والآثار البائدة ؟ فإذا كنا نرى أمثال العلامة سيديو الفرنسى ومؤلف كتاب البطولة والأبطال يدرسان علوم العرب ولغاتهم وآدابهم — أفلسنا نحن أجدر أن نسابق العلماء ونقرأ ما خطه السلف ونحرص عليه حرص الشهم على كرائمه ؟ وها هى ذى « الجامعة المصرية » قد أخذت تدرس فن الفلسفة العربية ، ولقد علم حضراتكم أن هناك محاورة دارت بينى وبينها فى أمر الفلسفة ، وألفت رسالة أرسلتها إلى ذوى الحل والعقد هناك ، وكان ذلك مع حسن التفاهم والوصول إلى الحقائق الثابتة ، فعلى كل ذى علم أو رأى أن يبينه لإخوانه الوطنيين حتى يرتفع شأن الأمة . ألا وإن كاتم العلم ملعون ، فحرام على امرئ أن يكتم علماً حرصاً على راحته أو ميلاً إلى سلامته وفى الحديث الشريف « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » . وقال تعالى فى ذم من كتم علماً : « أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ومن أراد سعادة المجموع بما وُهب له من قدرة كان ذلك خيراً وأعظم أجراً .

---

* محاضرة ألقاها الشيخ طنطاوى بدار نقابة المعلمين فى شهر أبريل سنة ١٩٢٢ .

وجاء فى الشريعة الإسلامية أن العلوم والصناعات واجبة فرض كفاية ، فإذا تركت الأمة علماً أو صناعة عذبت فى الدنيا بالذلة والهوان وفى الآخرة عذابا أليما . إذا تقرر هذا فإنى أعرض على حضراتكم بعض ما وقفت عليه من علوم قدمائنا ، وأقص عليكم منه جملاً ، ولست أقصد أن العلوم العصرية كلها من القديمة ولا أن أذم الحديث ، بل أنا به مغرم ، ولا أن أتعصب لمجد الآباء ، كلا ، وإنما أريد تبيان الحقائق وإظهار بعض ماكمن من آرائهم فى كتبهم ، وأبين ما عثرت عليه فى المخترعات العصرية الثابتة عن قدمائنا كما أوضحه العلامة سيديو الفرنسى الذى قال : إن أكثر الكشف الحديث مأخوذ من كتب أسلافنا . ولأبتدئ بتعريف الفلسفة ، ثم أفى بعد ذلك بتقسيمها ، ثم أبين مسائل مما كشفه الفرنجة والعرب بها سابقون . والمراد بالعرب كل من اتخذوا لغة العرب فى دراساتهم من فرس وعرب وغيرهم من أهل الشرق .

* * *

تعريف الفلسفة وأقسامها :

لقد كثرت الأقوال فى المجالس الخاصة والعامة فى تعريف الفلسفة ولكل وجهة هو موليها . ولقد ظن كثير من العقلاء أنها أمر مغلق ، ومنهم من ظن أن التوسع فى موضوع ما فلسفة ، ومنهم من ظنها كثرة الجدل وإفحام الخصم ، ومنهم من يراها أمراً لا أول له ولا آخر ، أو كل من توغل فى علم فهو فيلسوف ؛ وعلى هذه المعانى المتعارفة بين الناس لو أن امرأ رأى ذلك الرجل الذى يلعب فى الأعراس وهو يقلب عموداً أسفله مدبب وأعلاه معجم بهيئة مخروط وهو ثقيل وعظيم ويقلبه الرجل بكفيه تارة يقع على جبهته وثانيا على يديه وثالثا فوق أخمص قدمه والرجل يتلوى كأنه الخلبوص (أى العصفور الصغير)– لو أن امرأ رأى هذا لقال عليه : إنه فيلسوف ! وكذلك لو سمع ما روى من أن صاحب القاموس الفيروزابادى وهو فى بلاد الروم قيل له ما معنى قول سيدنا على كرم الله وجهه : « الصق روانفك بالجيوب ،وخذ المزبرة بشناترك ، واجعل حندورتيك إلى قيلى حتى لا أنغى نغية إلاّ أودعتها حماطة جلجلانك

فأجاب الفيروزابادى : « الزق عضرطك بالصلة ؛ وخذ المسطرة بأباخسك ، واجعل جحمتيك إلى أثعبانى حتى لا أنيس نبسة إلاّ وعيتها فى لمظة رباطك ! » فالإجابة والتفسير كالمفسَّر كلاهما مغمض لا يفهم ، فلو سمعها من يرى هذا الرأى لقال : هذه فلسفة : أى كلام غريب ! ومعنى الكلام المتقدم : « الصق مقعدك بالأرض ، وخذ القلم بأصابعك ، واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا أنطق كلمة إلاّ وعيتها فى حبة قلبك ! » .

وهذه لا يدعها الناس حتى يعرفوا تعريف الفلسفة . يقول القدماء : الفلسفة هى معرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه بقدر الطاقة البشرية . ويقال : إن أولها محبة العلوم ، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة البشرية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم . والحقائق المذكورة تنقسم قسمين ، علمية وعملية ؛ والعلوم العلمية هى الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات ، والعلوم العملية ثلاثة أقسام : سياسة النفس بعلم الأخلاق ، وسياسة المنزل بعلم تدبير المنزل ، وسياسة الأمة بالسياسة العامة . فالعلوم الرياضية أولها الارتماطيقى ، والثانى الجو مطريا ، والثالث الإسترونوميا ، والرابع الموسيقى :

أما الارتماطيقى فهو علم العدد ومعرفة ماهياته وكيفيته وكميته وخواصه ، وبمعرفته يتدرج إلى سائر الرياضيات والطبيعيات . إن علم العدد جذر العلوم ومبدأ المعارف ، ويتفرع منه علم الحساب المفتوح (الحساب العقلى) ، وحساب (التخت والميل) وهو المتداول فى المدارس عندنا والجبر وعلم الدرهم والدينار الذى يحل المسائل التى لا يحلها الجبر .

العلم الثانى : الهندسة وبيان ماهيتها وكمية موضوعاتها وأنواعها ، وهى تبحث عن الخط والسطح والجسم .

العلم الثالث : النجوم ومعرفة تركيب الأفلاك وصفة البروج وسير الكواكب .

العلم الرابع : الموسيقى وهو المدخل إلى علم صناعة التأليف والبيان ؛ لأن النغم والألحان لها تأثير فى نفوس المستمعين لها ، كتأثير الأشربة والترياق فى الأجسام الحيوانية ، وهذه العلوم لها فروع كثيرة كعلم البنكامات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جرّ الأثقال .

وإنهم برهنوا على ثقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة رطل ، وكذلك علم أنباط المياه ، أى استخراجها من الأرض ؛ وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم عقود الأبنية لتنضيد المساكن وشق الأنهار ، وعلم المناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها ، وعلم مراكز الأثقال ، وعلم المساحة .

أما العلوم المنطقيات فهى خمسة :

أولها : إيساغوجى ، وهى الألفاظ الستة التى تستعملها الفلاسفة فى حججهم ومحاوراتهم .

ثانيها : المقولات العشرة ، وتسمى قاطيفورياس ، وهى عشرة ألفاظ دالة على الأجناس العالية لا يخرج معنى من الموجودات عنها .

ثالثها : القضايا ، وتسمى بأريمينياس ، وهى الكلام فى العبارات وأدائها على حقها

رابعها : القياس ، وتسمى أنولوطيقا الأولى .

خامسها : البرهان ، ويسمى أنولوطيقا الثانية .

° ° °

١ – سماع الكيان يبحث فى الهيولى والصورة والزمان والمكان والحركة .

٢ – السماء والعالم يبحث فى أن هذا العالم كله كأنه حيوان واحد أو إنسان واحد له نفس واحدة ، وجميع أجزائه تستمد بعضها من بعض .

٣ – الكون والفساد وهو معرفة خواص الهواء والماء والتراب والنار وامتزاج بعضها ببعض .

٤ – الآثار العلوية وهو معرفة الآثار الناجمة من أشعة النيران الساقطة على الأرض بزوايا حادة وقائمة ومنفرجة ، وتلك الزوايا واقفة بين خطى السقوط والانعكاس ، وبهذه الزوايا واختلافاتها يختلف الحر والبرد ، وتكون السحب والأمطار والرعود والبروق والثلج والبرد والزلازل والبراكين والمغاور فى باطن الأرض .

٥ – علم المعادن ويبحث فى أشكالها وأصنافها ، وأن أدناها متصل بالتراب ضعيف التركيب وذلك كالجص والملح ، وأعلاها الياقوت والذهب ، وإذا كان أدنى المعادن متصلاً بالتراب فأعلاها وهو الذهب متصل بأول النبات الأثرى الكمأة وخضراء الدمن التى تخرج أول النهار بالفدوات وتيبس وقت الهجيرة . فهذه أقرب إلى المعدن ، وتسمى نباتاً معدنيا ، ويترقى النبات عن هذه الدرجة إلى الشجر الذى كماله بتسعة أشياء وهى : العروق ، والجذوع ، والأغصان ، والفروع ، والورق ، والزهر ، والثمر ، واللحاء ، والصمغ ، وعلى هذا يرى أن شجر الطرفاء مثلاً ينقصه الزهر والثمر والصمغ واللحاء . وأعلى الشجر النخل ، فإن جسمه نباتى ونفسه حيوانية ! ألا ترى أنه إذا قطع رأسه مات وأنه يتميز ذكره عن أنثاه ؟ .

فأما النباتات الأخرى فإن قدماء الفلاسفة كانوا يقولون : إن البذرة فيها التذكير والتأنيث ، ولكنا لم نفهمها إلا فى الكتب الحديثة لأنه وجد زهر الذكور وزهر الإناث ليلقح الأول الآخر وذلك إما فى زهرة واحدة كما فى القطن ، وإما فى زهرتين كما فى القرع وأمثاله ، فأما تمييز الذكور عن الإناث من الأشجار فلا نعرفه إلا فى النخل . فلذلك قالوا : إن نفسه حيوانية وجسمه نباتى ، أما الكشوثى فهو نبات لا ورق له ولا عروق ضاربة فى الأرض ، ولكنه يعيش على غيره كالحيوانات ، فهو كالنخل جسم نباتى ونفس حيوانية ، وفى العلم الحديث من هذا كثير حتى عرفوا منه ٣٣ نوعاً تنحو هذا النحو .

وأعلى النبات متصل بأدنى الحيوان وهو الحلزون والدود الذى فى الثمار وفى جوف الحيوان .

فالحلزون دودة فى جوف أنبوبة على شطوط الأنهار تنقبض إذا لامسها شىء ولا سمع لها ولا بصر ، وهكذا الدود الذى فى جوف الثمار والحيوان ، وهذا يشارك النبات فى الحس ويتميز عنه

بالحركة الاختيارية ويقال له حيوان نباتى . وإنما قلنا : يشارك النبات فى الحس ، لأن النبات يحس بالمواضع الندية فيمتد إليها ويتجافى عن المواضع اليابسة . وإذا رأى ضوءاً نزل من ثقب وهو تحت سقف عدل عن طريقه ومال إلى ذلك الضوء ! فهذا معنى قولنا : إن النبات له إحساس شارك الحيوان فيه ، ويتميز عن الحيوان بالحركة الاختيارية ، والحيوان يرتقى إلى ماله حاستان كالدود الذى على الأزهار والأشجار ، فإن له حاسة الذوق ، وإلى ماله ثلاث حواس وهو ما فى جوف البحار العميقة ، فإنه يزيد حاسة الشم ولا سمع له ولا بصر ، وماله أربع حواس فيزيد حاسة السمع وهو نوع يقال عنه الحلم يعيش فى المواضع المظلمة ، ثم ماله خمس حواس وهذا ما فى البحار وهو السمك ، وإما فى التراب وهو الهوام ، وإما على وجه الأرض وهى الأنعام والبهائم والدواب والوحوش والسباع ، وإما فى الهواء وهى الحشرات والطيور والجوارح . ومن الحيوان ما يترك أولاده فى الفلوات كالحشرات تترك بيضها للطبيعة كالناموس والذباب ، وإما أن يحفظ بيضه كالطيور والجوارح وهما أعلى مما قبلها . وإما أن تتربى أولادها فى بطنها وهى ذوات اللبن كالأنعام والوحوش والقردة والإنسان .

وأعلى الحيوان القردة والفرس والفيل : فالقرد قارب الإنسان بصورته ، والفرس بخلقه النفسى ، والفيل بذكائه .

(وهذا مذهب داروين)

نحن لا يسعنا الإطالة فى إيضاح هذه العلوم . ولننقل الكلام إلى القسم الإلهى ، العلم الأعلى والعلم الكلى ، علم ما وراء الطبيعة ، وهو يبحث فى الأمور العامة مثل الوجود والوحدة والقدم والحدوث ، ومثل النظر فى مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها ، ومثل النظر فى إثبات الإله الحق والدلالة على وحدته وتفرده بالربوبية .

وليس هذا العلم يبحث عن أمور غير مفهومة كما يظنه كثير من الناس . ، بل هو يبحث عن العلوم العامة التى ليست لها خاصة بالرياضيات ولا بالطبيعيات . فتقسيم العلوم مثلا ليس خاصا بأحدها ، أما الرياضى فهو يبحث عن مقادير الأشياء المتصلة وهى الهندسة والفلك ، والمقادير المنفصلة الحساب والموسيقى ، ثم الطبيعيات تبحث فى تغييرات المادة : فعلم النبات والمعدن وغيرهما إنما هى صور للمادة بتغييراتها ، أما العلوم التى لا تخص الرياضى ولا الطبيعى فمثل النظر فى إثبات الجواهر المجردة من العقول والنفوس والملائكة وحقائقها ، ومثل أحوال النفس البشرية بعد مفارقتها الهياكل الإنسانية وحال المعاد .

هذه هى الأقسام العلمية . أما العلوم العملية فهى ثلاثة أقسام :

١ – علم الأخلاق والبحث فى القوى الثلاث : الشهوة ، والعقل ، والغضب ، ثم العفة والشجاعة والحكمة والعدل ومعاشرة الأصدقاء وغير ذلك .

٢ – علم تدبير المنزل ومعاشرة الأهل والخدم وسياستهم ، ونظامهم وأنه يجب على رب الأسرة أن يسير معهم على نمط واحد ووتيرة واحدة لا يغيرها حتى لا يندم إذا تغيرت أخلاقهم إلى غير ذلك .

٣ – السياسة المدنية . وينظر هذا العلم فى الجامعة الإنسانية كجامعة الجنس والدين والوطن واللغة والملك الجامع للأمة وكيف كانت هذه تنافى آراء أهل المدينة الفاضلة ثم النظر فى أن سياسات الأمم مبنية على عقائدها ، ثم بيان المدن الضالة والفاسقة والمنحرفة والجاهلية مما أوضحه الفارابى فى كتابه كتبيان أن المدينة الفاضلة يرجع نظامها إلى نظام الجسم الإنسانى مقيساً عليه فى الأعضاء الخادمة والمخدومة مع الإلمام بعلم التشريح . هذه مقاصد علم الفلسفة العلمية والعملية ولقد قسموا العلوم فبلغت ثلثمائة علم مفرعة على هذه الأصول ونيفا .

الكشف الحديث الذى كان معروفاً عند القدماء

وإذْ فرغت من الفلسفة وفروعها فلأْ تكلم على ما عثرت عليه فى كتب أسلافنا . وظنته أمم الفرنجة كشفا حديثا . والذى عثرت عليه أربع مسائل :

المسألة الأولى – رقاص الساعة :

يقولون : إن المخترع له « غاليليو » المولود « ببيزة » سنة ١٥٦٤ المتوفى سنة ١٦٤٢ قال فى قاموس لاروس : أن غاليليو حضر يوما فى كنيسة ببيزة صلاة فقام فيها ، فاستوقف نظره المصباح المعلق فى قبة الكنيسة ، ورآه يهتز ببطء ، ولاحظ أن الهزات وهى تتناقص فى الاتساع مرة بعد مرة حافظة دائما لوقت واحد . فكان ذلك سببا فى كشفه ناموس توازن هزات الرقاص . هذا هو الرأى السائد الآن فى بلاد الشرق والغرب وقد كذب هذا القول العلامة « سيديو » الفرنسى فى كتابه تاريخ العرب (صفحة ٢١٤) ؛ إذ أبان أن الحروب استمرت على « الأمة المحمدية » أكثر من مائتى سنة ، وانطفأت مصابيح العلم تقريباً إلاّ من « مصر » ، فصارت مركزاً جديداً للاشتغال بالعلوم والفنون زمن الفاطميين ، واشتهر أبو الحسن عباس بن أبى عبد الرحمن بن حمد المشهور بابن يونس بن عبد الأعلى بأنه كان متصرفا فى سائر العلوم ، فاخترع رقاص الساعة الدقاقة ، ثم مات سنة ١٠٠٧ ميلادية أقول : فيكون « غاليليو » مسبوقا به بستة قرون . وقال فى صفحة ٢١٥ : « ولقد تعجب أهل طليطلة من ساعته الدقاقة وذلك فى نحو نصف القرن الثانى عشر الميلادى . فكان اختراع « ابن يونس » لم

يعرف فى طليطلة إلاّ بعد مائةٍ وخمسين سنة .

هذه قضية رقاص الساعة حققناها ولم يبق لديكم شك فى أن قول بعض مؤلفى الإنجليز والفرنسيس إن المخترع غاليليو جاء الخبر بتكذيبه من علماء فرنسا ، وأن (مصر) فى زمن الفاطميين كانت دار اختراع ، فاذكروها للأبناء لعلهم يعلمون .

المسألة الثانية – دوران الأرض :

جاء فى قاموس لاروس وفى سائر الدوائر العلمية أن الكاشف لذلك « كوبرنيكوس » ومعه غاليليو ، وأنهما فتحا فتحاً جديداً للإنسانية وحركا الأرض بعد سكونها وأيقظاها من سنة الغفلة بعد نومها وهأنذا أسرد لكم تاريخ مسألة الأرض بأوجز عبارة فأقول :

كان فيثاغورس يعلم تلاميذه فى مدرسة « كروتونيا » من بلاد إيطاليا على طريقة حركة الأرض وذلك قبل ميلاد « سيدنا عيسى عليه السلام » بخمسمائة سنة حتى جاء بطليموس قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة ، فاختار القول بسكون الأرض وحركة الشمس ودورانها عليها ، فاشتهرت فى البلاد واتبعه « ابن سيناء » و « الفارابى » وأمثالها من علماء الإسلام . كل ذلك فى كتاب العلامة المرحوم « عبد الله باشا فكرى » الناقل عن كتاب « أسرار الملك والملكوت وشرحه المرسوم بأفكار الجبروت » وهو باللغة التركية ومتنه بالعربية . ثم ظهر « كوبر نيكوس » الذى مهر فى العلوم الرياضية من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهى سنة ٩٧٣ هجرية فرجع إلى طريقة فيثاغورس ، فظهر أن دوران الأرض حول الشمس هى القديمة وتسميتها جديدة خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة . والطريقتان مذكورتان مستفيضتان فى الكتب الإسلامية وقد ذكرهما العلامة « عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد » المتوفى سنة ٧٥٦ من الهجرة فى كتابه المسمى « بالمواقف » وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة ، ثم كرّ على تلك الاعتراضات بالنقض والرد ، وجرى معه على ذلك شارحه (السيد الشريف على بن محمد الجرجانى) المتوفى سنة ٨١٦ فى شرحه . وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد وإليكم أيها الإخوان بعض ما قاله المصنف فى متنه مع شارحه صفحة ١٤٧ فى المقصد الثالث قال :

« الحركة اليومية (حركة الشمس) لا توجد ، إنما تتخيل بسبب حركة الأرض ، إذ يتبدل الوضع من الفلك دون أجزاء الأرض ، فيظن أن الأرض ساكنة والمتحرك هو الفلك ، بل ليس ثمة فلك أطلس : وذلك كراكب السفينة : فإنه يرى السفينة ساكنة مع حركتها حيث لا يتبدل وضع أجزائها منه ، وكذلك يرى القمر سائرا إلى الغيم حيث يسير الغيم إليه ، وهذا كله من غلط الحس »

انتهى ملخصا فها هو ذا عضد الدين قبل كوبرنيكوس بنحو ١٨٠ سنة فيكون هذا كشفا للأوربيين ؛ لأنهم كادوا يقتلون كوبر نيكوس وغاليليو الذى اتبعه لكفرهما فى نظر علماء الدين كما هو معلوم . أما عضد الدين وأمثاله فكانت كتبهم تدرس فى الشرق .

المسألة الثالثة – مسألة الجاذبية :

يزعم علماء الفرنجة أن الكاشف للجاذبية إنما هو إسحق نيوتن الإنجليزى وأنه رأى ثمرة سقطت من الشجرة على الأرض ، فأخذ يفكر فى الجاذبية . وهذا البحث سبقه فيه علماؤنا بقرون . ألا ترى ما جاء فى شرح العلامة محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية على كتاب الإشارات لابن سينا صفحة ١١٧ ، قال : « قال ثابت بن قرة إن المدرة تعود إلى السفل لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة فى كل الأعراض : أعنى البرودة والكثافة والشيء ينجذب إلى الأعظم » وثابت بن قرة كان فى أيام المطيع العباس المتوفى سنة ٣٦٣ هـ . وقال الشارح فى صفحة ٢١٦ : « إنا إذا رمينا المدرة إلى فوق فإنها ترجع لأسفل . فعلمنا أن فيها قوة تقتضى الحصول فى السفل حتى إنا لما رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوة إلى السفل » . وقد أطال العلامة ابن سينا وشارحه فى هذا الموضوع ؛ فظهر من هذا أن مسألة الجاذبية سبق بها علماء الشرق بقرون عدة ؛ فإن ثابت بن قرة سبق إسحق نيوتن بنحو ستة قرون ، والرازى سبقه بنحو ثلاثة قرون .

ومن العجيب أنى بعد ما سطرت هذا قابلنى صديقى عبد الحميد بك فهمى فأرانى كتابا فرنسيا فى تاريخ العرب ومغاربى إسبانيا . فترجم لى منه ما لفظه فى صفحة ١٧٥ جزء ثان لمؤلفه الشهير لويز فياردو : وأخذ العلامة (كيبلر) الشهير معلوماته عن انكسار الضوء فى الجو بعد اطلاعه على ما ألفه (أبو الحسن على بن سهل) المتوفى سنة ١٠٣٨ ميلادية بمدينة القاهرة وهو شهير بما ألفه من الكتب فى علم الضوء وما كتبه عن الشفق وربما كان إسحق نيوتن نفسه مديناً للعرب بمعرفة المعلومات الأولية لنظام العالم أكثر مما يدين لتفاحة قصره (ولسترد) ؛ إذ يظهر أن محمد بن موسى المذكور فى (المكتبة العربية قسم الفلسفة) عندما كان يؤلف كتبه فى حركة الأجرام السماوية وخواص الجذب كان أسبق منه إلى ولوج هذا الباب ، فتكلم عن هذا القانون العظيم المستنبط منه ما سواه . وقال فى صفحة ٢٠٤ جزء ثان :

ومن الغرابة بمكان عظيم أن نبحث فى كثير من الأشياء المختلفة فنجد أن العرب فيها كانوا نموذجا للفرنجة بأوروبا : فمثلا فى ابتداء القرن الثامن للميلاد رأينا عتبة بن الحجاج ينشئ طائفة من الجند أعدها لقطع دابر المفسدين فى الأرض سماها بالكشافة وهنا يرد على اعتراضات الأول لقائل أن

يقول : (١) إنك قد خالفت ما أجمع عليه الناس (٢) إنك تفخر بمجد الآباء ولا فخر لك (٣) إنه تعصب دينى أو جنسى (٤) إنه لغو الحديث ولا معنى لهذا البيان (٥) إن الكشف الذى جاء حديثا قد استوفى المباحث وماضيه لا عبرة به لنقصه.وأنا أجيب عن هذه الاعتراضات:أما الجواب عن الأول وهو أنى خالفت الإجماع فأقول : قال العلامة سيديو الفرنسى فى كتابه صفحة ٢٣٢ وصفحة ٢٣٣ : وظهر التمدين العربى المتسع به نطاق لسان العرب الذى أدخله مترجمو الكتب اليونانية فى الاصطلاحات فسهل انطباقها على المعلومات التى عزا الفرنج اختراع أكثر اكتشافاتهم إلى علماء منهم كانوا بالقرن الخامس عشر والقرن السادس عشر مع أن اختراع أكثرها إنما كان للعرب الذين اجتهدوا فى تقدم العلوم ؛ وذكر لذلك عشرة أدلة : منها أن تلك الاكتشافات وجدت مكتوبة فى كتب عربية بخط اليد التى ظفرنا بها . فإذا أثبت سيديو وإخوانه من علماء الفرنجة أنهم وجدوا أكثر الاكتشافات بخط اليد فى كتب عربية فلا عجب إذا وجدت أنا ثلاثة أو أربعة ومئى وجدت غيرها أبرزتها إلى أهل هذه البلاد المباركة الطيبة.

الثانى وهو الفخر بمجد الآباء أقول : لست أفتخر بالقدماء وإنما أريد الحقيقة ودفع الجهل.

وجواب الثالث أنه تعصب أنى لست متعصبا دينيا ولا جنسيا ، فإن ثابت بن قرة كان مسيحيا ، ولكنه شرقى ولم لا نعطى القوس باريها ؟ ولم لا تنسب الحكمة إلى أهلها ؟

وجواب الرابع وهو أنه لغو ، أقول : ليس ذلك لغواً فإن معرفة الحقائق هى العلم ، والعلم واجب ليس بلغو ، وأما قول من قال إن المتأخر استوفى ما تركه المتقدم فنسب إليه فهذا كلام الكسالى المخدوعين الذين لا يريدون أن يحققوا بدليل ما قاله سيديو ، وها نحن أولاء نرى الأمم ترسل رجالها لكشف القطبين ويضعون راية فى مكان الكشف ليثبتوا لهم السبق ، فلو أن أمة سكتته فيما بعد فرضاً لكان السابق هو الأولى بالفضل.

ومالنا نذهب بعيداً ونحن نرى أن كريستوف كولمب كاشف أمريكا لم تسم البلاد باسمه فهلا جعل الاسم مركبا مزجيا كبعلبك ومعد يكرب أو بختنصر فيقال كريستوفه كولمبه ! لم يكن ذلك لأنه كان ممن صحبه رجل يقال له (أمريكو) من عظماء فلورنسا فسافر من غير مشاورة كولمب ، وخطر له أن يظهر أنه أول كاشف لأرض الدنيا الجديدة ، وأشاع فى إيطاليا ، وكتب رحلته ليحتال بها على اكتساب الشهرة ، جعلها لطيفة مرغوبا فيها ، وحكى الوقائع على وجه يستميل القارئ ، فاشتهرت البلاد باسم هذا الرجل كما هو الغالب . إن الغَاشّ يفلح ظاهراً ، ولكن البلاد وإن اشتهرت باسم صاحب الرحلة وهو أمريكو لم يكن له منها إلاّ اللفظ ورَجعَ العلماء تلك الشهرة إلى الكاشف الحقيقى وهو كولمب ، والحق أحق أن يتبع مع أنه لم يعرف جميع أصقاعها وزاد غيره أضعافاً مضاعفة فى

الكشف ؛ فحجة القائلين إن المتوغل فى الكشف أحق باسم الاختراع حجة داحضة وكلام لغو ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . وإذا كان الحق يرجع لأهله فى أوربا أفلا يرجع لأهله فى الشرق ؟

يقول الله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ومن ثَمَّ فإنى أوجه همم العلماء والفضلاء من أمتنا أن يبينوا للناس أولاً أن أكثر الكشف منسوب كذبا للفرنجة . ثانيا أن رقاص الساعة ودوران الأرض والجاذبية كانت معروفة عند أسلافنا ورجال المعارف الذين أَشْرُفُ بالانتساب إليهم أولى بهذا التنبيه وأحق به وأهله .

سادتى . . هل لكم أن أقص عليكم ثلاثة أنباء فى الاكتشاف:نبأ عن المرحوم على باشا مبارك بنفسه ، ونبآن عن أستاذنا المرحوم الشيخ حسن الطويل ؟

أما النبأ الأول فذلك هو الخاص ببحيرة فيكتوريا نيانزا ، وذلك أن المرحوم (على مبارك باشا) ناظر المعارف العمومية كان كثير العناية بطلبة دار العلوم ؛ لأنه هو الذى أسس المدرسة ؛ وبينما كنت جالسا فى الفصل وقد كان يمتحننى أستاذى إسماعيل بك رأفت فى الجغرافيا آخر السنة الأولى إذ دخل الوزير رحمة الله عليه ، فسألنى عن منبع النيل . فقلت : بحيرة فيكتوريا نيانزا ؛ فقال : ألم يكشفها العرب ؟ فقلت : كلا ، قال : بل كشفوها . وعندى مساحتها بالحبة والدانق والقيراط فى كتاب بخط اليد ! فقلت : إذن لماذا يقال : إن كاشفها الإنجليز ؟ فقال : أمرونا فكتبنا !

أما النبأ الثانى فذلك رسم المنحنيات : قال لنا أستاذنا المرحوم الشيخ حسن الطويل : جلست مع وزير المعارف على باشا مبارك فأخذ يذم القدماء من المهندسين المسلمين ويقول إن كتبهم عقيمة سقيمة ! فقلت : لماذا؟فقال : كانت عندى رسالة فى فن رسم المنحنيات مخطوطة باليد . ولما لم أفهمها وجاءنى رجل فرنسى وأريتها إياه طلبها فأعطيتها إياه منذ عشر سنين ، فأرسل اليوم هذا الكتاب الضخم فى رسم المنحنيات بالفرنسية فقال : إن ما فيه هو مكبر ما فى تلك الرسالة الصغيرة ! فقال أستاذنا الطويل : يا باشا ، كانوا يؤلفون للمهندسين !

أما النبأ الثالث فهو الكتابة بالفضة على الزجاج ، وذلك أننا ونحن فى السنة الأولى من سنى دار العلوم جاءنا رجل أفرنجى وأخذ يحضر عقاقير لإحداث آثار الفضة على الزجاج مدعيا أنه الكاشف له . وحضرنا جميعا عمليته ، فلما كان اليوم الثانى أخبرنا المرحوم أستاذنا الشيخ حسن الطويل أنه أخذ الشيخ (محمد) الإبيارى والأستاذ أحمد الأزهرى بك وأراهما ليلاً صاحباً له مصريا يعرف هذه الصنعة عن أجداده ، ووصف لهم نفس العملية التى وصفها الإفرنجى وقال : إنه كان فى زمن شبابه يكسب منها أكثر من هذا الزمان الذى كسدت فيه هذه الصناعة .

وعند ذلك قال لنا شيخنا فى الدرس : كيف يأخذ هذا الرجل سبعين جنيها من الحكومة مكافأة على عمله وهو مبطل فى دعواه ؟ وكيف تنطلى تلك الحيلة على وزير المعارف ؟ وكيف يجهل الوزير الصناعة فى بلاده ؟ وكيف يجهل ذلك ناظر المدرسة إبراهيم بك مصطفى وهو ما أخذ الشهرة والبيكوية إلاّ بعلم الكيمياء ؟

هذا وإنى مستعد أن ألقى محاضرات عامة لطلبة المدارس العالية فى علوم أسلافهم ألا وإن فى البلاد من يريدون أن يصدوكم عما كنزه لكم آباؤكم ، ولن يكون هذا إلاّ وصمة فى تاريخ بلادنا العزيزة المجيدة ، ولى أشد الرجاء من إخوانى رجال المعارف أن يبينوا ما ظهر أن العرب كشفوه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

عن العددين ٦٨ و ٦٩ السنة الثانية من
« النشرة الاقتصادية المصرية » بتاريخ
١٦ و ٢٣ من مايو ١٩٢٢

مذهب السوفسطائية

قال اليعقوبى فى تاريخه (ص ١٦٦ ج ١) : وتفسير هذا الاسم (السوفسطائية) باليونانية « المغالطة » وبالعربية « التناقضية » يقولون لا علم ولا معلوم . إلخ) وقد تعقبه الأستاذ (سنتيلانه) وخطأه فقال : « السوفسطائية باليونانية معلمو الحكمة ، أو طالبو الحكمة »

وصوب كلام الشريف المرتضى فى الأتحاف (مجلد ٩ ص ٤١٨) إذ قال : « السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، ويزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وحقائق متميزة . فضلاً على اتصافها بالوجود . بل كلها أوهام لا أصل لها ، وسوفسطائية كلمة يونانية معناها طالب الحكمة » انتهى كلام الشريف الذى نقله الأستاذ سنتيلانه ، ثم قال :

والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة ، كانوا يجتازون المدن والأقطار يدعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا فى أقرب وقت مع أنهم أجمعوا أنه لا علم فى الحقيقة ، ولا حكمة ، وأن قصارى ما يدركه الإنسان من الوجود – على فرض وجوده – هو ما يدركه بحواسه الخمس ، ولما كان الإدراك الحسى مما يختلف بين الناس من إنسان لآخر ، بل فى الإنسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيراً مستمرا – لزم من ذلك أنه لا حق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ؛ ليستقيم به معاشهم ، ويكفى بعضهم شر بعض ، وهو نفسه أمر ليس بموجود طباعا ، ثم قال : وبعد إجماعهم على هذه الأصول اختلفوا : فذهب (بروتاغورس) إلى أنه ما ظهر لكل واحد حقا فهو حق بالنسبة إليه : فقال : إن الإنسان مقياس الأمور فى وجودها وفى عدم وجودها ، أى ما رآه كل واحد موجوداً فهو عنده موجود .

وما رآه معدوماً فهو بالقياس إليه معدوم ، ولا يتعدى الحكم إلى غيره .

وذهبت طائفة أخرى من أتباع (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء فى حكم التغيير الدائم – كان الإنسان غير متمكن من إدراك الحق بوجه ، وغاية ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه فى كل آن من ظواهر الأشياء لا يتعدى حكمه فيها إلى ما يدركه فى آن آخر . ولا يقول بوجود شىء البتة إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معاً لا طاقة للبشر عليها . قال : والمذهب الأول عند العرب يسمى مذهب (العندية) ، والمذهب الثانى (العنادية) . قال : وقد ألحقوا بهما مذهبا ثالثا ولكنه ليس من

السوفسطائية فى شىء ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصراً للإسكندر الرومى . ذهب إلى الشك المطلق ، وهو الإمساك عن الجزم بشىء أحق هو أم باطل ؟ ويسميه العرب بمذهب (اللا إرادية) . وإليهم أشار نصير الدين الطوسى فى حاشيته على المحصل (ص ٢٣) وذكر ما يقرب مما تقدم فلا نطيل فيه. فهاهنا خرج أهل البحث. من انحصار أفكارهم فى الماء أو الهواء أو أجزاء المادة .

وبعبارة أخرى أن هذه الطبقة – وهم السوفسطائية – أشبه بالجنين خرج من بطن أمه : فإذا كان من قبلهم قد حبسوا فى العناصر من ماء وهواء ونار وتراب ، أو فى أجزاء تلك العناصر – خرج هؤلاء من ذلك السجن المادى ، وقالوا : نحن لا نتقيد بقيد ما ! ثم قال : هذه هى فلسفة اليونان فى أواخر دهرها الأول ، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح : من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية ؛ وأخذ يدحض هذا المذهب . ومما قال : « وقد قيل : إن الشك يهدم نفسه » وذكر حكاية (ديوجانس الكلبى) أنه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها ، فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يتمشى فى المجلس ، ويضرب بعصاه الأرض إشعاراً منه بأن مثل هذا القول المنكر للظاهر لا يحتاج فى نقضه إلى بيان !

ثم نقل عن المتكلمين المسلمين فى كتبهم (أن هؤلاء الشاكين لا ينبغى مناظرتهم بل إحراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون) فيمكن التكلم معهم ، قاله الإمام الرازى فى المحصل ، والشيخ التفتازانى فى شرح العقيدة النسفية . إلى هنا ينتهى كلام الأستاذ ستيلانه . .

ثم إنى هنا لابد لى أن أنقل لقراء « المعرفة » الصحيحة المعارف ، كلام الأستاذ ستيلانه بنصه وفصه ؛ لأنه فيلسوف أوروبى ليكون ذلك زجراً لهؤلاء المتعلمين فى الشرق الذين يرجع بعضهم من أوربا وهم إما دهريون وإما طبيعيون ، وإما سوفسطائية . وهم يجهلون ما عند أساتذتهم من العلم ، فيرجعون وهم غافلون . قال ما نصه بالحرف الواحد :

« أما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها فهو لا يرضى العاقل المتبصر » كأنه يقول : نعم لا أنازع فى كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ؛ وإنما توقفت فى كيفية صدور الفعل منها . فلو لم يكن هناك إلاّ مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفحول ؟ كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، ومجرد البحث – ليت شعرى ! كيف بقيت على تآلفها ، وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت المعاينة بأن حركات أجزاء لا نهاية لها ولا محرك لا تفضى إلا إلى غاية الالتباس ، وعدم القياس ؟ هذا لعمرى كمثل من وضع حروف المعجم فى ظرف أو صندوق ، ثم جعل يحركها يوما فيوما طمعا منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فيتركب منها قصيدة بليغة ، أو رسالة

عميقة فى المنطق أو كتاب فى الهندسة دقيق ! أليس هذا من السفه المبين ؟ فإنه لو دام على تحريكها السنين والدهور ما حصل من كده إلا على حروف ! فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الإتقان والإحكام وتطابق الأجزاء وعجيب مناسبة بعضها إلى بعض ، من حركات اتفاقية فى خلاء لانهاية له ؟ .

قال أرسطو طاليس فى كتاب « سمع الكيان » : (إن كل نظام يدل على وجود العقل ، وفضلا على هذا إن ما حصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلى عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة فى عالمنا إلى الثبوب ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ، ولا شىء سواها فمن أين هذه القوى العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه وهى مع ما فيها من العجز والقصور من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية ، فوجود مثل هذه القوى يستدعى وجود جوهر عقلى يجانسها ويماثلها ويكون مركزاً لها ؟) ثم قال :

« وهل من المحتمل أن ما نشعر به من تصور المعقولات ، والكشف عن الكيان ، وتفريق القضايا ، وتركيب القياسات لم يكن فى نفس الأمر إلا من اصطكاك المادة بجزء آخر ؟ وهل يسوغ فى العقل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الدقيقة ، والمآخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، وما فتنت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان أصله من تلك الأجزاء ؟

هنالك سلم اليونانيون من هذه الحيرة فلا العناصر كالماء والهواء أصل الوجود ، ولا الجزء الذى لا يتجزأ ، ولا مذهب الشك ، أو العندية ، أو العنادية - تغنى فتيلا عن معرفة الحقائق .

عن « مجلة المعرفة » الجزء الثانى السنة الأولى
الصادر فى الأول من يونية عام ١٩٣١

فى الفلسفة العربية

جبلت النفوس على حب الاستطلاع ، وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة ، وشاقها ذلك السقف المرفوع المزين بالنجوم المتلألئة المختلفة الأشكال الجميلة الألوان السارة للنظارين .

ثم راعها ما على الأرض من زينة وجمال ، من أنهار جاريات ، وبحار واسعات ، ومعادن نافعات ، ونبات متسق الأوراق بديع الأزهار ، يانع الأثمار ، زين الأرض بمحاسنه ، وذوقها بأنيق بدائعه ، عاش به الإنسان والحيوان ، فكان منه غذاؤهما ودواؤهما وبهجتهما ، وأودعه من الغرام به والشهوة له ما ساقها إلى السعى والبحث عنه كل حين .

الحيوان مكتف بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوى ووبر وشعر وصوف وأنياب محددة ومخالب قانصة وقوة جثمان وعدو سريع وإلهام يهدى إلى سبل المعاش .

أما الإنسان فإنه خلق عارياً كثير الحاجات ، يسعى لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره ، فضعفه ظاهر ، ووهنه حاضر .

لذلك اقتضت الحكمة أن يمتاز بالعقل ، فيسعى به لمآربه من الغذاء والدواء واللباس والمسكن والتعليم والتهذيب والمعاشرة ونظام الجمعية الإنسانية . فما أكثر حاجة الإنسان ! وما أحوجه إلى العلم والمعرفة ! وما أقل حاجة الحيوان ! وما أحراه بالحرمان من معارف الإنسان !

إن النتائج تتبع المقدمات ، والثمار على حسب النبات : فمن كفاه غيره السعى والطلب عاش خاملا ومات جاهلا ، ومن قام بأمر نفسه وسعى لها سعيها أكسبها قوة وأنالها حرية كانت حريَّة بالإجلال والإعظام . هذه هى المزية التى اختص بها الإنسان وبها سعادته . ألا ترى أن كمال كل شىء فيما اختص به ؟ فالفرس كماله فى العدو السريع ، وأنه إذا عجز عن ذلك نزل إلى مرتبة الحمير وعومل معاملتها فى الحمل والأعمال الخاصة بها ! هكذا السيف : كماله أن يكون صارماً سريع القطع ، فإن نزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ونبذه الشجعان ، وخرج من الميدان !

هكذا الإنسان : لم يمتز إلا بالعقل والعلم ، فإذا ما كان غافلا نزل إلى رُتبة أدنى من الحيوان ، أولئك كالأنعام بل هم أضل منها ؛ لأنها كاملة فى ذاتها لقيامها بما يناسبها ، فإذا انحط إليها الإنسان وشاركها فى منازلها فهو فى خسران مبين !

إن الفطرة الإنسانية شاهدة بما قلناه فإنه – وإن نال الإنسان ما يبتغيه من المال وما يحب من الجاه – ولا يفتأ يفرح بحلو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء ، ويشتاق لذلك ، ويحرص عليه ! ولقد نرى أكثر الناس جهلاً وأبعدهم عن العلم مجلساً إذا عُيروا بالجهل عدوه إثما عظيماً وناوءوا مَنْ عيَّرهم وشاكسوه ؛ ذلك لأن فطرهم شاهدة أن كمالهم بالمعرفة ونقصهم بالجهل .

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله ليعرف أسباب الأشياء ومسبباتها ، كل ذلك شواهد ناطقة على ما قررناه ، وترى جميع الناس فى مشارق الأرض ومغاربها من أى دين أو نحلة يجلون العظماء ، ويعظمون الحكماء وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين لما ركز فى طبائعهم ووقر فى نفوسهم من شرف العلم وجماله واختصاصه بالإنسان .

تطابقت فطرة الإنسان وحاجته ؛ فكماله النفسى بالعلم وسعادته فى الحياة بالعلم . ونظر الإنسان فرأى فى نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة ، فاحتال فى تهذيبها ، وجدّ فى تكميلها ، فكان علم الأخلاق . ثم رأى زوجا وولداً وخدماً ، فكانت سياسة المنزل ، ثم كان اجتماع أهل المدينة ، وكان لابد لهم من نظام وقوانين وأحكام ، فكانت سياسة المدنية .

قرأت الأمم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والمعاملات ، ثم الطبيعة لتستخرج بها ما فى الأرض من منافع ، ونظرت فى العوالم فأقرت بإله نظمها وحكم أبدعها .

أهل المدنية كلما كانوا بالعلم مغرمين ، وعلى الفضيلة عاكفين – كملت مدنيتهم وازدادت سطوتهم ، وكلما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المصير !

وأقدم أمة عرفها التاريخ فى الحكمة قدماء المصريين ، وهكذا السريانيون ، وقام على آثارهم الكلدانيون ثم الفرس واليونان ، وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل : سقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذه أرسطو . ولقد كان هذا أرسخهم فى العلوم ، ولذلك يسمى « المعلم الأول »

ولما انقرض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة نالوا من حكمة اليونان حظا عظيما ونبغ فيهم نابغون مثل سنيكا وشيشرون ، ولما تنصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبها فى خزائنهم ، ثم جاء الإسلام وظهر أهله عليهم وامتد سلطانهم وعظمت شوكتهم ودانت لهم الأمم شرقا وغربا ، فاشرأبوا إلى ما نالته الأمم السابقة من روائع الحكمة وبدائع العلم والإحاطة بما فى هذا الوجود على ما يقتضيه العمران ويتطلبه الملك وتعظم به الدولة ، وكان خالد بن يزيد بن معاوية – ويسمى حكيم آل مروان – رجلاً فاضلاً محبا للعلوم فأحضر جماعة من الفلاسفة ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة وغيرها من اليونانى إلى العربى ، وهذا أول نقل فى الإسلام .

ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الأموية ودانت لها البلاد واستتب الملك أرسل أبو جعفر

المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة . فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون وفهموها وزادوا حرصا وشوقا إلى علوم الحكمة . كما روى « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » .

فلما كانت أيام المأمون وقد كان أُشرِب قلبه حب العلم وأغرم بالحكمة أرسل إلى ملك الروم فى استخراج علوم اليونانيين واستنساخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك . فترجموا منها الكثير وتلقاها النظار من أهل الإسلام بالقبول وعكفوا عليها ونبغوا فى فنونها . ولقد خالفوا المعلم الأول فى كثير من المسائل وردوا عليه . ودونوا فى ذلك الدواوين وكثرت التآليف .

ثم إن العلماء الذين ترجموا الكتب للمأمون كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة جاءت كتبهم متخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة ، ولم توافق ترجمة واحد منهم الآخر ، فبقيت إلى زمن منصور بن نوح السامانى ، فالتمس من أبى نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة . فأجاب الفارابى وفعل كما تقتضيه ، وسمى كتابه بالتعليم الثانى ؛ فلذلك لقب بالمعلم الثانى وبقى هذا فى خزانة المنصور إلى زمن السلطان مسعود من حفدة منصور بن نوح .

وكانت تلك الخزانة بأصفهان وتسمى بصيوان الحكمة ، وكان الشيخ أبو على الحسين بن عبد الله ابن سينا الطبيب الفيلسوف المولود سنة ٣٧٥ هـ والمتوفى سنة ٤٢٨ هـ (سنة ١٠٣٦م) وزير المسعود — كان قد تقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم إليه خزانة الكتب ، فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد بينها التعليم الثانى ، ولخص منها كتاب « الشفاء » ثم إن الخزانة أصابتها آفة فاحترقت ، وقد اتهم بعض الناس الرئيس بأنه أحرق الكتب لئلا يطلع الناس على الحكمة التى نقل عنها . وهذا باطل لما يرى فى كتاب الشفاء من تصريحه بأنه تلخيص « التعليم الثانى » .

ومن الحكماء فى هذه الأمة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى الفيلسوف من أمراء بنى كندة ، وكان من المكرمين لدى الخلفاء من المأمون إلى المتوكل ، ولد سنة ٢٤٠ فى البصرة ثم سكن بغداد واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وبتأليف كتب فى الفلسفة والرياضيات والطب والهيئة والموسيقى ، وعدد مؤلفاته ٢٦٥ ، وأكثرها ضائع الآن . .

ومن المترجمين البطريق فى أيام المنصور بن يحيى الذى نقل المجسطى وإقليدس للمأمون وحسين بن بهريق الذى فسّر للمأمون عدة كتب ، وكثير غيرهم : هؤلاء فى المشرق ، أما فى المغرب فكان القاضى أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، فهؤلاء نشروا كتبهم فارتقت الدولة واستبحر العمران حتى إذا تغير الزمان وقلب ظهر المجن وذهبت الدولة نادى ابن خلدون فى مقدمته

بالويل والثبور وقال : أيها الناس ، لا تغفلوا عن الصناعات والعلوم فقد ركدت ريح مدنيتكم وخرّ عليكم السقف من فوقكم فأصبحتم من الخامدين !

ولما افتتح الترك القسطنطينية وقد نالوا حظا وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحكمة على المسلمين ، فمالت شمس الحضارة هناك إلى الغروب ، ونادى عالمهم ملا كاتب جلبي المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى بالويل والثبور ، وقال ما ملخصه : « ولما حل أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم ، وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكمل ، فاندرست العلوم بأسرها إلاّ قليلا من رسومها ، فكان المولى المذكور سببا لانقراض العلوم من الروم ، كما قال العلامة شهاب الدين الخفاجى فى خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة . »

فانظر كيف شكا علماء العرب والترك قديما من الجهالة العمياء والداهية الدهماء الحالّة بالأمم الإسلامية من ترك العلوم الفلسفية !

عن « مجلة المعرفة » الجزء الثالث – السنة الأولى – الأول من يوليو سنة ١٩٣١

من الشرق إلى الغرب

الإنسان نوع واحد من أب وأم ، فأصبح شعوبا وقبائل ، فتكاثروا أفخاذاً وعشائر لتزداد السعادة ويتم الهناء فى الأمم والأفراد.انتشروا فى الأرض شرقا وغرباً ، فكانوا شرقيين وغربيين . الشرق أب ، والغرب ابنه ، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء . أما الديانات فكلها شرقية ؛ إذ فيها البوذية والكونفوشيوسية ، واليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . زحف من الغرب إلى الشرق اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل وبعد ميلاد المسيح . واقتسموا السلطة هم والفرس فى الشرق الأدنى وهم غاصبون . هنالك قال الأب لابنه : أيها الابن العزيز ، لئن رميتنى بحجر لأرمينك بالتمر . لا تخرجُنَّ من دار أبيك إلاّ بعد أن أهديك الصراط المستقيم . وهل ذلك إلاّ قول المسيح عليه السلام . اعبدوا الله أيها الأبناء ، وأفشوا فى الأرض السلام . لا سلاح، لا قتال ، لا جدال ، كونوا عباد الله إخوانا ؟

وهل سبب ذلك إلاّ أنه رآهم يعبدون غير الله ؟ فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، والفرنسيون كانت تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين . والإنجليز كانوا يسجدون للصخور والحجارة ولمنابع المياه . فأما أستوريا (النمسا) وبروسيا (ألمانيا) والروسيا وإسبانيا والبرتغال وهولندة والدانيمارك والسويد والنرويج وسويسرا فإن دينهم القديم دين من ذكرناهم أولاً حذو القُذَّة بالقذة . فلما رآهم على هذه الحال دعاهم إلى عبادة الله وإلى السلام ، فدخلوا فى الدين المسيحى أفواجا : ففرنسا سنة ٤٩٦ م وإيطاليا سنة ٥٠٠ م ، وإنجلترا سنة ٥٩٦ م ، ويقرب من هؤلاء فى التاريخ الإسبانيون والنمساويون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا ، ما عدا دولة الروسيا ؛ فإنها لم تدخل إلا فى نحو القرن العاشر الميلادى ، ولكن لما دخلوا المسيحية لم يعملوا بما علمه المسيح من السلام العام ؛ إذ افقوا فى الشرق ، وازداد ظلم الرومان للشرقيين فمم كان هذا ؟ ظهر نبى عربى فى صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح :

أفشوا السلام ، وأديموا الصيام ، وصلوا بالليل والناس نيام — تدخلوا جنة ربكم بسلام . ودعا كم إلى الإسلام والسلام العام ، واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة ؛ لأن المسيح قبله لم يخضد من شوكتهم ، ولم يعملوا بنصائحه فى السلام ، ليتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لهم معلمون .

لم تمض على امتشاق الحسام الإسلامى عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها ، وتركوا الشرق إلى أهله ، إذن الإسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية بسلام أهل الأرض . فسلام المسيح عقائد ، وسلام الإسلام عقائد وأعمال ! هنالك أخذ النور يمتد فى الشرق ، والظلام يعم فى الغرب ، واستبد البابوية الرومانيون ، وقتلوا وأحرقوا بالنار ألوفا وأذلوا ملوكهم ، وأذاقوهم سوء العذاب . قال المسيح لهم : « طوبى للرحماء فإنهم يرحمون » ، « طوبى لصانعى السلام فإنهم أحباب الله يدعون » فخالفوا قوله : ففى سنة ٧٨٢ م قبض شرلمان بإيعاذ إينوشسيون الحبر الرومانى على أربعة آلاف سكسونى فى مدينة « واردن » وضرب أعناقهم فى يوم واحد ؛ لأنهم أبوا قبول العماد ! وفى سنة ١٠٠٧ م أحرق فى مدينة « أورليا » جملة هراطقة وهم أحياء ، وتبع ذلك كثير من القتل والإحراق فى سنة ١١٢٤م وسنة ١١٥٥ م حتى عم الظلم والإهلاك والتدمير . وأسس ديوان التفتيش فى سنة ١١٨٢ م وصادق عليه البابا إينوشنسيوس الثالث وثبته البابا « غريغوريوس » وتسلم « دومينيكوس » ورهبان إدارته وسودوا صفحات التاريخ بإحراق وقتل الملايين من الناس !

هنالك ساقهم العناية الإلهية إلى الشرق ، كما ساقهم فى المرة الأولى التى فيها اعتنقوا دين المسيح ؛ لأن فى الشرق نوراً إسلاميا متى أشرق على ربوعهم قل ذلك الظلام ، إن الله هو الذى رحمهم بانبعاث نفوس رجال الدين إلى إغرائهم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة ، فآثروا الحروب الصليبية ودام الصراع نحو ٢٠٠ سنة ، فرجعوا يحملون فى صدورهم نور العلم والإصلاح ، والحرية والإخاء ، بسبب معاشرة أهل الإسلام ، فلم يملكوا الأماكن المقدسة ، ولا بلاد الشرق ، ولكن ملكوا ناحية السيادة ، وانتزعوها من رجال الدين الذين أغروهم بمحاربة الشرقيين ، فكانت الهزيمة لأولئك الباباوات الذين هم فى الحقيقة الجانون على الدين ، لا الشرقيون .

ورجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلا حجة ، فأراد الله انتقاص سلطتهم بالعدل ، فكان الإغراء بالانتقام راجعا إليهم « إن ربى على صراط مستقيم »[1]

فهل ظهر فيهم « لوثر » المصلح العظيم وفولتير وروسو ، وأضرابهم إلا بعد اطلاعهم على كتب منقولة فى تعاليم الإسلام « وأمرهم شورى بينهم » ألم يقل سديو الفرنسى فى كتابه « تاريخ العرب » : إن اللاتينيين استمدوا العلوم الفلكية الأولية من العرب ؛ فإن جوبرت الذى كان بابا رومية الملقب بسلوستور الثانى أدخل من سنة ٩٧٠م إلى سنة ٩٨٠ م عند الإفرنج العلوم الرياضية ، التى كسبها عن عرب إسبانيا وادهيلارد الإنجليزى ساح من سنة ١١١٠ - ١١٢٠ م فى كل من إسبانيا ومصر وترجم مبادئ إقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية ، وهكذا سارت أمم أوربا وعلماؤها

---

(١) هود : ٥٦ .

مثل الخواجا رودلف من أهالى « بروجس » البلجيكية ؛ إذ ترجم مسائل بطليموس فى الفلك ، و « بتليون » البولندى ترجم كتاب « الخازن » فى علم « الضوء والمناظر » وهكذا كثير وكثير جداً .

هكذا هم أولاء اليوم رجعوا مرة ثالثة إلى الشرق ، بلا حجة إلاّ اهتضام حقوقه ، وإذلال الشرقيين . قبلوا مسيحيتنا منذ ١٤ قرنا ، ففى نصفها الأول لم يحسنوا استعمالها ، فكانوا بها قوما مستعبدين ، وأذلهم رجال الدين . وفى نصفها الآخر أشرقت عليهم أنوار إسلاميتنا فساروا إلى الأمام ، نحن الآباء وهم الأبناء . يعلومنا وديناتنا ارتقوا فهل نصيب الأب من ابنه أن تكون . الخيانة ، والوصاية الجاهلة ، والجشع الغشوم ، والاستبداد والاستعمار ؟ أغضبتم الإنسانية أيها الغربيون « إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدئ ويعيد » [١] « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » [٢] وما مثلكم فى ذلك إلاّ كمثل النمل ، إذ تحارب جيوشه أنواعا أخرى منه ، ويعيش الغالبون من ثمرات كد المغلوبين ، فينقرض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان ، فأنتم فى ذلك كالنمل أو كدولة الرومان !

ها نحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا . وبينكم فى أيامنا هذه . فألفينا عهودنا مع الضعفاء محفوظة ، فأما أنتم فلا عهد لكم مع الضعفاء !

فها كم أيها الأبناء ما جاء فى كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » تحت عنوان « جندى سابور » :

روى الطبرى أن أبا حبرة لما فرغ من « السوس » خرج من جنده حتى نزل على جندى سابور وزر ابن عبد الله بن كليب ، فحاصرهم ، فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال . فلم يفجأهم يوماً إلاّ وأبواب البلد تفتح ، ثم خرج الناس وخرج من فى الأسواق . فأنبث أهلها ، فحار المسلمون فى ذلك ، وأرسلوا فسألوهم أنْ مالكم ؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان ، وأقررنا لكم بالجزية ، على أن تمنعونا ؛ فقال المسلمون : ما فعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا فسأل المسلمون فيما بينهم فإذا عبد يسمى « مكنيفا » كان أصله منها هو الذى كتب لهم . فقالوا : إنما هو عبْد ، فقالوا : إنا لا نعرف حركم من عبدكم ، فقد جاءنا أمان ، فنحن عليه قد قبلنا ، ولم نبدل ، فإن شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم : « إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا ، ما دمتم فى شك أجيروهم وأوفوا لهم ؛ فوفوا لهم وانصرفوا عنهم » .

أليس هذا تاريخنا وتاريخكم ، وفينا بعهد عبد لنا ، ولم تفوا بعهود أقطاب سياستكم ، إذن عالم الإنسان اليوم مجرم كذاب .

أيها الإخوة الغربيون ، الدهر قلب . وتلك الأيام نداولها بين الناس . والشرق هو الشرق ، وقديما

---

(١) البروج : ١٢ ، ١٣ .

(٢) الدخان : ١٦ .

هجمت عليكم أمم قبل التاريخ المسيحى ، فأهلكوا الحرث والنسل . ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبعة قرون . ولايزال أعقاب التتار فى بلاد النمسا إلى الآن ، وها هم أولاء التتار المسلمون فى قلب روسيا المسيحية . أليس هؤلاء أمماً شرقية . حذار ، حذار أيها الغربيون ؛ إن فلاسفتكم ، وكبار علمائكم — يعلمون أن عملكم عاقبته خسران لكم ، ولكنكم لا تحبون الناصحين ؛ لأن العامة يسوقون نوابكم إلى مزاولة الشهوات الحاضرة الزائلة ، وأعينهم فى غطاء ، والجهل يطمس على أبصارهم ، فلا يدركون سر العواقب ، فهل ترضون أيها السواس أن تكونوا أسرى العامة تابعين لأهوائهم ؟ ألا ساء ما تفعلون ، شر الشرق أبدى ناجذيه لكم . آن وقت الحساب . واستيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ، ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب . فأسرع الزرع فى نمائه .

احذروا غضبة الشرقيين . اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان مع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تعقلون ؟ أفلا تنظرون ! فياليت شعرى ! من ذا الذى يصد ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه ؟ ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها ، أو الهواء عن مسراه ؟ . . إذا خطر لكم ذلك ، فأهون به خاطراً وما أضل هواه !

مجلة « المعرفة » الجزء الرابع ، السنة الأولى — الأول من أغسطس سنة ١٩٣١

القضاء والقدر

لهج الناس فى كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ، ويقولون : إن الله يقول « إنا كل شىء خلقناه بقدر » [1] وإذا كان كذلك فلم العذاب ؟ ولم العقاب والعتاب ؟ – ثم إنه رحمان رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين ؟ وأين السعادة للمظلومين ولمن هم فى عذاب الجحيم ؟

هذه حال الإنسان على أى ملة كان ، وأى دين فى مشارق الأرض ومغاربها : حيرة لا حد لمداها ، وأسئلة لا جواب عنها إلاّ من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكون نوع الإنسان أشبه بالعين .

هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ، فهاك أيها الذكى فاستمع ما ألقيه الساعة إليك بقلب صاف ونفس واعية ، وتدبر ، فإنه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة فى القلب شفاء وكن من المستبصرين .

لأضرب لك أولاً مثلاً برجل مهندس عبقرى فى الهندسة ، عزم على أن يبنى بيتاً – وهو بأنواع البيوت علم – ففكر فى صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها فى نفسه ، واصطفاها لمسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناه وشاده على أحسن منوال وأجمل مثال ، وفى البيت فُرُشٌ مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان ، تقر به عيون الناظرين ، ويسر بمرآه جمهور الزائرين ، فدخل البيت زائرون : منهم العميان ومنهم المبصرون.ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا فى البيت كما يشاءون ، ويتفرجوا بفرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون .

فانطلق أحد العميان فى المنزل ، فاصطدم فى أرض الحجرات والأرائك ، فخر على الأرض كالصريع ، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات ، فأدمت أنفه ، وما كاد يمسحه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله فى المرحاض ، فقعد حزينا كئيبا ، وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف خاب ظنى فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟

ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر ، فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن

---

(١) القمر : ٤٩ .

الإتقان ، ففرح أشد الفرح وقال : هذا هو النظام ، وهذه هى الرحمة والإحسان .

هذا أيها الذكى هو المثل الذى ضربته لبيان هذا المقام .

إن علم المهندس بنظام البيوت واصطفاءه منها واحداً هو أجملها ، ضَرْب مثل للقضاء : فالقضاء راجع لما ثبت فى العلم القديم للمكونات . **وإبراز البيت على ما قدره المهندس** فى نفسه على أحسن منوال ، ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ما سبق به العلم القديم .

والعميان ضرب مثل لجميع الجهلاء على أى دين كانوا ، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعليماً ناقصاً فى مدارس الشرق والغرب أجمعين .

والمبصرون ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم ، وزكت نفوسهم واشتد شوقهم للعلم والبحث ، فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بمالا يعرفون .

فدرسوا هذه الدنيا دراسه متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات . وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ويكلمونهم بما يعقلون - وسعدوا سعادة لا حد لمداها ، وكانوا من الفائزين . وهؤلاء يقال لهم « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . فإذا سمعوهم يتحدثون فى القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء ليس لامرئ أن يقصر فى عمله محتجا بالقضاء . فتلك حجة الكسالى الغافلين ، فإذا ما أتمه على حقيقته واجتاحته الجوائح فهنالك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين .

إن هذه المسأله ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوة : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » فرد الله عليهم مهدداً بالوعيد فقال : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » [٢]

ونقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى : هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون فى القضاء والقدر وهم جاهلون .

إن الأمم التى فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هى التى استعدت للفناء وباءته بالوبال ونسيت عقولها وعدتها حملاً ثقيلا عليها ، لأنهم على الشهوات عاكفون . وفى غمرة الجهالة

---

(١) الأنعام : ١٤٨ .

(٢) الأنعام : ١٤٨ ، ١٤٩ .

ساهون ، وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ؟ وأنّى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال فى الفتيات والفتيان ؟

إن المسلم الذى شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها لحرى به أن يبوء بالخسران ؛ فهذه الطائفة فى الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون فى أماكن الشرب العامة ببلادنا المصرية ، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها ، وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم ، فهم فى ذلك مغرورون !

إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكماء محققون ، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون : فالفريقان الأولان مطمئنون ، والفريق الثالث جعلته حيرته مهازا يسوقه إلى البحث ، فإذا قصر فهو فى ضلال مبين .

وكيف يخوض فى القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ، وأن فى كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات – وهى الطبقات السبع : طبقة تسمى الشبكية وهى لا تزيد فى سمكها على سمك ورقة الكتابة وهذه حدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون أسطوانة وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسى واضحة . وبهذه الملايين يكون الإحساس والنظر ؟

بعد كتابة ما تقدم فى هذا المقال وجه إلى أحد الأصدقاء اعتراضاً جاء فيه ما يأتى :

إن هناك فرقا بين المثل والممثل له : فإن المهندس رب البيت ليس مسئولاً عن العمى ؛ فليس من حق الأعمى الذى حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له : لم كنتُ أعمى ؟ لأن المهندس لا سلطان له على عين الأعمى ، ولكن الممثل له غير ذلك ؛ فإن الذى أصبح متشككا متحيراً هو نفسه من صنع الله ، وإذن فالإشكال باق والمسألة على حالها والمثال لا يجدينا نفعاً ، فأمن الحاضرون على كلامه ، وسكت قليلا ، ثم تبسمت وقلت : لا إشكال ، لا إشكال ! فقال الحاضرون : أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك أسرتان ، أسرة كبيرة وهى نوع الإنسان ، وأسرة صغيرة وهى المعروفة ، ألستم ترون فى الأسرة الصغيرة أن صاحب المنزل هو الذى يديره وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه فى الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟ قالوا : نعم . قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللاً وظلما ؟ قالوا كلا ، بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة ؛ فقلت : إن العامة فى العالم الإنسانى يمثل لهم بالخدم ؛ لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا . وأما رب البيت فهو ضرب ممثل بصانع العالم ، وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا ، وفكروا فى نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الإنسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم . والمتعلمون نصف تعليم هم حكماء الأمم ،

فهؤلاء إذا أحسّوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة ، لأنها تدفعهم إلى استيعاب العلوم ، فإذا كسلوا وناموا كما هى الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فإنهم لا جرم يحيون حياة كلها اضطراب ، ويرجعون القهقرى ، وتكون الشهوات سلوتهم الوحدة وهذا هو السر فى تأخر بعض أمم الشرق التى كثر العلم فيها ، ولكن لا استقلال لها لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمى غير مكين ، فهل وجود أطفال الأمم خلل فى النظام ؛ قالوا : كلا لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا ؛ قلت : إذن العميان فى مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالاً أو مآلاً عدل وحكمة وكمال ؛ فقالوا : نعم ، فقلت : الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة .

مجلة « المعرفة »
الجزء السابع – السنة الأولى
شهر نوفمبر عام ١٩٣١
ص ٨٧٣ – ٨٧٥

فى الخلافة الإسلامية

مبحث الخلافة الإسلامية مبحث مهم من المباحث العلمية الإسلامية ، وكل علم لا يعرف الناس أدوار تاريخه ، إنما هو فى دراستهم له وأحكامهم فيه أشبه شىء بمن يبنى بيته على شفا جرف هار ، أو بمن يستسمن ذا ورم وينفخ فى غير ضرم !

إن الخلافة الإسلامية فى الأعصر الغابرة قامت بدور عظيم مهم وشغلت أمم الإسلام قاطبة ، وتفرقوا فيها فرقا شتى وأحزابا متباينة ، وينشأ الناشئون من الأبناء على ما عودهم الآباء :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ماكان عوده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهل يتسنى لطفل تربى على مذهب خاص فى أمر الخلافة أن يفكر فى القرآن وفى الإجماع ؟ بل يظل على عقيدته حافظا لطريقته لا يتعداها ، جامداً عليها لا يتخطاها . إن أكثر نوع الإنسان فى الأرض مقلدون ، جمدت القرائح وتعارضت الظنون ، ووقفت الحركة العلمية الإصلاحية فى جميع الشئون ، حتى إذا قرعت القارعة ، وأصابت الصاعقة ، وأحاطت بنا الأمم – وهم من كل حدب ينسلون – أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون . فتعالوا أيها المسلمون أنثر عليكم نبأ الخلافة ، وأبدى رأياً مجملاً يقبل التفصيل والتحوير .

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأى فيه إلا بالبحث فى أحوال الخلفاء والسابقين والوقوف على أعمالهم حتى نستنتج نتائج منها ، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا ، ونبنى على ذلك الأساس عملاً بقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » وقوله تعالى « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون »[1] .

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى موجهة للمصلحة العامة بإخلاص تصبح خدمة عامة لا يتنطح فى أمرها عنزان ، ولا يرثها الأبناء عن الآباء ، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سوء تنقلب فى أيدى الجهال وتأبى أن يناالها الأبطال : توفى رسول الله ﷺ وخلفه أبو بكر فعمر فعثمان فعلى رضى الله عنه . درسنا مجمل اخلاق الخلفاء الراشدين ، فلم نجد أبا بكر وصى بها لابنه ،واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله ، ثم لم نر أحداً منهم استكثر من الأموال واتبع الشهوات ، ذلك شأن الخلافة فى

(١) الأعراف : ١٠٠ .

الإسلام ، إن أمر الخلافة شورى بين المسلمين « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » هذا هو الصراط المستقيم .

مضى عصر الراشدين ، وتولاها الأمويون وأولهم معاوية ، فاستبدوا بالأمر ، فقاومهم بنو هاشم ففتك بهم الأمويون فتكا ذريعا ، ثم اشتد العباسيون والعلويون فى مقاومة الأمويين ، وساعدهم شيعتهم الفارسيون وبطلهم أبو مسلم الخراسانى . وأكثروا من موضوعات الأحاديث ، وما كاد الأمر يتم للعباسيين حتى قلبوا ظهر المجن للعلويين وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، وقتل المنصور محمد بن عبد الله ، وهو الخليفة الحقيق صاحب البيعة الصحيحة !

هنالك أصبح الخليفة العباسى بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمن وأبناء عمه العباسيين بالشمال ، بل كثيرا ما كانوا يقتلون شيعتهم غدراً كأبى مسلم الخراسانى وجعفر البرمكى وغيرهما كثير . ولقد تغالى العباسيون فى إذلال العرب كما تغالى بنو أمية فى إعلاء شأنهم على غيرهم ، وما قاله إبراهيم الإمام لا يرده مسلم « من ترددت فى أمره فاقتله » وحرضه على قتل العرب فقتل منهم ٦٠٠ ألف رجل غدراً وهم آمنون .

مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون وأم الأول عربية وأم الآخر فارسية ، فنصر الفرس ابن أختهم وشردوا العرب كل مشرد وأذلوهم ، ومنعهم المعتصم العطاء.ولما كانت أم المعتصم تركية من بلاد الصغد أصبح مغرما بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين .

هنالك أصبحت الخلافة فى العباسيين اسماً بلا مسمى ، وتنازع القواد من غير العرب الرياسة وصار الخلفاء آلات صماء فى أيديهم ، فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩ ، وسملوا أعين بعضهم حتى زالت الدولة على أيدى التتار ، وكل ما حصل للعباسيين تم نظيره فى الأندلس ، وقد كانوا يستغيثون بجيرانهم من الإسبان على إخوانهم ، فيهلك الفريقان ، فربما كانوا يقتلون المستجير بهم غدراً ؛ كما حصل لجندل بن حمود أمير أشبيلية إذ وعده البابا ودوق فينزيا وبعض دوقات أوربا أن يكون ملك الأندلس كلها إذا ساعدهم فى فتح قرطبة ، فبر بوعده لهم فقتلوه غدراً وخربوا أشبيلية !

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وما يتبعها من الإمارات فى الإسلام ، وكان ذلك كله عقابا على ترك الشورى المنصوص عليها فى القرآن . والذى أراه :

أولا – أنه يجب على كل أمة – عربية أو غير عربية – أن تمنح التعليم للذكور والإناث بقدر الإمكان .

ثانيا – يجتمع أمراء الإسلام المفوضون من أممهم فى أمر الخلافة ، لينتخبوا أميراً منهم لها ، على شريطة ألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم من صلح أو حرب أو غيرهما كما يفعل الخلفاء .

ثالثا – أن يكون الانتخاب لسنين محدودة أو لمدة الحياة ، فإذا انقضت المدة فى الحال الأولى أو مات فى الأخرى ، فلينتخبوا سواه بالشورى ، فإذا أعيد انتخابه فى الحالة الأولى قلد ذلك .

رابعا – يجب أن يراعى فى الخليفة أمران مهمان وهما : (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الأمراء (٢) أن يكون أهل مملكته أعم من سائر الأمصار ، ولا يكون للنسب فضل إلا فى الترجيح إذا تعارض أميران واستوفيا ما ذكرناه . ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى « وزاده بسطة فى العلم والجسم » .

خامساً – كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لا حق له فى تولى أمر الخلافة ، لأن رأيه تابع لرأى من فوقه ؛ وهذا ضار بالمسلمين .

سادساً – إذا تعذر الاجتماع فى هذا الزمان – لضعف أو افتراق كلمة – فليتربص المسلمون الوقت المناسب .

فأما الخلافة الضعيفة التى يتولاها من لا يحوز هذه الثقة فما هى إلا شبكة صائدين ، وحيلة محتالين ! فهل المسلمون عقار يتناوله الأبناء عن الآباء ؟ كلا ، إنهم خير أمة أخرجت للناس ، وهم شهداء عليهم فليكونوا بالأولى لخلفائهم مصطفين ، ولهم مشيرين ، وعلى أعمالهم شاهدين ، ولاعوجاجهم مقومين .

هذا ما أراه فى شأن الخلافة وفوق كل ذى علم علم .

مجلة « المعرفة » الجزء التاسع
السنة الأولى – الأول من يناير عام ١٩٣٢

العلوم الرياضية عند قدماء المصريين:

هل هى خالية من السحر؟

قرأت ما كتبه الأستاذ أحمد فؤاد الأهوانى مدرس الفلسفة بالمدارس الأميرية فى مجلة « المعرفة » عدد شهر يونيو سنة ١٩٣٢ تحت عنوان « فلسفة العلوم الرياضية » وقد راقنى هذا المبحث الجليل وحفزنى إلى كتابة هذا المقال :

إن معرفة تاريخ العلم لها أكبر الأثر فى الأمم ، وكل علم جهل تاريخه عند قارئيه فهو أبتر ، لا يورى ناراً ، ولا ينفع جارا ، ولا يدفع عاراً ؛ فلله در من يفتحون هذا الباب للأمة المصرية كالأستاذ الأهوانى.ولكنى لما قرأت فى هذا المقال ما ملخصه : إن المصريين أول من تكلموا عن الرياضة ، بصفة وصفية علمية ، وإن رياضتهم كانت خالية خلواً تاما من النظرة السحرية التى طغت على عقل الإنسان الأول كالأمة الإغريقية التى كانت مملوءة بالأفكار السحرية عن الأعداد – أقول لما قرأت ذلك تذكرت أن أستاذنا المرحوم (على مبارك باشا) مؤلف كتاب (خواص الأعداد) قد أثبت أن قدماء المصريين كانوا يستعملون الأعداد فى السحر ، فإذا كان الأستاذ الأهوانى قد أثبت ذلك عند غير قدماء المصريين فهاهو ذا مبارك باشا أكمل حلقة الأمم القديمة بالمصريين ، ويقول : هم بالأعداد ساحرون ! وكتابه (خواص الأعداد) المذكور مملوء بالجمال العلمى والمباحث العالية الشريفة ، وقد قال فى أول الكتاب : إن تلك المباحث اطلع عليها من الكتب الفرنسية ، وإن فيها كثيراً من خواص الأعداد ، وعلم الأوفاق ، وهذا بيت القصيد فى مقالنا . . إنه يقول : إن الجدول الوفقى عبارة عن مربع مقسم إلى عدة مربعات صغيرة متساوية ، تشتمل على حدود متوالية هندسية أو عددية من داخلها ، موضوعة على وجه بحيث يكون مجموع أعداد كل صف من الصفوف الأفقية أو الرأسية واحداً ، وكذلك فيما إذا جمعت أعداد كل صف من الصفوف المار بها قطر المربع الأكبر وفيما إذا كانت أعداد المربعات حدوداً متوالية عددية ، ومثاله هذا الجدول :

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

هذا جدول وفقى مركب من خانات فردية عددها ٢٥ ، وما فى داخلها من الأعداد هو ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ وهكذا إلى ٢٥ ، موضوع على الوجه المذكور فى التعريف . بحيث لو جمع كل صف من صفوفه الرأسية أو الأفقية أو الصفين المار بهما قطر المربع الأكبر – لكان حاصل جمعه مساويا حاصل جمع أى صف من تلك الصفوف التى مجموع كل منها ٦٥ ، وخاصية هذا الجدول الوفقى الفردى هى أن حاصل جمع أى صف من صفوفه ، أو صف أى قطر من قطريه مساوٍ لحاصل ضرب جذر عدد الخانات ، وهو ٢٥ فى عدد ١٣ الذى هو وسط المتوالية ، والذى فى مربع تقاطع قطرى هذا الجدول ، أى فى الخانة الوسطى منه فإن جذر ٢٥ هو ٥ وبضربها فى ١٣ يتحصل ٦٥ ، وهو مجموع أى صف كما سبق . وهكذا أخذ المؤلف يضع أوفاقا على هذا النمط ثلاثية ورباعية وخماسية إلى تساعية إلى أن قال فى صفحة ٥٦ ما نصه :

« هذه الجداول التى كان يعتنى بها المصريون ومن أخذ عنهم مثل فيثاغورس وجماعته – إنما سميت بجداول الأوفاق لنسبهم لها إلى الكواكب السبعة ، فإنهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة فى صور مختلفة ، وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن المؤتلف مع الكواكب ، وكانوا يجعلون جدول الوفق المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة عدد أضلاعه بقدر ما يشتمل عليه ضلع المربع من الوحدة (كذا) ، ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكواكب ومرسومة عليه أيضا فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة إشارات منطقة البروج ، وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معه .

وكيفية انتساب تلك الجداول إلى الكواكب هى أنهم كانوا يجعلون لزحل المربع المنقسم إلى تسع خانات جذر عددها ٣ ، ومجموع أعداد صفه ١٥ ، وإلى المشترى المربع المكون من ١٦ خانة جذرها ٤ ومجموع أعداد صفه ٣٤ ، وإلى المريخ المربع المركب من خمس وعشرين خانة وضلعه ٥ ومجموع أرقام صفه ٦٥ خانة ، وإلى الشمس المربع المكون من ٣٦ خانة وضلعه ٦ ومجموع أعداد صفه ١١١ ، وإلى الزهرة المربع المشتمل على ٤٩ خانة وضلعه ٧ ومجموع أعداد صفه ١٧٥ ، وإلى عطارد المربع المشتمل على ٦٤ خانة وضلعه ٨ ومجموع أعداد صفه ٢٦٠ ، وإلى القمر المربع المشتمل على ٨١ خانة وضلعه ٩ ومجموع أعداد صفه ٣٦٩

وأخيراً كانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على أربع خانات وضلعه ٢ ، ولله الواحد الأحد المربع المكون من خانة واحدة وضلعه واحد ، بحيث إنه لو ضرب فى نفسه لا يتغير أبداً »

ثم أخذ يبين أن هذه الأوفاق التى كانت موضوعة للسحر عند هذه الأمم أصبحت الآن موضوعة لورق لعب الميسر عند الأوربيين ، وأطال فى ذلك بما لا محصل لذكره .

هذا ما أردت أن أبينه لقراء « المعرفة » من هذا الكتاب الجليل المنقول عن الفرنسية ، ومنه نتبين

أن المصريين أصابهم ما أصاب غيرهم من جعل تلك الأوفاق البديعة الجميلة الدالة على جمال العقل الإنسانى قد استهوت عقول أمم وأمم إلى التنزل بذلك الجمال البديع من أفقه العالى ومقامه السامى ، فى مناطق العقل الإنسانى – إلى دركات الجهل والاستجداء ، وطلب المعونة من الكواكب تارة عند قدماء المصريين وغيرهم من الجن وغيرهم عند كثير من رعاع المتعلمين فى الديار الإسلامية .

إن عدوى التطور سريعة سرت من الأمم القديمة الى الأمم الحديثة ، وقد حلت هذه الجهالة بساحة الأمم الإسلامية وسرت إليها . . ألم تر إلى الباطنية فى العصور الأولى قبل ظهور حسن بن الصباح بقلعة الموت هناك كيف كانوا يجعلون للأوفاق المذكورة سلطانا على تابعيهم ، ويقولون إن المثلث – الذى تراه أمامك – له أثر فعال فى وضع الحامل وغير ذلك ؟ وقام أبو حامد الغزالى وفند آراءهم فى إنكار بعض فضائل الشريعة الإسلامية ، واحتج عليهم بأن هذا المثلث على ما تزعمون وتقولون إنه نافع ، فما المناسبة بين هذه الأعداد وبين وضع الحامل ؟ وإذا كنتم تجهلون ذلك الذى تزعمونه باطلاً فيكف تعرفون المناسبة بين الصلاة وبين نجاة الروح يوم القيامة ؟ . (انظر شكل المثلث فى كتابه الرد على الباطنية)

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

إن هذه الخرافات التى حلت بساحة عقول الأمم القديمة كالمصريين – حلت بساحة الأمم الإسلامية ولا تزال عالقة بأذهان صغار المتعلمين إلى الآن ، وكتبها التى تداولها الناس منتشرة انتشاراً مزعجاً موقفة عقول كثير من صغار المتعلمين ، فيجب محوها من أمم الإسلام ، كشمس المعارف الكبرى للبونى وغيرها .

هذا ما كان عند الفاطميين كما قلنا أيام حسن بن الصباح فى القرن الخامس الهجرى ، أما هو فإنه حرم العلم على الخواص ، وأمرهم باتباعه هو وخلفائه ، ومنهم (أغاخانون) بالهند اليوم ويتبعه ثلاثة ملايين من النفوس . . إذن فالقدماء استعملوا طريقتين فى تخدير الأمم :

الطريقة الأولى : طريقة السحر المتقدمة التى تجعل الإنسان متكلاً على شىء خيالى ، فيعيش خاضعاً لرئيسه بلا عقل ولا هدى ولا كتاب منير .

الطريقة الأخرى : أن يقول المتبوعون للتابعين لا تقرءوا العلم ؛ وإن العلم حجاب بين الله والناس !

والطريقتان معاً لا تزالان فى أمم الإسلام إلى الآن ، وكم من كتب سحرية خيالية نسبت إلى الدين والدين منها براء ، وما هى إلاّ عبادة الصابئين (عباد الكواكب) مزجت بآيات القرآن ! وكم من شيوخ صغار النفوس يزهدون الناس فى العلم ويقولون : إنه حجاب !

وإنما أفضت القول فى هذا المقام ؛ لتعلم أن معرفة تاريخ العلوم هو الذى يخرج الأمم من الظلمات إلى النور ؛ فلولا ما اطلعنا عليه من تاريخ العلوم الرياضية الآن لم نعرف من أين جاءت هذه الخرافات فى الكتب السحرية التى شاعت فى كل زمان ؟ فإذا كان تاريخ العلوم الرياضية قد أثبت أنها دخلتها خرافة السحر ، وربطت عقولا وعقولا فإنا نقول : وهذه الخرافة ها هى ذى الآن تودى بكثير من صغار المتعلمين ، فيجب على أمم الإسلام إزالة هذه الخرافة التى أدخلها قوم قبلنا فى الآيات القرآنية ، وجعلوا لها حساباً وأوفاقاً ، فبعد أن كان قدماء المصريين يتقربون بها للكواكب أخذها بعض قدمائنا ، ومزجوها بآيات القرآن ، فظن ضعفاء المسلمين أن هذا دين ، وما هو بدين ، إن هو إلاّ ضياع للشبيبة ، والسبب فى ذلك نشر تلك الكتب ، فيجب تحريم طبعها ونشرها بين المسلمين .

تذكرة : حدثنى أحد باعة الكتب فقال : كثيراً ما يرد لنا الشاب متأنقاً لابساً أحسن الملابس فيأخذ كتاب « شمس المعارف الكبرى للبونى » فلا يمضى عامان حتى يرجع كالأبله ضعيف العقل مختل الشعور !

مجلة « المعرفة » الجزء الثالث – السنة الثانية
يوليو سنة ١٩٣٢

مذهب داروين[1]

عند العرب

حضرات الدكاترة المحترمين محررى المقتطف الأغر.

أهدى لكم أجل تحية وتكريم ، وبعد فقد اطلعت فى مجلتكم الصادرة فى هذا الشهر على ما أجبتم به عن سؤال جاءكم من طرابلس الشام قال لكم فيه السائل : إنه رأى فى صفحة ٣٩ من كتاب « نظام العالم » ما يأتى : « إن العرب ربطوا ما بين الحيوان والإنسان بالقرد وغيره من بعض الحيوانات ، ولم يربطها داروين إلاّ بالقرد وحده . وإن داروين حصر بحثه فى قوس من (دائرة الوجود) ، فأجبتم بقولكم : (كلام غير صحيح !) والظاهر أن صاحبه لم يقرأ كتابا من كتب داروين ، ولو قرأ فصلا واحداً من كتبه ما قال شيئا من ذلك ، ولا نظن أن العرب قالوا شيئا فى هذا الموضوع لم نطلع عليه . ثم ضربتم مثلا مطولاً قلتم فى آخره : (فما قولكم فيمن يقول قولاً أو يرتئى رأيا ولا يؤيده بدليل نظرى ولا عملى ، ثم يدعى أنه سبق العالمين العاملين الذين يقضون العمر فى البحث والتدقيق إلخ ؟) فلما أن راجعت الكتاب فى صفحة ٣٩ لم أجد شيئا مما ذكره حضرة السائل ، وفيها ما نصه :

(القسم الخامس فى ترتيب الحيوانات ترتيبا إجماليا وكيف كانت درجات بعضها فوق بعض وترتيب النبات وشرح دائرة الوجود التى ذكرها الأقدمون والمناسبة بينها وبين مذهب داروين ؟)

هذا ما رأيناه فى تلك الصفحة من كتاب الزهرة الذى جعلناه مقدمة للكتاب ، فكأن السائل لم يقرأ كتاب « نظام العالم والأمم » ولو أنه قرأ وطالع الفصول التى شرحنا فيها مذهب العرب ومذهب داروين فى نحو ٨٠ صفحة لم يوجه لكم مثل هذا السؤال ، ولعلم إذ ذاك أننا لخصنا ما ذكره العلامة لويس بخنر الألمانى فى شرح مذهب داروين على سبيل الإيجاز مقارنين بينه وبين ما رآه المعتزلة وفلاسفة الإسلام : إن فى هذا لبلاغا لحضرة السائل . .

إن لنا معكم لقولاً آخر فاسمحوا لنا أن نناقشكم ما كتبتموه بالحجة والبرهان ، فإننا والحمد لله لسنا ممن يقول بلا بينة ، كما أنكم ممن تقدرون الحقائق قدرها وللحرية فى مباحثهم قدم راسخة ومنهج

---

(١) عن « جريدة مصر الفتاة » العدد ٣٤٣ بتاريخ ١٥ من نوفمبر ١٩٠٩ .

واضح وإذن نقول : إن السائل التقط بعض ألفاظ سؤاله من مواضع أخرى غير ما ذكره فجاءت محرفة الكلمة عن مواضعها مشوهة لا تسر الناظرين ؛ فعلىّ أن أوجز لكم ما أطلنا به هناك فأقول :

إننا ذكرنا أن العرب جعلوا دائرة الوجود سلسلة واحدة وهى الأثير والعنصر والمعدن والنبات والحيوان والإنسان والملك وهى درجات بعضها فوق بعض ، فتناول بحثهم العناصر والمعادن وشمل أقسام العالم واتصل اتصالاً مناسبا عجيبا ، بل تجاوزوا ذلك فجعلوا وجود كل فلك مما قبله . وليست المعادن مركبات عند الإفرنج كما كانت عند العرب ، وأكثر مبحث داروين إنما هو فى النبات والحيوان وقد أتى فيهما بالعجائب والغرائب ؛ وإن مذهب النشوء يعم المادة وما ينتج منها من شموس وأقمار وكواكب وقد تكفل بالبحث فى ذلك دى لابلاس ونيوتن وغيرهما من الفلاسفة العظام ، ولم يقل أحد إن داروين كان يشرح فى الأجرام السماوية كما ينظر فى طبائع العالم العضوى ولئن ذكر شيئا من ذلك فرضا إنما على سبيل الاستطراد ، فإذا قلنا : إن بحثه خاص بالحيوان والنبات لم نقل شيئا إداً ولم نبخس الرجل حقه !

إننا أطلقنا العنان للقارئ ولم نرد أن نصوغ عقله صوغا تقليديا ولا أن نحط به إلى دركات الجهالة ، وإنما شأننا أن نبسط الأقوال ونشرح براهينها ولا نضيق على القارئ الخِنَاق كى يصطفى ما يشاء .

غير أن التقليد فى العقائد كلها دينية أو علمية يئول بالأمم والأفراد إلى التقهقر والسقوط فى الهاوية . إننا جعلنا الكلام فى مقامين : الأول مقام اليقين والآخر مقام الشك :

فأما اليقين فى اتساق هذه السلسلة الحيوانية والنباتية وتنظيمها وتناسقها وتلازم حلقاتها ؛ لأنه مما يدعو الناس إلى البحث عن حقائق الحيوان والنبات وعجائبها وغرائبها ؛ فإن النفوس البشرية تعشق كل كمال وجمال ، وتبحث عن حسنه وبهجته ، فيؤدى ذلك إلى بهجة العقول بحقائق خواصها ومنافعها وارتقاء أعمال الحياة العادية والسياسية . وهذا غاية علم العلماء وحكمة الحكماء .

وأما الشك فى تعين الطريق المؤدى لهذا التناسق والانتظام والجمال والتوقف عن القطع بالتولد الذاتى أو غيره .

ولسنا بدعا فيما قلنا بل من العجب أن داروين فى آخر كتابه قال ما نصه : « إن المشابهة وأسبابا غيرها كثيرة تدعونا ضرورة للاعتقاد بأن عالم النبات والحيوان ناجمان من أصل واحد وأن لا فاصل بين العالمين – ثم استدرك على نفسه فقال : إنى أرى فيما يظهر لى أن الكائنات العضوية التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أزلية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة على أن أساس هذه النتيجة المشابهة ، فالتسليم بها وعدمه غير جوهريين »

وهذا بلا ريب قول حكيم قطع باليقين وتوقف فى الشك ، إن هذا العالم الحكيم أهل للإجلال ، فإنه جعل الجوهر هو المشابهة الداعية للعلم والتفقه فى علوم الحيوان والنبات ، وصغر من شأن ذلك العرض وهو الاشتقاق وعدمه فبمشابهة هذه العوالم تدعو إلى التحقيق بمعارفها ، ومن وقف نفسه على التبجح والاشتقاق وعدمه فقد سفهها واستمسك بمقال الخيال .

وكثير من الناس يجهلون أنواع الحيوان ولا يفهمون من النبات إلاّ أوراقه ، ثم يقولون : نعرف مذهب داروين كذب محض وخطأ فاضح .

ألا فليقرءوا وليفهموا كما أراد الرجل الحكيم . أليس من العجيب أن يكون ما سلكناه سبيلا فى كتابنا عما قاله العلامة داروين من أن المقلدين لأرباب المذاهب فى كل دين وأمة يقطعون بما فرضه الأولون ويستيقنون بما شك فيه الذاهبون ؟ ولذلك قام بعده شارحه الأستاذ « برن » مترجم داروين وندد بهذا القول وشنع عليه وأوسعه ذما وتقريعا وقال : ليس لنا إلا أن نتوسع بمذهب التسلسل الذى وضعه داروين حتى آخره ونجعل العالم العضوى مشتقا من صورة واحدة بسيطة جدا ، إن لكل مذهب سورة وحدّة تتقد فى نفوس متبعيه مدة من الزمان ، ثم تخف حدتها بل تخبو نارها على توالى السنين ، شأن كل كائن حى ، أليس سورة الأستاذ « برن » أخذت تهن وتخمد نارها فى مقالاته فى مجلة المقتطف فى الجزء الحادى عشر المجلد الثالث والثلاثين تحت عنوان « مواضع الوهن فى المادة » ؛ إذ نقل ما قاله « ديكارت » و « ليبنتز » . إنه طعن مذهب النشوء الطبيعى طعنة نجلاء . فأصاب مقاتله فى جواهره الفردة وفى مادته وقوته وفى تغيره من البسيط إلى المركب ، وفى أن الحياة والفعل مظهران من مظاهر بقاء القوة . ولقد أوهن هذا المذهب الطبيعى الشهير « هومبولت » حين وزن « السيارات » وقاس كثافتها فوجد أن أثقالها تناسب الرأى السديمى على خط مستقيم . وقال العلامة « تنول » إن أتعابى فى تقرير هذا المبدأ ذهبت أدراج الرياح ؛ فإنى لم أجد للتولد الذاتى من أثر ، بل وجدت كل تجربة تناقضه . وبمثل ما صرح « تنول » صرح غيره من كبار الحكماء مثل هكسلى وسبنسر وبرتون وغيرهم ، وكلهم مجمعون على أن العلم ينفى التولد الذاتى وينقض أقوال دعاته إلخ » وجاء فيه أيضا ما نصه : « ولقد رأيت الباحث المستجد كالنحلة تحط على أى زهرة عرضت لها : تارة يعجب بالمادية وطوراً بالإلهية ، ومن بين هذه وتلك كالقارب فى الخضم الهائج تتقاذفه الأمواج وتلاطمه اللجج وقد فقد الدفة ، فاستسلم للعوامل تذهب به حيث شاءت ، فإذا تعمق فى البحث قليلا وجد أن أتعابه ذهبت سدى ، وتحقق أن العقل البشرى لا يستطيع الوصول إلى علة العلل . هذا قول يشف عن حكمة فى نفس قائله ، وهو عين ما ارتضاه داروين لنفسه » .

فيا حضرات الدكاترة ، إذا كنا قضينا على آثار داروين والعلامة ليبنتز والفيلسوف هومبولت

وتنول وهكسلى وبرتون واختططنا لأنفسنا ما أقره رجال المقتطف أنفسهم وقلنا لأبنائنا فكروا وافقهوا وقارنوا فذلك مفتاح الرقى الفكرى وباب الحرية العقلية أفيكون قولنا إذ ذاك بلا حجة ولا برهان ؟ . . وإنى أجل رجال المقتطف الأجلاء عن الإقرار على ما كتبوه فى جواب السائل بعد ما بينا خطأ السؤال وما سلكناه فى هذا المنهج المبين ، ونعتذر عما فرط من حضراتهم فى الجواب ، لأن أعمالهم العظيمة لا تسمح لهم بقراءة كتابى . وهنا أوقفنا اليراع فى مضمار البحث فى آراء الإفرنج خوف السآمة والملل ، ثم عقدنا لآراء العرب فصلاً آخر نذكره بعد هذا فنقول :

آراء العرب فيما ذهب إليه داروين :

إن ما ضربتم من الأمثال فى جوابكم عند المقارنة فيما ذهب إليه العرب وما بحث فيه داروين وإن بحث الثانى نسبته إلى الأولين هائلة عظيمة كنسبة من فكر فى قناطر أمريكا الحديدية ولم يصنعها ، ومن فكر فصنع فحاز القناطير المقنطرة من الذهب والفضة مع أن الأول ليس عنده إلاّ الخيال – يدلنا على أنكم صورتمونا بصورة من يغمط الرجل حقه ولا يجعل للآخر فضلاً فى مباحثه وحاشى الله أن أبخس الباحث المتأخر حقه ؛ كما أنى لا أنسى للمتقدم سبقه ، ومن أظلم ممن يبخسون الناس أشياءهم فينسيهم ذكاء المتأخرين فضل المتقدمين أو تقدم الأولين مباحث الآخرين ! إننا قصرنا بحثه على النبات والحيوان والإنسان وهذا المقدار على تشعب مسالكه وتكثر فروعة جزء من دائرة العالم كله المسماة عند العرب بدائرة الوجود وهى التى أتم بحثها « لا بلاس » وغيره من العلماء الأوربيين المتأخرين ، فليس ذلك مانعاً من فضله ودقة بحثه ؛ فلكل أمة قسط من العلم وحظ من الفضيلة .

أما قولكم – ولا نظن أن العرب قالوا شيئا فى هذا الموضوع لم نطلع عليه تشيرون إلى ما قلنا من أن الرابطة بين الإنسان والحيوان هى القرد عند داروين وهى القرد وغيره من حيوانات أخرى عند العرب ، وأشرتم إلى أن العرب لم يزيدوا على أمة الرومان واليونان شيئا – فإنا نقول : لسنا الآن فى حاجة للكلام فى رفع شأن أمة العرب ؛ فقد قام به من هو أغزر علما فى التاريخ وأعلى كعباً وأكثر تمدينا وهو العلامة « سديو » الفيلسوف الفرنسى ؛ فلقد أثبت أنهم زادوا على الأمم السابقة فى مباحث كثيرة ، واكتشفوا واخترعوا . على أن هذا البحث لا يغنينا ، فلنحصر كلامنا فيما توخيناه وسقنا الكلام له :

إنا لو شئنا لكتبنا مجلداً ضخما فيما قاله العرب فيما نحن بسبيله من تشابه العالم العضوى من النبات والحيوان ، ولكنا نقول : كانت هذه المسألة شائعة بين أرباب العلم حتى ذكرها الفخر الرازى فى تفسيره فى سورة الروم فذكر تشابه هذه العوالم واتصال بعضها ببعض ، وأشار بالرد على مذهب الاشتقاق ، وفى هذا دلالة على وجود هذا المذهب فيما بينهم حتى احتاج للرد فى تلك العصور

السحيقة . وهاكم فصلاً وجيزاً من فصول إخوان الصفا لتعجبوا من تشابه الأقوال بين المتقدمين والمتأخرين وإن اختلفت فى بعض الوجوه ولتستبينوا صحة ما نقلناه عنهم . قال ما نصه بالحرف الواحد :

« واعلم أن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان ؛ كما أن أول مرتبة النباتية متصل بآخر مرتبة المعدنية ، وأول مرتبة المعدنية متصل بالتراب والماء كما بينا من قبل : فأدونُ الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة فقط وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذى فى سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة وتنبسط يمنة ويسرة تتطلب مادة يتغذى جسمها بها ، فإذا أحسّت برطوبة ولين انبسطت إليه ، وإذا أحست بخشونة وصلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذراً من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلا الحس واللمس فقط . وهكذا أكثر الديدان التى تتكون فى الطين وفى قعر البحار وأعماق الأنهار : ليس لها سمع ولابصر ولاشم ولاذوق ، لأن الحكمة الإلهية من مقتضاها ألا تعطى حيواناً عضواً لا يحتاج إليه ، وإلا كان وبالاً عليه فى حفظه وبقائه فى هذا النوع كحيوان نباتى لأنه ينبت جسمه كما ينبت بعض النبات ، ويقوم على ساقه قائما وهو من أجل أنه يتحرك جسمه حركة اختيارية حيوان ، ومن أجل أنه ليست له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوان رتبة فى الحيوانية . وتلك الحاسة أيضا قد يشارك بها النبات :

وذلك أن النبات له حس اللمس فقط ، والدليل على ذلك إرساله بعروقه نحو المواضع الندية ، وامتناعه عن إرساله نحو الصخور واليبس أيضا ؛ فإنه متى اتفق منبته فى مضيق مال وعدل عنه طالبا للفسحة والسعة كأن فوقه سقفاً يمنعه من الذهاب علوا وإن كان له ثقب من جانب مال إلى نحو تلك الناحية حتى إذا طال طلع من هناك . فهذه الأفعال تدل على أن له حسا وتمييزا بقدر الحاجة ، وأما حسّ الألم فليس للنبات ، وذلك أنه لم يَلِقْ بالحكمة الإلهية أن تجعل للنبات ألما ولم تجعل له حيلة الدفع كما جعلت للحيوان ، وذلك أن الحيوان لما جعلت له أن يحس بالألم جعلت له أيضا حيلة الدفع : إما بالفرار والذهاب والهرب وإما بالتحرز وإما بالممانعة ، فقد بانت بما وصفنا كيفية مرتبة الحيوانية مما يلى النبات ، فنريد أن نبين كيفية مرتبة الحيوان فيما يلى رتبة الإنسان ، فنقول :

إن رتبة الحيوانية مما يلى رتبة الإنسان ليست من وجه واحد ، ولكن من عدة وجوه ؛ وذلك أن رتبة الإنسانية لما كانت معدة للفضل وينبوعاً للمناقب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان ، ولكن عدة أنواع : فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورة جسده مثل القرد ، ومنها ما قارب بالأخلاق النفسانية

كالفرس فى كثير من أخلاقه ، ومثل الفيل فى ذكائه ، وكالببغاء والهزار ونحوه من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات ؛ ومنها النمل اللطيف الصناعات إلى ما شاكل هذه الأجناس : وذلك أنه ما من حيوان تستعمله الناس ويأنس بهم إلاّ ولنفسه قرب من نفس الإنسانية : أما القرد فلقرب شكل جسمه من شكل جسد الإنسان صارت نفسه تحاكى أفعال النفس الإنسانية وذلك مشاهد منه متعارف بين الناس ، وأما الفرس الكريم فإنه بلغ من كرم أخلاقه أن صار مركبا للملوك ، وذلك أنه ربما بلغ من أدبه أنه لا يبول ولا يروث مادام بحضرة الملك أو حاملاً له . . وله أيضا مع ذلك ذكاء وإقدام فى الهيجاء ، وصبر على الطعن والجراح كالرجال الشجعان كما وصف الشاعر فقال :

وإذا شكا مهرى إلىّ جراحه عند اختلاف الطعن قلت له : اقدما
لما رآنى لست أقبل عذره عض الشكيم على اللجام وهمها !

وأما الفيل فإنه يفهم الخطاب بذكاء ، ويمتثل الأمر والنهى كما يمتثل الرجل العاقل المأمور المنهى »

هذا ما أردنا نقله من كلام فلاسفة الإسلام ؛ لنستبين السبيل وليقف الناس على نبذة من آراء الأولين ومباحث الآخرين فى هذا الموضوع ، وليعلم فضلاء محررى المقتطف الأغر أن ما ذكرناه عن العرب قد أوضحوه فى كتبهم بأوسع ما بينا .

نصوص مختارة من بعض كتبه

ويحسن بنا – بهذه المناسبة – أن نورد فيما يلى نماذج متفرقة من بعض كتبه ، مما قد يتضح به النهج الذى سار عليه الشيخ طنطاوى فى التأليف ، ويوضح أسلوبه ويبين منهجه .

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن من العسير حقا أن نلم بما سنورده من مقتطفات من كتبه إلمامة كاملة بمحتوياتها .

من كتاب «ميزان الجواهر»

أقسام الحب

اعلم أن الحب أربعة أقسام :

الأول : مذموم وهو الحب الشهوانى السافل الذى اشترك فيه الحيوان والإنسان ، فمن تولع به دل على نقص فطرته ، وهو مستفيض فى الطبقة السفلى من الناس «ذلك مبلغهم من العلم» .

الثانى : حب الناس بعضهم بعضاً للكمال والآداب وهو مستفيض بين ذوى النفوس العالية والأخلاق الكريمة والأدباء والظرفاء ، ومتى اعترته الشهوة صار من الطبقة السفلى كما تنزل الفرس عن مرتبة الجياد إلى درجة الحمير بضعفها عن الكر والفر .

الثالث : أن تحب جميع العوالم للبحث عن حقائقها حتى كأنك عاشق لكل ما تراه لتبحث عن حقيقته ، وهذا عشق العلماء والعارفين .

الرابع : محبة مدبّر هذا الكون .

واعلم أن كل درجة من هذه الدرجات أعلى مما قبلها ومقدمة لما بعدها إلاّ الأولى فإنها قد تعد فسقاً وفجوراً مردية إلى جهنم وبئس المصير . اللهم إنا نسألك أخلاقاً عالية ، ونفوساً صافية ؛ حتى نصل إليك ؛ فالحب لا يمكن إلاّ مع تهذيب الأخلاق ، وكلما تهذبت النفس وصَفَتْ سعى الإنسان فى نفع أمته لحبه لها ؛ ولذلك ترى أهل الكمال يحرصون على منافع أممهم حبا وشفقة مع بحثهم عن الحقائق الكونية ، ثم يغلب على نفوسهم حب ربهم : قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : «رَبِّ قد آتيتنى من الملك وعلّمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين» «يوسف : ١٠١» فالملك إشارة إلى نفع أبناء الجنس ، وتعلم التأويل إشارة إلى التمكن فى العلم ، وما بعده إشارة إلى ولوع النفس بالرب سبحانه وتعالى ؛ وأما المرتبة السفلى فهى منعدمة عنده عليه السلام بالعفة التى مدح بها فى أول السورة فافهم النكت القرآنية العجيبة .

ولما كانت البغضاء منافية لمقصود الشرائع الإلهية ورد قوله تعالى «وأنْ تعفوا أقرب للتقوى[1]» ، «فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين[2]» ، وقوله تعالى «ولا تنسوا الفضل

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .

(٢) الشورى : ٤٠ .

بينكم »[١] وقوله عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ولكن مع هذا كله يجب على العاقل الاحتراس من الأعداء وأهل الشر والخداع وأن يكون على حد وسط بلا إفراط ولا تفريط . فلا يصادق أحداً إلاّ بعد تجربته . وإذا أحب أو أبغض فليعتدل كما قيل : أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما . والمقصود الاعتدال على حال التوازن فى جميع الأطوار كما هو حال الكواكب المذكورة . فكأن البغضاء التى أشار إليها الله تعالى بقوله « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو »[٢] سوط أدَّب الله به عباده فيقفون موقف الاعتدال ككواكب السماء .

ألا فاستقم فى كل أمرك واقتصد فذلك نهج للصراط قويم
ولاتك فيه مفرطاً أو مفرطا كلا طرفى كل الأمور ذميم

فبقوة التنافر والتجاذب تم نظام الحياة « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا إلى الله إنّى لكم منه نذير مبين »[٣] وهنا نكت يفهمها أولو الألباب ولنشر إلى طرف منها فنقول :

اعلم أنه لو كانت الحياة الدنيا ليس فيها إلاّ أسباب الوفاق التام لا منازع ولا مشاحن ولا مقاطع ولا مدابر – لكانت دار سعادة ؛ إذ الحب هو المطلوب . وهو لذة الروح التامة ، وحينئذ لا يجب الإنسان الانتقال منها إلى دار الآخرة ؛ فمن رحمته أن أدخل التنافر مع المحبة والمنع مع الإعطاء والفقر مع الغنى والذل مع العز لئلا يركن العاقل إلى دنياه ؛ فلذلك أعقبه بقوله : « ففروا إلى الله » . واخرجوا من هذا التنازع فيالها من سياسة إلهية كاد يحوم حولها الإسكندر فى شغله ملوك الطوائف بعضهم ببعض ليفروا إليه وبعضهم لبعض مبغضون ! فمن لم يزهد فى الدنيا بعقله فالحوادث تبغضه فيها رحمة من الله بخلقه . والمقصود أن النعيم فى الدنيا واللذة ليسا مقصودين « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب ما أحببت فإنك مفارقه . وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به » جاء هذا فى الأحياء ؛ فالدنيا كلها لا ترى فيها إلاّ جذباً وتنافراً تشهد بذلك الكهربا يعرفها من درس الطبيعة ، وهكذا الموت والحياة . والحزن والفرح ، والخير والشر ، والظلمة والنور ، والعلم والجهل ، والبذل والمنع ، وكل هذه متناقضات والعقل والشرع حاكمان بين تنافر الأخلاق : فالفرار إلى الله بالعلم واستعمال العقل وفهم الشرع ؛ حتى يحكم العقل ويحكم الله وهو خير الحاكمين ولهذه الآية وجه آخر عجيب فراجعه فى كتاب « جواهر العلوم » .

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .
(٢) البقرة : ٣٦ .
(٣) الذاريات : ٤٩ ، ٥٠ .

جوهرة فريدة :

ما أجمل الحكمة وألذ العلم ! كم من قارئ يقرأ القرآن ولا يعقل ما فيه من الحكم ولا يذوق حلاوة لطائف معانيه : تأمل فى مدارك الإنسان التى لا يصل العلم إليه إلاّ بها وهى ست : العقل ، والحواس الخمس تجد بينها تفاضلاً وهى درجات بعضها فوق بعض : فما كان منها أبعد مرمى بحيث يدرك ما بعد عنا فهو أشرف ، وما كان منها مقصوراً على إدراك القريب أو الملاصق فهو أدنى مرتبة وأقل شرفاً : فالقسم الأول هو العقل والبصر والسمع ، والآخر هو الشم واللمس والذوق . وقد ذكرناها الآن مرتبة باعتبار درجاتها من الأعلى إلى الأدنى ، فكانت نعم الله على الإنسان فى القسم الأول أعظم ومطالبته بالشكر عليها أكبر ؛ ولذلك خصت بالذكر فى تلك الآيات المتقدمة ، فافهم نكت القرآن وإشاراته ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول :

وكم من نواميس فى طى الخفاء عن البشر لم يطلعوا عليها وسيأتى لك هدا إن شاء الله عند ذكر قوى الإنسان وعلومه . إن قوة البشر لا تبلغ إلاّ قدراً محدوداً من العلوم كما سترى البرهان عليه بأجلى بيان ، وإن قوة العقل تقف عند حدها كما تقف قوة البصر عند حد معلوم ، وكما لا تعرف العين الأصوات ولا الأذن الألوان كذلك العقل لا يعرف ما ليس تحت طاقته وما لا يلزم العالم الإنسانى فى معاده أو معاشه وإلاّ تشوشت عليه حياته واختلت أحواله وساء مصيره . قال تعالى : «ولا يحيطون بشىء من علمه إلاّ بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض»[1] وتصوير الحشر بما ذكر من النجمة وأنها هى أرض الحشر والجنة والنار تخيل فاسد نشأ عن فهم عامى ، كيف ذلك وقد تضافرت الكتب السماوية ودلت الدلائل العقلية وقامت الحجج اليقينية على أن عالم الآخرة أوسع من السموات والأرض وما بينهما ؟ وما جواب هذا المتخيل إذا سئل عن تلك النجمة كيف يحصل فيها النعيم المقيم مع ما ورد أن بعض أهل الجنة من المؤمنين يأخذ قدر الدنيا عشر مرات مع أنه آخرهم دخولاً ؟ (انظره فى الشمائل للترمذى) وإذا كان هذا حال أقل أهل الجنة فكيف بالصالحين الأبرار ؟ بل كيف يكون حال العلماء العارفين ؟ وكيف بالأنبياء والمرسلين ؟ «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً»[2]. وكم ورد فى سعة الجنة ونعيمها مما لا يتناهى ! حتى ورد تقديرها لعموم الخلق بأعظم ما يتخيلونه من عالم المساحة ولا مساحة أوسع من السموات والأرض فقال تعالى : «وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين»[3]. مع أنها أجل وأوسع وأعظم من ذلك فأين النجمة التى هى ذرة

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .

(٢) الإسراء : ٢١ .

(٣) آل عمران : ١٣٣ .

صغيرة من عالم السموات ؟ بل أين السموات والأرض وما بينهما «والله واسع عليم يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلاّ أولوا الألباب[1]» . ولأمسك عنان القلم عن الخوض فى عباب هذا البحر ؛ ففى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

تعليق :

أحب أن أسترعى النظر إلى أن ما سبق كان ردًّا على بعض علماء الفلك الذين يتصورون أن قيام الساعة عبارة عن اصطدام نجم مع الأرض ، فتتزلزل زلزلة عظيمة وتخرج أثقالها ، ويقول الإنسان مالها . ويقع كل ما عليها على تلك «النجمة» وهى العالم الأخروى الذى يكون فيه الحساب والعقاب والجنة والنار وهى تكون أوسع من أرضنا طبعاً . .

من كتاب «التاج المرصَّع»

الجوهرة الرابعة عشرة : «تربية الوجدان فى الإسلام» :

لقد ترك الشرقيون الطريقة التى أشار إليها القرآن الشريف واتبعها الإفرنج ، كما درسته فى كتب الغربيين ، وكلتاهما ناقصة والطريقة المثلى أن يؤخذ النشء بدرس الأشياء فى صغرهم على شريطة أن يذكروا ربهم عند درسها وفهمها ليكون ذلك داعياً لتربية حبه فى القلوب ، وخشيته فى النفوس ، فلا تمر قاعدة أو عجيبة أو قانون طبيعى ، أو نظرة فلكية ، إلاّ يقرن بجلالة من سنها ، ويذكر من رسمها ، فيشب الفتى دارساً للعلوم ، محبا لمبدع الكائنات كما طلب نبينا ﷺ فقال : «كل شىء لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر أو أجذم أو أقطع» . ولا معنى لذلك إلاّ تذكر أن هذا المخلوق الذى أزاوله أو آكله أو أدرسه أو أفكر فيه إنما هو أثر من آثار جلاله مذكر لنعمائه ؛ ولذلك ترى كل سورة فى القرآن الشريف بدئت ببسم الله الرحمن الرحيم تدريباً على ذلك وتعليماً وتنويها بانتهاج هذه الخطة اللهم إلا سورة التوبة ؛ ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول «اذكروا الله عند كل حجر وشجر» ومعناه ملاحظة مبدع الشجر والحجر عند رؤيته أو درسه ؛ وتذكر أنه خلقه وعلى هذا تنمو فى المرء قوة الدين والوجدان وحب صانع العالم فيها به ، ويعمل له ، ويراعى عباده ، وهذا بعينه هو ما قرره العلامة سبنسر الإنجليزى ؛ إذ أبان أن التعليم لا يجدى بمجرد البرهان بل بتربية الوجدان بالمحادثة والتذكير . وترى هذه طريقة القرآن والإسلام لا المسلمين ؛ إذ يذكر محاسن العالم وجماله ويذكّر

---

(١) البقرة ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

بالشمس وغروبها وشروقها والكواكب وغرائبها إلى غير ذلك . أما تعليم الشرقيين المسلمين فإنما يأخذون فيه الناشئة بالكلام العرضى والتطوح بهم فيما يرجع إلى القضايا التى تحوم حول فلسفة اليونان ردًّا على قوم واراهم التراب وانقرضوا فى الغابرين ، وذهبوا مع أمس الدابر . وتراهم يناقشونهم فى قبورهم ويتنازعونهم فى برازخهم ويذرون ما خلق لهم ربهم مما أبدع وأحكم . ولم يعلموا أن علماء الغرب برعوا حتى قاربوا دينهم القويم وصراطهم المستقيم فأحاط بنا الفقر والصغار والذل والشنار ، واحتلتنا الأعداء وأحاطوا بنا من كل جانب ! أما الغربيون فقد ورثوا الأرض بما أوتوا من العلم الناقص ولكن مدنيتهم ذاهبة إلى الزوال بما عصوا ربهم ، ولم يبنوا العلم على أساس متين ؛ أما وربك لو أنهم اعتقدوا أن هذه العلوم عبادات وأنها كالصلوات والقربات وأنها نفسها الدين حقيقة كما سأذكر لك بمئات من الأدلة لكانت مدنيتهم أثبت المدنيات ، فكانت المعاصى تزول والشرور تقل وخوف الله يلازم النفوس ملازمة الخيال للذهن والتصور للعقل «إنما يخشى الله من عباده العلماء»[1] .

الجوهرة الثالثة والعشرون : «الأقسام مفاتيح العلوم» .

اعلم أن الله أقسم بأشياء مما خلق وعمد إلى ما جمل شكله وعظم نفعه وبهر حسابه فعدده فى أقسامه .

ولعمرى أن النوع البشرى لن يقسم إلاّ بمعظّم لديه أو بمسيطر عليه : يقول الولد وحق والدى ، وتقول الرعية رأس فلان الحاكم . والجندى يقسم بشرف الجندية ، ويقسم الوزراء بالملوك . ونسمع لرجل يحلف بعينيه لما يرى من منفعتهما وزينتهما . وقد أقسم الله بأشياء عددها ، وصنوفاً من نعم أبدعها كالشمس والقمر والكواكب ، ولم يكن ذلك لخوفه منها فإنه الخالق لن يهاب ما خلق ، ولن يحتاج لما ذرأ وأبدع ، أقسم بها ؛ إذ رأى نوع الإنسان يقسم بما عظم نفعه وعز عليه فاسترعاهم وأيقظهم إلى ما ذرأ ، ونبههم إلى مصنوعاته ليعرفوها ، فلم يرد أن يعبدوها إذ لا إله إلاّ الله . فالإقسام بها يرجع إلى عزتها وشرفها ، ولم يكن ذلك لتحريضهم على الحصول عليها بوجودها فى حوزتهم ؛ فذلك مستحيل . فرجع الأمر إلى العلم وفات الإنسان أن يملك هذه العوالم ويسيطر عليها ؛ إذ لا سلطان إلاّ لواحد هو الله فكان المقصود من الإقسام فى حقهم أن يعرفوا جلالة ما صنع ، ويتبعوا حركات الأفلاك وعلوم الضوء وحسابه والمشارق والمغارب ، ويشرحوا تلك الأجسام ويلاحظوا حركاتها وسكناتها لترقى نفوسهم إلى علوها وشرفها ، فتراه عز شأنه أقسم عشرين قسماً

---

(١) فاطر : ٢٨ .

بالأجرام العلوية وخواصها وأضوائها ومواقعها . تراه أقسم بالفجر والفلق وهو الصبح ، والشمس والضحا والنهار والعصر والليل إذا يغشى (يغطى) المخلوقات كأنه ملاءة منشورة عليهم ، والليل إذ يسرى ، يسير حول الكرة الأرضية تابعاً النهار والنهار يتبعه . وأقسم بالليالى العشر فى أول كل شهر عرفى لغلبة ظلامها على ضوئها ، وأقسم بالنجم إذا هوى تنبيها على مغارب النجوم وإيقاظاً لها ، وأقسم بمواقع النجوم وأماكنها التى فيها ودوائرها ثم أعقبه بقوله : «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم»[1] فإذا أقسم وعظم القسم فهل يكون ذلك إلاّ لاستزعاء النفوس إليها لتعرف مواقعها وقياسها وأبعادها وحركاتها وسكناتها . وقال (أقسم بربِّ المشارق والمغارب)[2] أى محل الشروق والغروب . وأقسم بالشفق وبالليل وبما وسق الليل أى جمع ، وأقسم بالقمر وبالسماء ذات البروج تنبيها لمعرفتها لتُعْرَفَ السنون والشهور والأيام . وأقسم بالسماء ووصفها بأنها ذات الحبك أى طرق النجوم ، وبالقمر إذا اتّسق أى امتلأ بالنور . . وأقسم بالسماء وبمن بناها ، وأقسم بالنازعات غرقاً وهى النجوم التى ترمى شهباً عن دوائرها المشبهات القوس فكأن النجم إنسان والدائرة قوس والشهاب الساقط سهم . وذكر أنها نشيطات فى سيرها ، مسرعات فيه ، تتم دورانها كالشمس فى سنة والقمر فى شهر فقال (والناشطات نشطاً فالسابحات سبحاً فالسابقات سبقاً)[3] أى النجوم التى تسبق غيرها وتتم دورتها سريعاً (فالمدبرات أمراً) وهى هذه النجوم إذ بها يتم تدبير العالم . فذكر هذه الكواكب والعوالم ومواقعها ؛ ليحرض السامعين على البحث عنها فيعرفوا الفلك والميقات وحساب الكواكب وأبعادها وأجرامها وتحليلها وأعدادها بقدر الاستطاعة ويبحثوا عن الضوء فى الطبيعة . ثم إنه تعالى أقسم بذكر أشياء أخرى مما تحت الفلك وأحاط بالكرة الأرضية فأقسم بالرياح الذاريات وبالجبال فقال : (والذاريات ذروا فالحاملات وقراً) أى الرياح التى تحمل السحاب وتذرو الأشياء . وأقسم بالأرض وما طحاها فالأرض مفهومة وطحوها دحيها وتسويتها وإتقانها . وأقسم بالجبل فقال (وطور سينين) ، وبالنبات فقال (والتين والزيتون) ، وبالبلد الذى خرج منه سيدنا محمد ﷺ فقال (وهذا البلد الأمين) وأقسم بالخيل فقال (والعاديات ضبحاً) أى الخيل التى تعدو وهى تضبح فى الجرى ضبحا . وأقسم بكل من يحس وكل ما يحس فكأنه أقسم بكل محسوس وبكل ما يحس به . وكأنه أقسم بالناطق والصامت فقال : (وشاهد ومشهود) وأقسم بيوم القيامة وبيوم الجزاء وبيوم الميعاد الذى سيجازى فيه الناس . وأقسم بالكتب المسطرة المنثورة وهى ما يقرؤه الناس . وأقسم بالبحر ثم عمم القسم بكل ما خلق فقال : (أقسمُ بمَا تبصرون وَما لا تبصرون)[4] فكأنه أقسم بكل شىء إذ العالم قسمان : ما يبصر

---

(١) الواقعة : ٧٦ .
(٢) المعارج : ٤٠ .
(٣) النازعات : ٢ - ٤ .
(٤) الحاقة : ٣٨ ، ٣٩ .

ومالا يبصر ، وجاء بتعميم آخر فأقسم بالشفع والوتر ، ولاريب أن العدد إما شفع أو وتر . هذه نحو عشرين قسماً أحاط بها الأرض والهواء والسحاب والجبال والنبات والحيوان ، وخصص الإنسان منه فقال (ووالد وما ولد) أى أقسم بآدم وأولاده وغيرهم ، وخصص ذلك بعد فقال (ونفس وماسواها) فأقسم بالنفوس وتسويتها . فتراه أقسم بأمهات العالم كلها ، وأخيراً أقسم بكل ما خلق مما نشاهد ومالا نشاهد .

تفيد هذه الأقسام بالعلويات وهى تبلغ العشرين وبالسفليات وهى تبلغ العشرين أيضاً – أن الله أمر عباده وأوجب عليهم النظر فى العلويات والسفليات بالتساوى ، وفى الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلم العمران والنفس وجميع العلوم ؛ إذ لم تخرج فى البحث عما ذكر فى تلك الأقسام التى أقسم بها مبدعها ، وكأن الأمة التى جهلت ما أقسم به وأعرضت عنه ولم توفه حقه فى النظر – قد أعرضت عما أقبل عليه مبدعها وازورت عما أراده خالقها !

جعلنا هذه الأقسام مفاتيح العلوم لأنه ذكر جواهر الأشياء فيها ؛ ليسترعى إليها العقول ويحرض على البحث عليها العلماء والأمم ، ولم نقل إنها العلوم ؛ لأن الآيات التى سنذكرها قريباً سنعطى كل جوهرة من هذه الجواهر قسطه منها ونوفيه نصيبه غير منقوص ! فإذا طالعت أيها القارئ ما سأقص عليك من كتاب الله تعالى والآيات الواردة فى الحض على العلوم فستعجب كل العجب ، ولتجدن أن الدين دين العلوم والحكم ، دين العمران والنظام ، دين المدنية الحق ، دين رقى النفوس ، دين ارتقاء نوع الإنسان . دين بقى كنزاً مخفيا لك يكتشفه علماء العصر المفكرون ، دين خيم عليه عناكب النسيان ، وأحاط به سور الهجران ، وأضحى فى خبر كان . اللهم إلاّ جزءاً قليلاً من عباداته ومعاملاته التى تكفى حياة الضرورة ، وإنى لأرجو أن يكون كتابنا هذا كاشفاً عن مُحَيَّا جلاله ، مظهراً جمال بهائه ، مسفراً عن كنه معانيه ، باسطاً شارحاً مبيناً . وإنى أستعين بمسبب الأسباب ، مدبّر الخلائق ، القادر الحكيم – أن يلهمنى الصواب ، ويوفقنى كما ألهمنى ، إنه سيجيبنى ، إنه لطيف بعباده رءوف رحيم .

من كتاب « جمال العالم »

الحيوانات أمم أمثالنا :

. . . ومن هنا فلنفهم قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم »[1] فيكون لها تدبير كتدبيركم وهندسة وأحكام كلها معلومة . ولولا هذا الحساب لاختل

(١) الأنعام : ٣٨ .

النظام وفسدت الأحكام .

ولولا أننا كتبنا هذه النظامات عندنا ما بقى لها وجود لحظة واحدة ، وكيف يبقى ما لا نظام له ولا ترتيب ؟ بل لو أخللنا واحدة لسرى الخلل إلى الجميع ؛ إذ الكون كله كساعة واحدة « ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون »[١] .

قسمة عادلة بين الحيوان الصغير للحكمة والكبير للعمل :

اعلم أن الحيوانات الكبيرة قادرة على حمل الأثقال ومعاناة المشقات والصعوبات ، وأما الحيوانات الصغيرة فإنها ممتازة فى الإحكام فى العمل كالنمل فى بيوتها ، والنحل فى مساكنها وأعمالها ، والعنكبوت فى نسجها ، والأرضة فى بنائها من الغبار المجتمع مع الندى مساكن محكمة ، والجراد ودود القز ، فكل هذه ذات حكمة وصنع متقن يعجز عنه الإنسان ، فقامت دقة الصنعة مقام القوة والصبر على الأعمال ؛ فهذه قسمة محكمة : عظم الجثة مع الأعمال ، وصغر الجثة مع الحكمة « إن ربكم لرءوف رحيم » ، « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »[٢] : فتأمل تر الجمل والفرس والحمار والشاة والأرنب لا قدرة لها على الحكم والصناعات والهندسة والرونق ، واختصت الحيوانات الضعيفة بذلك ليظهر عدل مبدع الكون وحكمته . ولن تعرف حكمة الخالق إلاّ بالنظر فى هذه الأشياء الجميلة . وهذا ما ينبغى أن ينفق المال فى تحصيله ؛ ولذا ترى القرآن يذكر هذه الحيوانات الضعيفة لينبه العقول إليها ويصرفها إلى وجهتها . وترى إنه ذكر سورة النحل والنمل والعنكبوت لذلك .

ثم إن هذه الحيوانات كلها يأكل بعضها بعضاً لا فرق بين كبير وصغير ؛ ليظهر العدل فى الموت كما ظهر فى الحياة ، وفى العدم كما ظهر فى الوجود : وذلك أن العصافير والقنابر والخطاطيف وأمثالها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها ، ثم إن البواشق والشواهين وما شاكلها تصطاد العصافير والقنابر وتأكلها ، ثم إن البزاة والصقور والنسور تصطادها وتأكلها ، ثم إنها إذا ماتت أكلها صغارها من النمل والذباب والديدان ، وهكذا بنو آدم : فإننا نأكل جميع الحيوانات الطيبة اللحم ، فإذا متنا أكلنا الدود ! وهكذا شأن هذا الكون كله كأنه دائرة أولها آخرها ، وصلاح شىء فساد آخر ، وما فساد إلا بإصلاح ، وفى الحقيقة لا فساد معقول .

الألم واللذة للجسم والروح وكيف تشابه وضعها ؟ :

. . . ولما كان بقاء الشخص لا يكفى جىء له بسوطين آخرين ولا يريان وهما : ألم شهوة الاقتران

---

(١) الأنعام : ٣٨ (٢) يوسف : ١٠٠

ولذة الفرح ؛ فهما سوطان كذينك ، ولو عدم هذان السوطان ما تولد الناس ولفنوا فى نصف قرن !

فانظر كيف قهر الحيوان والإنسان على بقاء الشخص والنوع ؛ ولذلك يشير قوله عليه الصلاة والسلام : «من تزوج فقد حفظ نصف دينه» . وهذا بقاء النوع «فليتق الله فى النصف الآخر» وهو بقاء الشخص ، ويكون بالأغذية المشوق لها بذينك السوطين إلى أجل مسمى وهو الموت ، وبالأخلاق الحسنة والعلوم والشرائع ، وذلك هو البقاء السرمدى وله سوطان آخران ، وهما النار نظير الجوع ، والجنة نظير الشبع هنا . فانظر كيف اتحد فعل الله فى جميع الأحوال وجعل فى كل نوع رغبة ورهبة ؛ فهذه سياسة عجيبة جداً ، وهذا المقام مقام عال . ولا يتصور ما تكلمنا فيه الآن إلاّ أكابر العلماء المتفكرين بل الحكماء ؛ لأن هذا أمر دقيق جداً . وقس على هذا المرض ؛ فإن فيه رغبة لذة الشفاء ورهبة الألم ، ولولاهما لفنى الجسم وترك الإنسان نفسه .

والحق يقال : إن الله علم ضعف الإنسان ، فلم يتركه بلا آلام ولذات وإلاّ فنى ومات ولم يعش . وسوط الله الذى يضرب به يناسب جلاله وهو مجرد عن المادة ، فسوطه يكون خفيا وإن كان فى المادة فلكلّ سوط يناسبه ؛ وحينئذ ظهر لك يا أخى مقارنة هذا بسمّ الحيات . أما قولك فلا يوافقك فإنى أمنعه ، وإنى متيقن أن كثيراً لا يفهمون مثل هذا فلا يوافقون لقصورهم عن فهمه .

أطوار الإنسان : (لا فرق بين زيد وعمرو إلاّ بما تعلم عنهما) :

إذا لقيت ملكاً وأنت تجهله لم يعظم عندك ، فإن علمت أنه هو عظمته ؛ فهذا مرجعه العلم ، فما تلاقى حبيبك أو ابنك وأنت لا تدرى لأحوال عارضة فلا تحلها المحل اللائق بها ، فإذا علمت عملت وأحببت وزاد شغفك وولعك .

فالإعظام أساسه العلم ، ومن عجب أنك ترى الإنسان تارة نباتاً وأخرى حيواناً وهو جماد ثم إنسان وملك :

يشارك الجماد فى الثقل والخفة وانجذابه نحو الأرض ، وهو نبات يتغذى ويلد ويموت ، وليس ما يصنع من الفرح والولائم وما يحمل من المشاق فى تحصيل الأقوات ، فيجوب القفار ويعبر البحار إلاّ بما هو نبات . وليس للعروس من زينة وبهجة ورقاق الثياب والسندس والإستبرق والحلى والرياش والفراش إلاّ ما سبقته به الزهرة من الجمال والأصباغ والرقة والبهجة وحسن الشكل والزينة بأن إلقاح الذكور للإناث كما تراه مفصلاً فى كتبنا .

ومن عجب أن يفرح الناس ويفتخروا بالولائم والأفراح وهم لم يصنعوا إلاّ ما شاركوا به الأزهار فى النبات .

ولئن ضربوا بالدفوف وغنى لهم الموسيقار – لقد سبقتهم أنواع النحل والحشرات وهن يغنين فى

زفاف ذكور الأزهار لإناثها والعكس ، أليس هذا من العجب ؟ . .

الإنسان يلتذ بالطعام والشراب ويفرح بالغلبة والسطوة والقهر والصولجان والملك ولم يقل عن الأسد والنمر وسائر السباع والكلاب فإنها اختصت بتلك الغلبة .

وهو ملك إذ ينظر فى أمر الأمة ويسره ارتقاء النوع يكون علمه وعمله عاما نافعاً ، ويحيط علماً بالعالم على مقدار طاقة البشر ؛ فهو ملك بعلمه وعمله العامين ، حيوان كاسر بصفة الغلبة ، وخنزير أو غزال أو شاة بلذات المطاعم ونحوها . وهو نبات ربما ينمو ويلد ويموت ، وجماد بثقله وخواص الأجسام العامة .

وأعجب أمره إذ يجمع بينهما وقت واحد إذا أكل وهو يفكر فى الحكمة ويأمر بما ينفع العموم .

من كتاب « أين الإنسان ؟ »

الفصل الرابع : « فضائل الإنسان » :

وهنا أخذتنى الغيرة ، وذهبت سكرة الحق ، وجاءت فكرة التعصب للجنس والنخوة والحمية ، فقلت فى نفسى : يا للعار ويا للشنار ! روح من الأرواح تجلت لك ساعة من الزمان ، فتشرح لها حال الإنسان ، فيذمنا عند العوالم الأخرى ، ويا عار الأمم الأرضية ؛ إذا رجع صديق الوجدان إلى كوكب المريخ أو المشترى ، أو ركب متن مذنب هيلى وساح فى النظامات الفلكية العالية ، وربما قابل علماء أورانوس ونبتون ، وربما ركب كوكباً آخر ، فصعد إلى المجرة التى فيها ما لا يتناهى من الملايين النجمية ، فيخبرهم بأخلاق الأمم الحاضرة ، وما فيها من زور وبهتان ، وجهل فاضح ! أو أكون أنا السبب فى نشر هذه الأخبار فى عوالم السماء عن أرضنا ! فوالله لأذكرن محاسن الإنسان ، كما ذكرت مساويه ، وأنشر فضائله ، كما أذعت نقائصه ، ولأذيعنَّ الخير كما أذعت الشر . كل هذا خطر لى وأنا ساكت ، فدنوت إليه فوجدته يتبسّم . فقلت له : أيها الملك الطاهر ، والصديق الخالص ، إن الإنسان – وإن أساء – قد أحسن ، وإن ضل قد هدى : ألا ترى أن منا الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والعلماء والصالحين والأولياء ، وفينا صفة الرحمة ، فمن منا لا يجزع لمصيبة حلت بأخيه الإنسان ؟ ومن من المصريين والشرقيين لم يجزع لحوادث زلازل الطليان ، وقد اختلف القومان ، وبعد المكان ، وتباين الدينان ؟ ولقد آنست قوماً من فقراء الروم يطلبون الإحسان ، والمعونة أمام كنيسة رومية فى شارع الحمزاوى بالقاهرة ، فبكيت ورحمت ، وآنست مرة غلاماً روميا يبكى وقد ضل الطريق ،

فسألته فكلمنى بلغته فلم أفهم ، فجزعت ولم يسكن ألمى إلاّ بعد أن أسلمته لرجل من بنى جنسه فعرفه ، وأنه ضلّ طريق المدرسة ! وإنا ليسرنا شعر شعرائهم ، وعلم كبرائهم ، كما يفرحهم علمنا ورقينا ، ويسوءهم جهلنا وضعفنا . وإن غطت الشهوات على العقول ، وزاحم الطمع الرحمة ، والشدّة اللين ، والشر الخير ؛ فالإنسان مركب من الخير والشر والصالح والطالح والطيب والردىء ، هكذا كان وهكذا سيكون . فلما انقضى الحديث ، ودعنى ذلك الصديق الحميم ، وانصرف ومعه الفؤاد ، وقال : إن شاء الله يكن الاجتماع فى الليلة القادمة ؛ فأغمضت عينى واستيقظت فى الصباح ، وأنا جذل فرح بما وعيت ، فقيدته فى ورقة وأنا لا أدرى ، أحقيقة ذلك أم خيال ؟ وعجبت كما سيعجب القارئون !

الفصل الثامن : « أين الحكمة فى المادة والعقل ؟ »

فقلت ما الحكمة فى فوائد المادة إذا لم نعقلها ؟ وما الفائدة فى عجائب العقول البشرية إذا جهلوها ؟ فقال : إن هذه المادة كلوح منقوش سُطُوراً : فالحيوان يقرأ جزءاً ، وأنتم تقرءون سطراً ، وسائر السطور يقرؤها قوم آخرون فى عالم آخر ! أما عقول النوع البشرى فإنها مستمدة من العقل العام المحيط بالعالم الفائض من علم الله عز وجل ، وهذا العقل يحيط علماً بالمادة وعجائبها ، والعقول البشرية تطلع قليلاً قليلاً على ما أودعه من الحكم . ولئن ذبل نبات أو مات حيوان بلا فائدة ترونها — إن هناك فوائد تجهلونها ، ومتى تحلل إلى عناصره ، وكرّ راجعاً إلى مادته لم يعدم خواصه ؛ وإنما هى كامنة ؛ فلا معدوم فى هذا الوجود ، وإنه لا عدم البتة ، ليس يعدم إلاّ المظاهر ، فأما الحقائق فإنها كامنة راسخة ؛ فالمادة فيها كل نبات وحيوان وإنسان ، هكذا عقول نوع الإنسان : إنها تحفظ عناصر السعادة ، وإنما يعوزها الاستخراج والإنماء ، فمن نظر إلى زنجى وإفرنجى قال لأول وهلة : إن الأول من التراب ، والآخر من معدن الذهب ! وضل عن هذا الزاعم فإن البذرة متحدة ، واختلفت المظاهر بالتعهد والتربية . وما الإفرنجى إلاّ من أولئك البرابرة التتريين ، قوم جاءوا من آسيا وأحاطوا دولة الرومان ، ثم غلبتهم ، وورثتهم علومهم ولغاتهم وقوانينهم ، والمتوحشون أسرع قبولاً للمدنية وأقوى أجساماً ، وترى الأرض التى بقيت بوراً أمداً طويلاً أنضر زرعاً وأغزر شجراً من الأرض التى أنهكها الزرع والحصاد ، فكيف يهرف فريق من العلماء بقولهم متوحشون ومتمدينون ، ويحكمون جهلاً على فريق أنهم لا يرتقون ، وهم كانوا مثلهم فى غابر الأزمان ؟ فعقولكم البشرية لا تزال خاوية من الحكمة ، واقفة فى أول الطريق ولكنها على باب الهداية ؛ إذ بدأتم تكشفون أسرار الخليقة ، وستعتقون العقول من الرق ، وتستخرجون كنوز الأرض النباتية والناموسية ، فهى الكافلة

بنجاحكم ، والكافية لإسعادكم وإزالة العوائق المخترعة ، ولتعلموا أنكم نوع واحد ، «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»[١] .

البستان والسماء :

. . ثم قال ما أجهلكم بالجمال ، وما أبعدكم عن الحكمة ، وما أقربكم للجاهلين ! خبرنى رعاك الله : لو أن امرأً منكم خير بين النظر فى السماء وجمالها ، وبين التمتع بالنظر فى البساتين وأزهارها ، فأى المنظرين أجمل لديه ؟ فقلت : البساتين ! فقال : أتدرى لماذا استبدلتم الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ قلت : كلا . قال : لأنكم لا تعرفون النعم إلاّ بامتناعها ، ولا تحبون إلاّ ما كنتم عنه مبعدين ! ثم نظر نظرة إلى السماء والنجوم وأنشأ ما ترجمته من الإنجليزية :

أضئ يأيها النجم الصغيرُ فشأنك فى غرابته كبيرُ
وفوق رءوسنا أبداً تسير كمثل الماس رصع فى السماء
إذا ما الشمس غابت فى دجاها وبل النبت فى الدنيا نداها
ترينا الضوء يلمع فى رباها أضئ يا نجم فى غسق الدجاء
ظهرت بموكب وسط السماء وتزجى النور منك على البناء
بناظرك المصوغ من السناء فلا تخبو بغير سنا ذكاء
تضىء الأرض من أعلى سماها وتهدى من يسافر فى فناها
فماذا أنت يا باهى سناها ؟ أضئ فالله خصك بالضياء

الحكومات :

ولكم نظمت لكم الحكومات ؛ لتحفظ أمنكم ، وترفع شأنكم ، وترتق فتقكم ؛ فظننتم فى الملوك مثل ما كنتم تظنون فى الأصنام ، وانقدتم انقياد العميان ، وخضعتم للظالمين ، فأف لهذا الإنسان !

* * *

جهل الناس عجائب الرموز ، وحكمة الظلمة والنور ، والظل والحرور ، جهلوا مزية الديانات ، ووقفوا عند ظاهر الكلمات !

ومن جهل هذه الكائنات ، وضل عن هذه المخلوقات – فأحر به أن يجهل سرّ نظام الحكومات !

---

(١) المائدة : ٢ .

ألا فليعم التعليم والتعقل فى أنحاء الكرة الأرضية !

ألا فليعقل الناس ما حولهم ! إن حياتهم اليوم عار وألف عار ! أزيلوا ما لديكم من النظامات العتيقة الفاسدة ، واستبدلوا بها خيرا منها ؛ فالعلم عجيب ، والله سميع قريب ، ونظام هذا العالم بديع ، والعقل الإنسانى شريف رفيع .

* * *

الحكمة الثالثة عشرة : « الكهربا »

لمع ضوء برق تحت عجلة الكهربا ضُحاً فى حَمَارَّة القيظ ، فأشرق وأضاء سناها الأزرق المحمر بشكل عجيب جميل ، فقلت : الحياة أعمال ومشاق ، والعقول تضىء وتسعد .

الناس اليوم فى عداوة وعذاب أليم من الحرب والضرب ، فإذا أضاءت عقولهم كما أضاءت هذه الكهربا أغدقت عليهم النعم ، وأصبحوا فى سلام آمنين ، النور الساطع الساعة من الكهربا ، والكهربا فى سائر الأجسام المادية .

إن الأرواح الإنسانية فيها كهربا المحبة والمودة والجاذبية الإنسانية ، فإذا اكتشفت تلك الكهربا أضاءت للناس ، وأسعدتهم وبدلت بالعداوة المحبة وبالمشقة السهولة ، وحملت عنهم مشاق الحروب والأذى والنفقات العظيمة ، كما حملت الكهربا عن الناس أثقالهم ، وأدارت آلاتهم ، وحملت أمتعتهم ، وخاطت ملابسهم ، وأضاءت منازلهم .

وإذا كانت المادة حاوية لهذه المحبة الكهربية أفلا تحمل القلوب ما هو أجلّ وأبهى وأبهر من أنواع الجمال والعشق والمودة الناجمة عنها السعادات ؟

من كتاب : « جواهر العلوم »

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا »[1].

قد أجمع علماء اليونان والعرب وأوروبا على أن علم النفس إنما يكون بعد الرياضيات والطبيعيات ، وهاك آخر ما وصل إليه البحث إلى وقتنا هذا من ترتيب العلوم بحيث إن المتأخر لا يفهم إلاّ بعد المتقدم (١) العلوم الرياضية (٢) العلوم الفلكية (٣) العلوم الطبيعية (٤) علم الكيمياء (٥) علم وظائف الأعضاء (٦) علم النفس والمنطق (٧) علم الاقتصاد السياسى (٨) علم تكوين

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

الشعوب (٩) علم تمييز الجمال (١٠) علم ما وراء الطبيعة ، ويدخله العقائد ومعرفة الخالق والروح . وأما علم النفس فإنما هو ظواهرها لا حقيقتها (١١) علم الأخلاق (١٢) علم الحقوق (١٣) العلوم السياسية :

فأنت أيها الأخ ترى من هذا الجدول أن علم الروح فى المرتبة العاشرة مع العلم الإلهى المعبّر عنه بما وراء الطبيعة أو الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى . والمخاطب بهذا هم يهود جزيرة العرب ، ولا ريب أنهم أبعد الناس عن هذه العلوم ، فلا يمكنهم فهم الرياضيات العليا فضلاً على الروح ؛ فلذلك قال : «وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا» ، أى ولا يفهم الروح إلاّ من درس علوما كثيرة ، وما أعجب قوله : «من أمر ربى» ؛ إذ علم الروح وعلم الألوهية فى الدرجة العاشرة .

° ° °

وأما آيات الأنفس فإن للإنسان جسماً وروحاً : أما الجسم فأظهرته أشعة رنتجن التى هى عبارة عن أضواء شرر الكهربا المنحصرة فى آلات تسلط على الجسم ، فتكشف الأعضاء من الداخل ، وتظهر الدورة الدموية من وراء الجلد واللحم والقلب والعروق ، كأن هذه أجسام شفافة لا تحجب ما وراءها مما يدهش العقل ويحار فيه فكر اللبيب مصداقاً لقوله فى هذه الآية : «وفى أنفسكم» . ومعلوم أن «فى» للظرفية : أى الآيات المظروفة فى نفوس النوع البشرى . والمراد بها هنا ما يشمل الجسم .

وأما الروح فقد ظهرت عجائبها بالتنويم المغناطيسى الذى تناقلته الإفرنج عن الهنود .

° ° °

قالت جمال : «كيف تبقى الروح بعد الموت مع أننا نرى الجسم متفرق الأجزاء قد أكله الدود وتناثر لحمه وبليت محاسنه وذهب رونقه على أننا نرى الأطباء يخدرون المرضى فلا يحسّون بألم ومعلوم أن الموت أشد من التخدير بتلك الأجزاء الطبية ؟ فإذا كان بالتخدير لا يحس بالألم ولا بالسرور ، فما بالك بالموت ؟» .

فقال إبراهيم : أيتها الفتاة ، إن للروح بقاء بعد الموت . وما مثل الروح فى الجسم إلاّ كمثل الماء فى الإناء ، أو السراج فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى . فكما أن الماء إذا كان فى الإناء أعطى صفاته من حيث الشكل واللون ، فيحمر لاحمراره ويصفر لاصفراره ويخضر لاخضراره : كذلك الروح مادامت فى الجسم تعطى حكمه وتتأثر بتأثره ، فتتخدر بالتخدير وتضعف بالضعف حتى إن المريض نراه سيئ الخلق لانحراف مزاجه وضعف قواه البدنية ، والخلق من صفات الروح لا الجسم . فهاهنا تأثرت الروح بالجسم ، وهكذا حال السكران . وأقوى من ذلك كله المادة التى تشمم

للمريض وهى « الكلور وفورم » فإنها خلاصة مواد متخمرة ، وبعبارة أخرى خلاصة خمر فلا جرم إذا كان تأثيرها أشد . وهذا كله لحكم الجسم على الروح كما حكم الزجاج على الماء فيه فأعطى كثيرا من أحكامه وصفاته . وكما أن الزجاجة إذا انكسرت رجع الماء إلى حاله الأولى : فهكذا الروح إذا فارقت الجسم رجعت إلى عالمها متحملة بأنوارها أو ظلماتها . بل مثل الروح فى الجسم كمثل المصباح فى الزجاجة : فإذا لونت الزجاجة بأى لون خرج ضوء الزجاجة على ذلك اللون نفسه من أحمر أو أخضر أو غيرهما . فإذا كسرت الزجاجة بقى النور بشكله الأصلى : فالروح إذا فارقت الجسم رجعت إلى عالمها : فإما إلى جنة وإما إلى نار !

الرسالة الكيالية الطاهرية

إن خير ما نختم به هذا الكتاب تلك الرسائل المتبادلة بين الشيخ طنطاوى جوهرى والأستاذ الحسيب النسيب الشيخ طاهر ملاّ الكيالى الرفاعى رئيس العلماء بناحية (إدلب) من أعمال حلب الشهباء ونقيب السادة[1] .

ولقد وقعت فى يدنا تلك الرسائل مخطوطة ، إذ لم تتح لها فرصة النشر من قبل ، فرأينا – لطرافتها وفائدتها – أن نعرض بعضها فيما يلى مقدمين لمن وافانا بها ولأسرته الكريمة أجزل الشكر . .

الرسالة الأولى

باسمك يا منعم . .

وكان فضل الله عليك عظيما . .

سيدى حكيم العصر و بهجة الدهر ، أبقاك الله تعالى عوناً وغيثاً ليزيل عنا غبناً وعبثاً . بعد السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، شرفت بمطالعة كتابكم «نظام العالم والأمم» الجامع حقائق الحكم ، الشارح قول القائل :

ما الكون غير صحيفة الأقدار خطت ليتلوها ذوو الأبصار

كم من عظات ضُمنت مسطورها إن كنت جاهلها فأين القارى

والرامز لما روى عن المزنى أنه قال : «لما وافى الشافعى مصر قلت فى نفسى : إن كان أحد يخرج ما فى ضميرى وما تعلق به خاطرى من أمر التوحيد فليس غيره ؛ فصرت إليه وهو فى مسجد مصر ، فلما جثوت بين يديه قلت : إنه هَجَس فى ضميرى مسألة فى التوحيد ، فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك ، فما الذى عندك ؟ فغضب ثم قال : أتدرى أين أنت ؟ قلت : نعم . قال : هذا الموضع الذى غرق فيه فرعون ! أبلغك أن رسول الله ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك ؟ فقلت : لا . فقال : هل تكلم فيه الصحابة ؟ قلت : لا . قال : أتدرى كم نجوم السماء ؟ قلت : لا . قال : وكوكب منها تعرف جنسه وطلوعه وأفوله مم خلق ؟ قلت : لا . فقال : شىء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه فتتكلم فى علم خالقه ! ثم سألنى عن مسألة فى الوضوء ، فأخطأت فيها ، ففرعها على أربعة أوجه ،

---

(١) وهو أيضاً والد الأستاذ سامى الكيالى كما سيأتى فيما بعد .

فلم أجب فى شىء بمنه ، فقال : شىء تحتاج إليه فى اليوم خمس مرات تدع علمه وتتكلم على علم الخالق ؟ . . إذا هَجَس فى ضميرك ذلك فارجع إلى الله تعالى وإلى قوله « وإلهكم إله واحد » والآية بعدها ، فاستدل بالمخلوق على الخالق ، ولا تتكلم على علم ما لم يبلغه عقلك . قال : فتبت » .

فإنك أيها السيد الجليل قد أوضحت بكتابك هذا البرهان بدلالة الصفة على الصانع ، والدنيا على الآخرة ، والآيات القرآنية على الآيات الكونية ، وجمعت بين المتفرقات ، وألفت بين المختلفات ، فجزاك الله عن الأمة المحمدية خير جزاء . ولولا عجزى لضعف البصر لفضلت إقدامى على رأسى للسعى إليك والشرف بالمثول بين يديك ، فأنبت هذه عنى راجياً إتحافى بآثارك الشريفة وعلومك المنيفة ودعواتك اللطيفة ، وعلى مولاى السلام فى البدء والختام .

نقيب السادة بإدلب

١٦ من ذى القعدة عام ١٣٣٧ وخادم علمائها آل ملاّ الكيالى

طاهر ملاّ الكيالى

ملحوظة : سيدى ، إن بيتنا الكيالى ذكره السيد الزبيدى فى شرح القاموس فى آخر مادة « ك ى ل » . وأن السيد شعيب الكيالى الذى هو عمنا شيخه . . فلنا بأفاضل مصركم رحم آمل دوام مواصلتها .

الرد على الرسالة الأولى

القاهرة فى الأول من المحرم عام ١٣٣٨ (الموافق ٢٦ من سبتمبر عام ١٩١٩)

سليل المجد والشرف ورب الفضل والأدب ، خير الأماجد كابراً عن كابر ، الأستاذ طاهر نقيب الشرفاء وسيد العلماء :

تحية وسلاماً ، وإجلالاً وإعظاماً وشوقاً وتهياماً . أما (بعد) فأهلاً وسهلاً بمناط الجلال ، ومحتد الكمال ، وزينة الجمال ، وفخر العرب فى أشرف نسب . وصلت رسالة السيد حفظه الله ، فكانت قرة عين مزيلة الغين ، مذهبة الرين ، مبعدة الأين ، جالبة الأنس والبهجة برياض السرور الأرجة ، فقرأتها مرتين ، وأرجعت البصر كرتين ، وآنست فيها آيات الحكمة ودلائل العلم فكانت أحاديث سعد .

فيا سعد خبرنا بأخبار من مضى فأنت خبير بالأحاديث يا سعد

وقد جاء فى الكتاب أنكم قرأتم « نظام العالم والأمم » فوقع لديكم موقع القبول ، فقلت : « إنما يعرف الفضل من الناس ذووه » والحكمة أدرى بأهلها ، والقلوب أعلم بأمثالها . إن الله ملائكة

يسوقون الأشكال إلى أشكالها ، وليس يألف المرء إلاّ ما عرف ، والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وفى هذا الوجود آيات وفى قلوب هذا الإنسان بينات ، ولله فى الخلق دلالات . والعلم كالمطر لا يخرج النبت إلاّ حيث يطيب بلداً ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذى خبث لا يخرج إلاّ نكداً . وعشاق العلم متجاورون وإن تباعدت الديار ، متحدون وإن اختلفت الأطوار . إن أقرب البعدين بعد الدارين ، وأبعد الدارين بعد القلبين . ثم عسى أن تتصل المكاتبات بيننا ، لأن ذلك أدعى إلى انتشار العلم فى سائر البقاع . وقد ورد الخطاب مؤرخاً بـ ١١ من ذى القعدة ووافى مصر فى أواخر شهر ذى الحجة ، هذا وتقبل منى التحية والسلام والإجلال والإعظام .

المحب المخلص

طنطاوى جوهرى

المدرس بالمدرسة الخديوية بمصر

الرسالة الثانية

باسمك يا حكيم

ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً .

سيدى الأستاذ الكبير . سلام عليكم بقدر شوق إليكم (وبعد) فقد ازدانت الديار وتنورت البصائر والأبصار ، وانشرحت الصدور ، وتعطرت المحافل بورود جواب سيدى الجوهرى ونشر خطابه العبهرى ، وإفادته إهداء كتاب الأرواح الذى أقيمت له قبل وصوله الأفراح ، المشير لما رواه من حديث الأرواح وسر مواصلة الرسوم مع تباعد الحدود .

ولو كانت الأقطار طوع إرادتى وكان زمانى مسعدى ومعينى

لكنت على شط الديار وبعدها مكان الذى قد سطرته يمينى

لأطوف حول كعبة اللطائف ومشعر المعارف ومنى الضيف وقبلة الصلاة . هذا وإنى بحمده تعالى مَشْغُوف بنشر عرف « نظام العالم والأمم » فى الدروس والنوادى الخاصة والعامة ؛ لأنه حدق انطبعت فيها المحاسن ، وحديقة أكلها دائم وسلسبيلها غراس . وقد أحسنتم كل الإحسان فى حكاية سيدنا إدريس مع إبليس ، فمحوتم نقطة الغين عن العين وجعلتموها مبصرة ، وأحكمتم التسديد فى سد يأجوج ومأجوج ؛ فلله دركم وما أحكم سدكم ! وقد كنت معجباً بما ذكره العلامة الألوسى فى تفسيره روح المعانى فى قصة السد فى رحلة صفوة الاعتبار ؛ فإنه أحكم فى أفواه الطاغين الرد . وحين رأيت تحقيقكم فى النظام زدت سروراً ، فجزاكم الله خيراً . وقد نورتم قلوب السلف بتنوير أقوالهم .

فلو رآكم الفخر لافتخر بتقديركم تفسيره أو الأستاذ ابن رشد لازداد رشداً ، أو العلامة ابن خلدون لتمنى أن يكون فى رياض مجالسكم مخلداً ، أو حجة الإسلام لنحا محجتكم ونسج غزله على منوالكم . وقد بعثم الهمم لمطالعة كتابه الذى قال فيه السيد العيدروسى : «من لم يطالع الأحيا لا يعد من الأحيا ، ومن لم يقرأ الأحيا ليس حيا ، ولو عاش الأموات ما أوصوا الأحياء إلاّ بما فى الأحياء» . أو الإمام الشافعى لسُرّ بنشركم أقوال رسالته التى هى أول مصنف فى أصول الفقه : قال الإمام عبد الرحمن بن مهدى كتبت إلى الشافعى رضى الله عنه وهو شاب أن يضع لى كتاباً فيه معانى القرآن ويجمع مقبول الأخبار فيه وحجة الإجماع وبيان الناسخ من المنسوخ من القرآن والسنة فوضع لى كتاب الرسالة ، فما أصلى صلاة إلاّ وأنا أدعو للشافعى فيها .

قال الذهبى: وكان عبد الرحمن بن مهدى من كبار العلماء قال فيه أحمد بن حنبل : عبد الرحمن ابن مهدى إمام ؛ وقال يحى بن سعيد القطان حين عرض عليه الرسالة للشافعى : ما رأيت أعقل ولا أفقه منه ، وأنا أدعو له فى دبر كل صلاة لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد إليه .

وقال عبد الرحمن بن مهدى لما قرأ كتاب الرسالة : ما ظننت أن يكون فى هذه الأمة اليوم مثل هذا الرجل ، أو أن الله خلق مثل هذا الرجل !

قال الربيع : رأيت الشافعى رضى الله عنه فى المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أنا فى الفردوس الأعلى . فقلت : بماذا ؟ فقال : فى كتاب صنعته ، وسميته كتاب الرسالة .

ولو سمع الشعرانى ثناءكم على العلا وابن رشد لرجع عما قاله من التحذير من مطالعة كتبه ، وجدير بمن يلقى سيادتكم أن ينشد :

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا

وقد وافانى الجواب المستطاب يوم عاشوراء فكان عيداً أكبر ، ويوماً أزهر ، وسرعة سيره وبطء خطابى برهان ظاهر على عجز الفقير طاهر وعلى التفاوت بين الهمتين ، والتباين بين العزيمتين ، وأما تأخر كتاب الأرواح فى البريد للآن فلأنه إن يكن كتاباً فى الاسم فإن الله سبحانه يبقيكم عالماً لهذا العالم ، وأبا ثانيا لبنى آدم والسلام .

٢١ من المحرم عام ١٣٣٨ طاهر ملا الكيالى الرفاعى

* * *

باسمك يا حافظ

«فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين» .

سيدى الأستاذ «الأوحد» المفضال ، حرسك مولاك وبعين عنايته رعاك . سلاماً وبعد ، فقد

وافانى الكتاب الباهى الباهر المؤرخ فى ١١ من ربيع الأول المبشر بسلامتكم التى بها سلامة الفضل والحكمة العالية ومعه الكتب الكريمة ومضمونه يومئ إلى استحسان ما فى «أين الإنسان ؟» على ما فى صحيفة ١٠٣ من «جمال العالم» ، وهذا التناقض الظاهرى برهان على أن العقل محتاج لميزان به يعرف صحيح الفكر من غيره ، كما قاله الإمام الغزالى ، وغيره حظره لما عليه الأشعرية من أن التحسين والتقبيح شرعيان لا عقليان ؛ لأن العقل قاصر عن إدراك جميع ما أتى به الشرع ؛ ولذا قال السيد جمال الدين الأفغانى فى الآستانة سنة ١٣١٠ هـ : إن النحو توجب مراعاته اتفاق الناس مع اختلاف ألسنتهم ومذاهبهم على رفع الفاعل ونصب المفعول مثلاً ، وأنا لم أر للمنطق فائدة فإن المناطقة منهم السنىّ كالرازى ، والشيعى كالطوسى ، والمعتزلى كالجبائى . وغيرهم لم يجمعهم المنطق على مذهب واحد ، فكيف تكون مراعاته عاصمة للذهن عن الخطأ فى الفكر . فقلت له : لو كان أرسطو حيا ما وسعه إلاّ اتباعك فى هذه الآلة . وأما ما ذكرته فهو غير دار كما لا يخفى ؛ فإن الطبيب عليه بذل العناية بما يوافق القواعد الطبية وليس عليه حفظ الحياة . على أن الخطأ قد يكون من اشتباه المشهورات الظنية باليقينات ؛ فإن أكل اللحم عند البراهمة قبيح وعند غيرهم حسن . فهذا من المشهورات ، لكنه عند الفريقين صار من اليقينيات فاستحسن ذلك . أقول : وممن أطنب فى تحريمه السيوطى فى كتابه وعقوده ، والعارف النابلسى فى شرح الطريقة ، وعلله بأنه يقوى الجزء العقلى على الجزء الإيمانى فيضعفه أو يذهب بالكلية «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»[1] . وقد قال الشيخ رسلان : «الناس تائهون عن الحق بالعقل» . صحيفة ٣٣٨ «جزء أول» وما ذكرت ذلك إلاّ لما أرى من هؤلاء الزاعمين أنهم أنصار الإنسانية ؛ فإنهم باتباعهم لأهوائهم التى تأمرهم بها أخلاقهم ونبذهم لما جاء به الأنبياء عليهم السلام استحكمت فيهم الهمجية والوحشية ! وقد قال الجد ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون»[2] : إن انتظام العالم إنما يتم بالشرائع ، فلو عطلت والعياذ بالله تعالى كان تعطيلها الناس على ما يفنى الحرث والنسل ويخرب العالم ! أما عند خفاجى وغيره فإن الشرع العيسوى يقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الشمال . وأمر الشرع المحمدى بالعدل والإحسان إلى كل إنسان بل حيوان ، ونص على البر والإقساط بخصوص المخالفين فى الدين فقال : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»[3] . والآن جاءنا متحدثو

---

(١) النور : ٤٠ .

(٢) البقرة : ١١ .

(٣) الممتحنة : ٨ .

الغرب يشوهون وجه الإنسانية ويوقعون الخلاف بين العناصر المتجاورة والمتحابة : «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون»[١].

وأملى دوام تبشيرى عن أحوالكم السارة . مخلصكم

٨ من ربيع الآخر عام ١٣٣٨ طاهر الكيالى

حاشية : يلثم أذيالكم الطاهرة ويطلب حسن رضاكم ودوام توجيهاتكم ودعواتكم الفاخرة من إدلب من أعمال حلب .

سامى بن طاهر الكيالى[٢]

* * *

---

(١) البقرة ١١ .

(٢) الأستاذ سامى بن طاهر الكيالى (١٨٩٨ - ١٩٧٢) .

كانت هوايته الأدب ودراسة التاريخ ، والرحلات . عمل فى الإدارة ، فكان أمين السر العام لبلدية حلب خمسة وعشرين عاماً ، ومفتشا إداريا عاما لبلديات المنطقة الشمالية . ومديراً لدار الكتب الوطنية ، ومديرا للمركز الثقافى العربى بحلب .

- شغل منصب مستشار ثقافى للوفد السورى فى اليونسكو .

- كان عضواً فى اللجنة الثقافية التابعة للجامعة العربية . ومحاضراً فى معهد الدراسات العربية العليا فى مصر ، وعضوا فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى مصر وسورية . وعضواً فى مجمع اللغة العربية فى القاهرة .

- أصدر مجلة « الحديث » عام ١٩٢٧ ، وبقيت حتى عام ١٩٦٠ ، وكانت مرآة للحياة الفكرية المتجددة خلال هذه الفترة ، وتعتبر مجلة « الحديث » مرجعاً وثيقا للتيارات الأدبية والفكرية فى العالم العربى خلال هذه المدة . وكان كتابها من أعلام رجال الفكر والتجديد ، فى طليعتهم الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل وإسماعيل مظهر ، ومصطفى عبد الرازق ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم والدكتور إبراهيم ناجى وغيرهم ...

- له أكثر من ٢٨ كتابا مطبوعاً منها : « نظرات فى التاريخ والنقد والأدب » ، و « الفكر العربى بين ماضيه وحاضره » و « مع طه حسين » (ثلاثة أجزاء) و « يوميات عربى فى أمريكا » و « النفس الإنسانية فى أدب الجاحظ » و « من خيوط الحياة » ، و « الحكيم شهاب الدين السهروردى » و « أمين الريحانى » .

- توفى مساء الخميس ١٧ من فبراير عام ١٩٧٢ على أثر مرض عانى من آلامه عدة أشهر .

- وكان الفقيد فى ذلك الحين عندما كتب تذييله السابق لخطاب والده يبلغ الحادية والعشرين من عمره .

وهنا تبدأ :

الرسالة الكيالية الطاهرية

١

حيا الله الطلعة الطاهرية ، شمس العزة الكيالية ، وبدر الشريعة الإسلامية ، وزين العلماء . وفخر الكبراء ؛ فلقد أرانا من آياته العجب العجاب ، وطفقت تدخل العلوم عليه من كل باب . وأشرفت عليه شمس المعارف ، فنال منها التالد والطارف . وإنى لمدين لآياته ، مغتبط بكتاباته . وكأنى حينما رميت بالدواة والقرطاس ، ونبذت محادثة الجلاس ، وآنست بوحدتى ، ولزمت غرفتى قيض الله له الرسائل الطاهرية ، والبينات الكيالية ؛ لتنير ما بطن ، وتبرز ما كمن :

وهيج وجدى بعد ما كان نائماً براد الضحا مَشْغُوفة بالترنم
فلو قيل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكنْ بكت قبلى فهيج لى البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

فلقد ورد فى كتاب السيد المؤرخ فى ٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٨ أن ما جاء فى كتاب (جمال العالم) يناقض ما فى كتاب (أين الإنسان؟) على ما فى صفحة ١٠٣ من (جمال العالم) . وهذا التناقض الظاهرى برهان على أن العقل محتاج لميزان به يعرف صحيح الفكر من غيره كما قال الإمام الغزالى وغيره ، ثم خطره لما عليه الأشعرية من أن التقبيح والتحسين شرعيان لا عقليان ؛ لأن العقل قاصر عن إدراك جميع ما أتى به الشرع . أقول : ما ألطف جعل السيد التناقض ظاهريا ! يريد أن يحثنا على تبيان حقيقته وباطنه حتى لا نخالف أهل التحقيق ، ولا نبعد عن الحق فى مكان سحيق . فلذلك ألفت هذه الرسالة ، وأسميتها « الرسالة الكيالية الطاهرية » ؛ ليقابل لفظها معناها ، ويوافى مدلولها مبناها ، وكما أن الماء طهارة من الخبائث الجسيمة ، كذلك الحجة طهارة من خبائث الزيغ العقلية ، ولأقدم مقدمة فأقول :

٢

القول فى تقسيم الحكمة ، وفى الخير والشر

إن قارئ الحكمة عليه أن يقدم المنطق لئلا يضل السبيل ويحيد عن الصراط المستقيم ، والحكمة قسمان : علمية وعملية ؛ والعلمية فيها الرياضى والطبيعى والعلم الإلهى ، والعلمى يشمل أدب الإنسان فى نفسه وسياسته مع أهل منزله وسياسته مع أمته ، والعلم الإلهى فى الحكمة يضاهى علم التوحيد فى الشريعة ، وكل يمجد الله وثَبَّتَ له جميل الأفعال وشريف الصفات وأبهج الأخلاق جل جلاله وعز كماله وبهر سلطانه . فترى أهل الحكمة يقولون فى كتاب الإشارات لابن سينا : إن هذا العالم منظم حسن جميل بهج سائر على المنهج الأتم ، ولو لم يكن كذلك لكان كله شرا ، والشر لا يكون من العاقل ، فكيف بمن هو واهب العقول ومبدع الأصول ؟ . . ويقولون : إن الأشياء لا تعدو الخير المحض والشر المحض وما يتركب منهما ولا رابع لها بمقتضى القسمة العقلية ؛ أما الشر المحض فالحكمة لا ترضاه ، والعلم يأباه والوجود لا يحويه والله لا يأبه به ، والخير المحض وهو عالم الأرواح لامرية فى وجوده ولا نزاع فى بقائه ، وأما ما غلب خيره على شره كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس فإن حكمة الحكيم توجب وجوده ، ومن العبث والخطل أن يظل معدوماً . وجلّت حكمة الحكيم أن تضن بما غلبت خيراته وعمت بركاته ؛ ولهذا وضعنا كتاب « جمال العالم » تثبيتاً للعقائد وتبييناً لحكمة الله جل جلاله ؛ فلقد يحار العقلاء فى هذا العالم : لم خلق الله الحيات والعقارب ، وذرأ الذئاب والثعالب ، وسلط النمور والأسود على الخرفان والأرانب ؟ ولم ظلم الحاكمون وجار الظالمون وبطش الباطشون ، وأغار الأقوياء على الضعفاء وغلبت الروم فى أدنى الأرض ثم من بعد غلبهم يغلبون ؟ ولم كان النظام الحيوانى والإنسانى مغموراً فى حمأة الرذائل . وإن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ؟ ولم كان كل ما تمتعنا به نفحة من عذاب جهنم حتى نهى الله نبيه أن يمد عينه إلى ما متع به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ؟ وقال : « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا »[1] فصار أعظم النعم فى الحياة عذاباً وأهم المبرات فى الدنيا خيالاً ! . .

---

(١) التوبة : ٨٥ .

غير مُجدٍ فى ملتى واعتقادى نوح باكٍ ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعى إذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها الميادِ

فكان مدار كتاب «جمال العالم» القضاء والقدر ؛ ليكون الإيمان باليقين ولا جرم أن مسألة الحرب بالقنا والسيف والمدافع الجبلية والمناطيد الهوائية والعمارات البحرية والمركبات الكيميائية يحار العاقل فيها ولا يدرى ماذا يقول فيها ؟ وإذا كان الله قد أنزل فى كتابه «بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم» وورد فى الحديث أن الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها يشير إلى امرأة فى السبى كانت ترضع كل طفل لا مرضع له – إذا كانت هذه صفات الرحمن الرحيم وفى بنى آدم الذين استمدت رحمتهم من رحمته من لو أمكنه أن يسع البرايا لفعل – فكيف تكون إذن صفات من براه وصوره ؟ ولا جرم أنه ليس يمكن أن يكون الوصف فى المخلوق أجل ولا مماثلاً له فى الخالق ! وإذا كانت هذه كلها ثابتة نقلاً وعقلاً فكيف يتصور أن يكون هناك ظلم فى الأرض وقسوة وشدة ؟ فكان لابد فى كتاب (جمال العالم) من الحكمة الإلهية العالية ؛ فلقد استبان فيه الحكمة وأنها لا تخرج عن دائرة الرحمة الواسعة التى وسعت كل شىء .

٣

ضرب أمثال لما تقدم

الطب . . فللطبيب أن يقطع العضو من المريض ليدرأ عنه المرض ، ويزيل عنه الداء ، ويجلب إليه الشفاء . أو كمثل الأب الذى يرغب فى تعليم ولده وإن كانت الأم تأبى ذلك وتود لو يبقى ابنها فى بيتها ملازماً لها حبا له وغراماً به . فمثل الناس كمثل الأم يظنون الحرب نقمة وهى من الله نعمة ، بها يتنافسون ويتسابقون ويجدون ويجتهدون ، ويستفيقون من غفلتهم ، بل الأم التى سكنت واستنامت واطمأنت وغفلت واستقرت على فراش الراحة الوثير تألف الذل .

فإذا أوقد الله نار الحرب بينهم وبين غيرهم نشطوا من عقالهم وقاموا يصلحون ما أفسده الدهر ، وظلوا فى أعمالهم مجدين ، أولئك هم المفلحون . وقد يكون المرض والفقر للأفراد داعياً حثيثاً لاستئناف سعادتهم ونبذ شقاوتهم وذهاب فقرهم ؛ فكل مرض وفقر وحرب وحاجة تدعو حثيثاً إلى مزاولة الأعمال والمبادرة إلى المحافظة على الصحة والمال والعمل والاستقامة والدوام فى الرقى الاجتماعى : فما مثل الله مع المرضى ومع الفقراء ومع بعض الأمم الضعيفة إلا كمثل الأب البار المشفق

الرحيم العاقل الحكيم الذى أرسل ابنه إلى المدرسة وأنساه الراحة وألزمه المكتب ! ولعمرك إن الألم لا يكون إلاّ على مقدار الحاجة : ألا ترى كيف كان ظاهر الجسد بوضع الإحساس والشعور والحواس الخمس ، وفقدت الأعضاء الباطنة أكثر الإحساس ، ولم يكن للنبات ألم لأنه لم يعط قدرة على دفعه ، مع أن له من الإحساس والشعور ما به يعيش ؟ وما مثل الناس فى نظراتهم إلاّ كمثل الأم لا ترضى براحة ابنها بديلاً لقصر نظرها وقلة عقلها ! ولقد قال أرسطوطاليس للإسكندر فى رسالة : «إياك وأن تنيم الأمة على بساط الراحة فتهلك حرثهم ونسلهم ! ولكم من أمة أهلكت لما أمنت واطمأنت ! فإن الناس لا يحملون الراحة ، ولكنهم أقدر على احتمال الشدائد . إنهم عند الشدائد لقادرون وهم عند الراحة هالكون» .

° ° °

إننا فى كتاب «جمال العالم» ننحو هذا النحو من العلم ونقول : إن الحرب نعمة بل إنها باب من أبواب الرحمة الإلهية الواردة فى الحديث الشريف : «إن لله مائة رحمة ادخر تسعاً وتسعين منها لعباده المؤمنين فى الآخرة وألقى منها واحدة فى الدنيا ، فيها تتراحم الخلق حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خشية أن يصيبه» أو كما قال . هذا الذى نحونا نحوه فى كتاب «جمال العالم» .

٤

كتاب « أين الإنسان ؟ »

أما فى كتاب «أين الإنسان ؟» فإنّا قد نظرنا نظرة فى العالم الإنسانى فألفيناه على هذه الحال ، لم يزل كالصبي فى زمن المراهقة ، كما قال كاتب أمريكى ؛ فهو لا يزال يتخبط فى بحور الظلام وخبائث الأوهام . يتراكض هو والصبيان فيرجع وقد انكسرت ساقه أو جدعت أنفه أو شرخ رأسه أو فقئت عينه أو كسرت سنه . فهو أبداً دائم العراك ، ضعيف الإدراك ، قليل الأدب ، كثير النصب والتعب . ووجدت أن هذه الحال ليست هى الغاية القصوى ولا الآية الكبرى ، فلو أنها استبدل بها خير منها لكان أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً وأقرب مثالاً وأعلى مناراً ! فلكم انقرضت من الوجود أنواع من الحيوان وجاء على آثارها ما هو أنفع للإنسان ! وكم من علوم انقرضت وظهرت فى أثرها علوم ! ولقد رأيت رأس حيوان فى المتاحف المصرية التقطوه من بقايا الآثار التى عثروا عليها فى الفيوم إذ هى كالقبة الكبيرة . ويقولون : إن متاحف العالم كله ليس فيها نظير هذا الحيوان الذى ليس له نظير فى الأرض اليوم ! فإذا ما انقرض هذا الحيوان كما هو الواقع وكان غيره أصلح فهل تقول : إن وجوده لم

يكن لحكمة أو تقول : إن حكمةوجوده كحكمة خلق نوع يخلفه فى الوجود . فهكذا هنا تقول : إذا كانت الحروب القائمة والجيوش الجرارة والمناطيد الهوائية والمدافع والجنود والسيوف والبنود لحكمة ارتقاء الإنسان فلا مانع يصدنا عن القول بأن هناك نظاماً أعلى ومقاماً أرقى ، وذلك بأن نهذب الطريقة وتكون الحقيقة ، ولا توجه الحرب للمطامع الحيوانية بل للسعادة الإنسانية ، كما فعلت الرسل الكرام . وإذا كان الناس اعتادوا أن يجعلوا الحرب للطعام كالأنعام فهل ارتقوا إلى ما هو أشرف بأن العز عصبة قوية من الأمم جميعاً . ومن حسن النية وإخلاص الطوية جعل الحرب محصورة فى دائرة مقفلة وإدارة مخصوصة ، ذلك خير وأحسن تأويلاً . وإذا نحن أحببنا لعب الطفل وأبحناه بل أوحيناه وجعلناه شعار القوة والنبل والنباهة وحرمنا حصر حركاته ونسبنا إليها كل ضعف وهزال فيه – فإن تعليمه الأدب لتنظم حركاته . . والثبات فى أعماله من أشرف المطالب وأقوم المسالك ؛ فهكذا لعب الإنسان بالحرب بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فإذا أبصر رشده وعمل جهده فى نبذ تلك النزعات وتعلم الأدب وأخذ يلم شعثه ويقضى على ما كان من السيئات فقد استبدل الذى هو خير بالذى هو أدنى . كما استبدل حركات الطفل الجنين باللعب . وكما نذر آلات الحرث والحلج القديمة ونستبدل بها خيراً منها وهى تلك الآلات التجارية للحرث والطحن والبناء والنسيج وما أشبه .

٥

عجائب الله فى العقول والوحى

وإجمال ما فصل هناك ، وإزالة التناقض فى الكتابين وتفصيل الكتاب لمن أرادوا تفصيلاً هو أن عجائب الله عز وجل كما تكون فى الشرائع والديانات تكون على ألسنة العلماء وقلوب المفكرين ، قل كل من عند الله ، فإن ثبت أن الوحى المنزل على الأنبياء ، والحكمة المنزلة على الكتاب بتوفيق إلهى ، وروح سماوى ، بل النفوس الشريرة البشرية يتنزل على أفئدتها الوسواس من الأنفس المفارقة المشاكلة لها فى الملأ الأعلى ، وذلك كله من العجب العجاب والاستعداد البشرى الغريب الذى يتراءى كلوح يقبل كل ما يقابله من الصور فيظهرها ويجليها . فالنفوس تقبل ما تناسبها من العقول ، وتنشر ما استعدت له من العلوم . ولقد تجلى لى عند تأليف كتابى « جمال العالم » هذا الإنسان وهو فى دور مراهقته فأيدنا حربه وأبنا سرّ الله فيه وفصلناه تفصيلاً . فلما أن مضى نحو عشر سنين تبدى لى العالم بشكل مرجف وهيئة مزعجة ، ورأيت أن هذا النظام وإن كان مشمولاً بالحكمة ، مرموقاً بعين الرحمة ، مغروساً فى أرض الفضل الإلهى – فوقه ما هو خير منه وأبقى ، وأشرف وأعلى ، فألفت

كتاب «أين الإنسان ؟» ولم أكن إذ ذاك بصدد الذى يظهر الحكمة الإلهية فى العلم الإلهى ولا الذى يريد تثبيت العقائد وتفصيل الحقائق وإزالة الصدأ عن الأذهان ؛ فذلك كنا قد فرغنا منه وانتقلنا إلى الحكمة العملية كما أسلفنا ، ولا جرم أن الحكمة العملية موضوعها نفوس الناس من حيث أخلاقها وآدابها ونظامها ، فرأيت أن أضع لهم أحسن نظام وأجمل أسلوب بحسب طاقتى البشرية وفكرتى الإنسانية ، وفوق كل ذى علم عليم .

هذا بيانى فى هذا المقام عسى أن تقبله الأفهام .

٦
القرآن والعلوم

ولقد ورد فى القرآن مايكاد يتبين للناظر فيه أنه مشكل متناقض ، فإذا ألقيت عليه أشعة الشمس العلمية جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا . . ألم تقرأ قوله تعالى : « إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . وقوله : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم » فأمر عليه الصلاة والسلام بالسلم أولاً وبالحرب آخرا ، ولاتناقض لتباين الحالين وتباعد الأمرين ، الضعف والقوة . ولقد ذم الله المال ولكن مدحه ﷺ كما فى البخارى فقال : « نعم عون المؤمن إذا ما أعطى منه الفقير والمسكين وابن السبيل » أوكما قال : فالذم باعتبار والمدح باعتبار آخر . وقال تعالى فى صفة الذات العلية « ليس كمثله شىء » ، وقال « يد الله فوق أيديهم » ودل الفصل على نفى الجسمية عنه تعالى : فسّر العلماء حال اليد إلى التنزيه وأولوها بالقدرة وإرجاع مافى النقل إلى العقل إذا استحال . والنقل إذا قام البرهان القطعى على نقيضه أول ليوافق العقلى ، والشرائع ماعرف صدقها إلاّبعقولنا . فإذا نبذت تلك الشرائع المعقولات فقد نقضت أصلها وهو العقل ، ومالا أسّ له فهدوم ، ومالا أصل له فضائع ، فيخر شفق العقائد فوقها وينهار بناؤها على عروشها . ولما كانت هذه حال الشرائع السماوية ، وإنها لابد لها من عقول مرشدة ونفوس نيرة وآراء صائبة وعلوم مرشدة لتبين مانزل للناس بالوحى وكان الاختلاف فيها واقعا لاعتياص الدلائل وتنافر الظواهر عند الذين لايعلمون – نزل قوله تعالى « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلاّالفاسقين » . فكان القرآن بنص الآية سببا لضلال قوم لايعقلون ونوراً لقوم يفقهون . فإذاسمعوا آيات اللين فى موضعها وإذا قرءوا آيات الشدة أثبتوها فى مكانها . ولو أن الناس فسّروا الدين ولم يعقلوا أساسه لضلوا سواء

السبيل ، ولذلك نقلت فى كتابى « التاج المرصع » عن الإمام الغزالى أن من يأخذ العلم من ظواهر الكتاب والدين ينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين ، لأنه يقف عند الظواهر ولايقفو أثر الحقائق ، فيكون فى شك مبين ، ويكون الضلال والوبال . فأما المفكرون والحكماء فإنهم يجعلون لكل مقام مقالا ؛ إذ يتشبثون ويتثبتون الحقائق ويبنون المواطن ثم يجعلون لكل آية محملاً « فلآية السيف حال ولآية السلم حال » .

تم الكتاب

الفهرس

صفحة

مدخل ٥ – ٧

الباب الأول : الدراسة

الفصل الأول :

الشيخ طنطاوى فى مراحل حياته – مولده ونشأته الأولى – بين الحقل والأزهر – فى دار العلوم – حياته العملية . ١١ – ١٩

الفصل الثانى :

مؤلفات الشيخ طنطاوى وآثاره المكتوبة ٢٠ – ٣٩

الفصل الثالث :

المصلح الاجتماعى – فى سبيل العلم والدين – مذهب داروين عند العرب . ٤٠ – ٤٥

الفصل الرابع :

العالم الإسلامى : منهجه فى الإصلاح الدينى – الشيخ طنطاوى فى صحف الهند – مع السيدة جلنار – حادثة الجنيد . ٤٦ – ٥٤

الفصل الخامس

منهج الشيخ طنطاوى فى تفسير القرآن : نماذج من تفسير الجواهر – تفسير سورة النور . ٥٥ – ٧٢

الفصل السادس :

الشيخ طنطاوى جوهرى الرائد الروحى : كيف كان مبدأ تفكر الشيخ طنطاوى فى أمر الروح ؟ – هارون الرشيد وطنطاوى جوهرى – تحقيق جديد – روح هارون الرشيد – روح العباسة أخت الرشيد – روح جورجى زيدان – روح جعفر ٧٣ – ٩١

صفحة

الفصل السابع :
الداعى إلى السلام العالمى : ترشيحه لجائزة نوبل . ٩٢ – ٩٤

الفصل الثامن :
الشيخ طنطاوى فى كتب المؤرخين وآثار الدارسين . ٩٥ – ١٠٧

الفصل التاسع :
الشيخ طنطاوى فى نظر المستشرقين . ١٠٨ – ١١٦

الفصل العاشر :
نهاية المطاف : وفاة الشيخ طنطاوى – نعيه فى الصحف – نعى جمعية الشبان المسلمين : ١١٧ – ١٢٠

الباب الثانى : النصوص

مقالات متناثرة :
أمراضنا الاجتماعية – الفلسفة عند العرب – مذهب السوفسطائية – فى الفلسفة العربية – من الشرق إلى الغرب – القضاء والقدر – فى الخلافة الإسلامية – العلوم الرياضية عند قدماء المصريين ، هل هى خالية من السحر ؟ – مذهب داروين عند العرب ١٢٣ – ١٦٧

نصوص مختارة من بعض كتبه ١٦٨ – ١٨٣

الرسالة الكيالية الطاهرية . ١٨٤ – ١٩٦

كتب أخرى للمؤلف

١ – آمال : شعر منثور	١٩٣٢
٢ – هيام : شعر منثور	١٩٣٣
٣ – مسألة الجنسين : من الوجهة السيكولوجية والبيولوجية	١٩٤٥
٤ – القوى العقلية : تدريب نفسانى	١٩٤٦
٥ – دليل الإسكندرية : أول دليل من نوعه عن الإسكندرية	١٩٤٧
٦ – الأحلام والرؤى : دار المعارف (سلسلة اقرأ)	١٩٥٦
٧ – لكى تكون سعيدا : دار المعارف (سلسلة اقرأ)	١٩٦١
٨ – نحو حياة مشرقة : دار المعارف (سلسلة اقرا)	١٩٦٣
٩ – الطريق إلى النجاح: دار المعارف طبعة ثانية	١٩٦٦
١٠ – الروح والخلود بين العلم والفلسفة (سلسلة اقرأ)	١٩٧٠
١١ – العقل منبع الحكمة : عن دار الفكر العربى	١٩٧٧
١٢ – العودة للتجسد فى المفهوم العلمى الحديث « منشأة المعارف »	١٩٧٤
١٣ – منتهى الرضا : « المكتبة الثقافية » الهيئة العامة للكتاب	١٩٧٩
١٤ – الروحية طريق الحياة : المركز العربى للنشر والتوزيع	١٩٧٩
١٥ – قل الروح من أمر ربى : المركز العربى للنشر والتوزيع	١٩٧٩

رقم الإيداع	١٩٨٠/١٩٦٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٩٣٥-٤

٧٨/٤٦/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

يقول إديسون : ليس فى هذا الوجود من نحنى له الرأس إجلالاً عن حب وتقدير إلا صناع الزاد للإنسانية . .

وهذه دراسة لواحد من هؤلاء الأعلام الفلاسفة الذين كانت لهم قدم راسخة فى العلم والتأليف والتصنيف فى الفكر والحكمة والفلسفة . . فبلغوا بذلك ذروة الريادة الفكرية فى النهضة الحديثة . .

ويقدم المؤلف نصوصاً من أعمال الشيخ تجمع أبعاد تفكيره وتحيط بجوانب آرائه ونظراته فى الدين والفلسفة والمجتمع. وغير ذلك من الموضوعات المختلفة .